شوقي أبو خليل

الإسلام

في قفص الاتهام

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

تصوير ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الطبعة الخامسة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م



سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

مقدمة الطبعة الجديدة

﴿ اليَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْـلامَ دِيناً ﴾ .

[المائدة : ٣]

بسم الله القـائل في محكم التنزيل : ﴿ يُرِيـدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِـأَفْـواهِهِم ، وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَو كَرِهَ الكافِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] ، وصلى الله على سيـد المرسلين محمد بن عبد الله ، المبعوث رحمة للعالمين القائل : « **لا تزال طـائفـة من أمتي قـائمـة بـأمر الله لا يضرهم من خـذلهم أو خـالفهم حتى يـأتي أمر الله عز وجل وهم ظاهرون**[1] » ، وبعد ...

لقد تم تأليف هذا الكتاب على مرحلتين :

مرحلة أولى جمعت خلالها الشبهات التي ازدحمت في رؤوس كثير من شبابنـا عن الإسـلام ، والتي هي في حقيقتهـا غـزو فكري خـارجي ، بثّـه المستشرقـون المتعصبون ، والصليبيون الحاقدون .

ومرحلة ثانية عكفت خلالها على الرد ، بعد أن جمعت المراجع الكافية ، التي سيلمسها القارئ من خلال البحث ، وأحببت أن تكون الردود بطريقة جديـدة ، فكانت طريقة « المحاكات » : متّهِم ، وقاض ومتَّهَم يدافع عن نفسه .

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ١٠١/٤ وسنن الدارمي : ٢١٣/٢

كما أنني كتبت هذا الكتاب إلى فئتين متباينتين :

الفئة الأولى ، فئة مؤمنة بـالله خـالقـاً مبـدعـاً ، وبمحمـد بن عبـد الله نبيـاً مُرْسَلاً ، وبـالقرآن العظيم كتـابـاً مُنْزَلاً لا يـأتيـه البـاطـل من بين يـديـه ولا من خلفه .

والفئة الثانية ، فئة تائهة ضلَّت فأنكرت وجود الله ، ولم تعترف بنبوة رسول الله ، ولا بما جاء به .

كتبت لهاتين الفئتين ليكون للفئة الأولى سلاحاً فكريـاً ، وزاداً روحيـاً وهم يخوضون معركة التقاليد الفكرية في عصرنا .

وليكون الكتاب نفسه أضواء كاشفة تبدد تخيلات وأوهام الفئة الثانية ، إنْ لم تصل إلى مرحلة : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيـاتي الـذِينَ يَتَكَبَّرُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِ ، وَإِنْ يَرَوا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤمِنُوا بِهَا ، وَإِن يَرَوا سَبِيلَ الرُّشْـدِ لا يَتَّخِـذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَكَانُوا عَنْهَـا غَـافِلِينَ ، وَالَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَلِقَـاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهَم ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُون ؟ ﴾ [الأعراف : ١٤٦ و ١٤٧] .

وإنه لمن دواعي سروري أن يجد الكتاب طريقه إلى الفئتين معـا ، وشـاهـد ذلك جلي ، تعدّد وتكرار طباعتـه ، وزاد سروري ، أن أجـد الكتـاب يترجم إلى غير لغة الضـاد[٢] ، ليجـد سبيلـه إلى غير أمـة العرب أيضـاً ، وهـذا يـدل على أن مصـدر الشبهـات التي يبثّهـا أصحـاب الأغراض في العـالم الإسلامي واحـد ، وإن تغيرت أو اختلفت اللغـة التي ينطقون بهـا من بقعـة إسلاميـة إلى أخرى ، ويـدل

---

(٢) ترجم الأستاذ حسن أكبري مرزناك هذا الكتاب إلى اللغـة الفـارسيـة . ونشرتـه دار « انتشـارات بعثت » في طهران ، ويترجم حالياً إلى الأندونيسية .

أيضا على أن دواء هذه الشبهات واحد ، دواء مورده القرآن العظيم ، ومنهله سُنَّة النبيّ الكريم ﷺ .

إن الهجمة الموجهة إلى الإسلام أينا وجد ضارية ، خصص لها كل ماتحتاجه من إمكانات ، وأعداء الإسلام لا ينتهون ولا يرعوون ، ولو تبددت معظم أعمالهم : ﴿ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذي بَنَوا رِيبَةً في قُلُوبِهِم إلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُم ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٠] .

وأعداء الإسلام يعلمون أنهم لو وجّهوا جزءاً من جهودهم ، للطعن في أي مبدأ غير الإسلام لاضمحل ، ولصار تاريخاً للذكرى ، ولكنه الإسلام ، ذلك الطود الراسخ الشامخ ، الصامد الباقي بحفظ الله وبفضله وحده : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر : ٩] .

فلك الحمد ربي ، أشكر لك شكر المقر العارف فضلك ، المستزيد من كرمك وعطائك ، لعلّي ألقاك وأنت راض ، ممن تنطبق عليهم الآية الشريفة :

﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانُوا آبَاءَهُم أَوْ أَبْنَاءَهُم أَوْ إِخْوَانَهُم أَوْ عَشِيرَتَهُم ، أولَئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهارُ خَالِدينَ فِيها ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

والحمد لله رب العالمين ، عليه توكلت ، فهو نعم المولى ونعم النصير ..

شوقي أبو خليل

ص . ب ٦٢٢٢

دمشق - سورية

تصدير الطبعة الثانية

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ، ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ، لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلعَبِيدِ ﴾ .
[الحج : ٨ ـ ١٠]

الحمد لله الذي أعانني فكتبت ، ويسّر لي السبل ، فنشرت هذا الكتاب . الحمد لله الذي كلَّل جهودي بالعناية والتوفيق ، فلقي كتابي هذا مالقي من الانتشار والرواج ... الحمد لله ربي ، أسألك مزيدا ... أدعوك بقلب عرفك حين كذّب غيره فأقرّ ، وآمن بك وزلزل غيره واستقر ، وبعد ...

وقف الناس من كتابنا هذا في طبعاته الأُولى مواقف متعددة متباينة :

١ ـ فئة أخذت الكتاب ، وبعد تدارسه ، تقبّلته بإعجاب وتقدير وتأييد وصدى طيب . لمست ذلك مشافهة ، وبرسائل عديدة تلقيتها من داخل القطر ومن خارجه .

لهذه الفئة شكري وامتناني .

٢ ـ وفئة رضيت بالكتاب ككل ، وكان لها استفسارات واستيضاحات لنقاط قليلة ، راسلني أصحاب هذه الفئة ، وراسلتهم ، وفي هذه الطبعة المزيدة

والمنقحة ، عرضت بعض آرائهم من خلال البحث ، وتمسّكت برأيي في مواقف أُخرى لقناعتي به بعد إعادة البحث والتمحيص .

هذا ... وإن الخلاف جزئيٌّ لا يمس جوهر الموضوع في أكثر نقاطه .

٣ ـ فئة أخرى ، كان عنوان الكتاب في الطبعة الأولى والثانية والثالثة حجاباً بينهم وبين مافيه من خير . قد يكونون يفتشون عنه ، وما ذلك إلا من قبيل التعصب ، أو الغيرة ، التي لم يضعها أصحابها في مكانها المناسب .

« الإسلام في قفص الإتهام » ؟!! ياغيرة الله وكيف يكون ذلك ؟! علماً .. إن صاحب الفكر الموضوعي . المجرد عن كل هوى . إما أن يحسن ظنه ، ويكلف نفسه عناء الاطلاع على محتوى الكتاب . وبعدها يقرر موقفه . وإما أن يقول : إن كل متهم بريء حتى يُدان . فهل أدين الإسلام في هذا الكتاب ؟

هذه الفئة هاجمت الكتاب ـ لاأقول ظلماً وعدواناً ـ بل جهلاً وضيق أفق ، ولو علمت هذه الفئة ماحوت دفتاه ، لتبنّت الكتاب .

٤ ـ فئة أخيرة ، وصلت إلى مايُسمّى « الجهل العلمي » ، وثقت من نفسها بأول خاطر ظنته صواباً ، ومن ضلَّ على بيِّنةٍ وعلم ، لاخير في نقاشه .

انطلق أصحاب الفئة هذه من افتراضات وتحليلات وغايات ... بل ومن أهداف مناوئة للعقيدة الإسلامية ، وللتاريخ الإسلامي . مع أنه من أبسط قواعد النِّصْفَة ، أن التاريخ لايكون بالافتراض ، وبفلسفة أحكام خيالية ، مبدأ احتمالاتها واحد إلى ملايين ، « وقد تفلح الفلسفة في كل شيء ، إلا في تعليل ماعلَّته معروفة » .

من هذه الفئة ، إنسان زارني في داري ليقنعني وينصحني ألا أكتب بمثل موضوع « الإسلام في قفص الإتهام » ، لأن أفكاره ، أفكار العصور الوسطى

المظلمة ، ودعاني لكتابة موضوعات « علميّة » .

ـ قلت له : هل قرأت الكتاب ؟

ـ قال : لا .

فَصَمَتُّ ، وكم يكون الصمت أبلغ من التعبير في مواقف معينة ، منها موقفي هذا . وقبل وداع هذا الإنسان قلت له : من ألف باء العلم الذي دعوتني إليه ، وحدثتني عنه ، أن تقرأ الكتاب أوّلاً ، لتكون دعواك « علميَّة » .

فلهذه الفئة عزاؤنا . وإشفاقنا منهم على العلم و « التحليل العلمي » .

وأخيراً ... ندعو الله بدعاء الرافعي :

« اللهم هيئ لنا الخير ، واعزم لنا على الرشد ، وآتنا من لدنك رحمة ، واكتب لنا السلامة في الرأي ، وجنبنا فتنة الشيطان ، أن يقوى بها فنضعف ، أو نضعف لها فيقوى ... » .

شوقي أبو خليل

٢٨ جمادى الأولى ١٣٩٤ هـ
١٨ حزيران ١٩٧٤ م

تصدير الطبعة الأولى

☆ ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ .

[الحاقة : ١٢]

يكيد لنا العدو ـ على مختلف صوره وأشكاله ـ بما يحاول أن يثبت في نفوسنا من أسباب الضعف والتخاذل باختراع الأكاذيب . وتلفيق الدعاوى . وتزييف التاريخ . وتشويه سيرة نبي الإسلام ﷺ وطعن أعلامه ... وبما يكرره من الحديث عن نقصنا وكماله . وضعفنا وقوته . وتخلفنا وسبقه . وانحلالنا وتماسكه ... وفي بعض مانعرض من دفاع في هذا الكتاب برهان يدفع هذا الباطل . ويوضح ضعفه وقوتنا . وانحلاله وتماسكنا . وفيه إلى جانب ذلك برهان آخر على أننا حين نتحد رأياً وخطة لا يمكن أن يغلبنا على حقنا وصحة تاريخنا غالب ...

ولقد استطاع أعداء الله في غفلة من الزمن أن ينفذوا بشبهاتهم وحقدهم من فوق أسوار البناء الإسلامي المكين تحت أعين الغافلين عن حراسته في العصور الأخيرة . حينما صار أمر الدين في أيدي ناس جعلوه صلاة وعبادة فقط . وتركوا ميادين الحياة لغيرهم . واليوم تحقق للمستشرقين الصليبيين ما أرادوا بشيوع أفكارهم . لا عجب أن يجني المسلمون ثمار ما فرطوا في جنب أنفسهم حينما فرطوا في جنب الله ...

ومن خلال مطالعاتي ودراساتي في السنوات السابقة . عندما كنت طالباً في السنة الثالثة في جامعة دمشق أدرس خلالها تاريخ العرب والإسلام . مرَّ علي

وخزات وطعنات في تاريخ هذه الأُمة وفي رجالاتها . فقررت أن أتحيَّن الوقت ـ ولو بعد زمن ـ لأرد على هذه الافتراءات . خدمة لأمتي العربية الخالدة وأبنائها . لا سيا وأن لهذه الأمة ـ ولدينها بالذات ـ خصوماً محترفين . وخصوماً ينكرونه على قدر جهلهم به وبسيرة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام .

والمحترفون اتخذوا القدح في أمتنا صنعة يتفرغون لها ويعيشون منها . ولا غنى لهؤلاء المحترفين عن اختلاق المآخذ . وتصيد التهم التي تجري بها أرزاقهم . وتتصل بها أعمالهم . سواء أعرفوا الحقيقة من وراء هذه المآخذ وهذه التهم . أم جهلوها وقد أعرضوا عن البحث فيها لأنهم يريدون الاتهام ولا يستريحون إلى معرفة تهدم كل ما عملوه . وتصرفهم عن كل ما ألفوه وعقدوا النية عليه ...

وهناك زمرة من المستشرقين درست الإسلام عن حسن نية . فلا تأبى أن تعترف بالحقيقة إذا استمعت إليها أو اطلعت عليها . وبعضهم سيء النية لأنه مسخّر في خدمة الاستعمار وما إليه من الدعايات الدولية . فلا يعنيه من المعرفة إلا ما يملى له في عمله . ويمهد لدعايته ...

إنهم تخيّروا خطة لإصابة الإسلام في مقتل توهموه . ولكنهم على خطأ في اختيارهم لهذا الكذب ومجانبة الحقيقة للتهديم . إذ أن الحقيقة في المواضيع التي طرقوها أهون شيء على المسلم العارف بدينه . المطلع على سيرة نبيه . وكل اتهام أو تحدّ يوجه إلى الإسلام لا يوجه له نفسه دينا . أو لذاته عقيدة . بل يوجه إلى الفرد المسلم . فإن كان عالماً ردّه . وإن كان جاهلاً تحيّر ماذا يفعل !!

ومن حسن الطالع أن الإسلام لم يضق صدره بناقد ولا بحاقد . وأنه كان على مر العصور مثلاً حياً لسعة الصدر . واتساع الأُفق . ورحابة مدى النظر . وأن الباحثين من رجال الإسلام كانوا يردون على المغامز والمطاعن سواء أكانت صريحة أم خفية . ورد هؤلاء العلماء الواثقين لا يخدمون به قضية الدين فحسب . بل

يخدمون قضية العلم والبحث المجرد النزيه . وقد يهون الجهل إذا كان سبباً للجحود . وعدم الإنصاف . ولكن إذا اجتمع له سوء النية وخبث الطوية . فإن البليَّة هنا مزدوجة . والمصيبة مضاعفة ...

وشر ما منيت به حملات التحامل على الإسلام هو ذلك **الاتفاق المبيت ، والتدبير المحكم بين المستشرقين المتعصبين** ، كأنهم أمام متَّهم لا بدَّ أن يدينوه . وتلك النية المبيتة في الحكم تقضي دائماً إلى نتائج تكاد تكون واحدة ومتشابهة .. حتى لقد أصبحت التهم والأباطيل معروفة مكررة لكثرة ما توارد عليها من سهام الاتهام . فشوهوا الإسلام في أذهانهم فقط لا في حقيقته . مع أنهم وقفوا من البوذية - **وهي ديانة وثنية غير سماوية** - موقفاً متَّزناً . والإسلام وهو دين سماوي مُوَحِّد . وقفوا منه موقف التحامل والعداء . مع أن المُنْصِف الموضوعي لا يقف من خصمه موقف التحامل بلا دليل في قضية لا يُلقي فيها إلا كلاماً جزافاً بغير برهان .

والحق يقتضينا أن نميز أنواعاً ثلاثة من المستشرقين :

١ - جاحدون متعصبون .

٢ - فئة يمكن أن نطلق عليها : أصحاب النية الحسنة ، لكنهم لم يتبينوا حقيقة الادعاءات التي خرجت من أفواههم . وإلى هنا فقط أوْصَلَهم علمهم .

٣ - منصفون موضوعيون . استطاعوا أن يستشفوا حقيقة الإسلام وأن يتبينوا أبعاده . فعبّروا عن آرائهم ببعض الكتابات والآراء المنصفة . ومنهم من قاده الإيمان والعقل والاقتناع إلى الإسلام فأسلم .

النوع الأوَّل :

قادهم الهوى إلى التجريح المطلق . والتهويل والعويل دون حدود مثل : مرجليوث . ويوليوس فلهاوزن . والأب لامانس . ووليم مور . ونورمان ديال .

وموير . ودرمنجهم وهملتون جيب ... وعشرات أُخر . وكمثال بسيط على أفكار هذه الزمرة نأخذ « المسيو كيمون » في كتابه : « باثالوجيا الإسلام » حيث يقول : « إن الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس . وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً . بل هي مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منها إلا سفك الدماء . وأن يدمن على معاقرة الخمور ويجمع في القبائح . وما قبر محمد في مكة إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الهستريا (الصرع) العامة والذهول العقلي . وتكرار لفظة الله إلى ما لا نهاية . والتعود على عادات تنقلب إلى طباع متأصلة ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى . والجنون الروحاني ... وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات ... » .

وهذا الكاتب المستشرق وأمثاله يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية . وحيوانات مفترسة « وأن الواجب إبادة خُمْسِهِم . والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، مع تدمير الكعبة . ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر » ـ كما يقول المسيو كيمون ـ . **فمثل هذا لا يريد أن يفهم ، ولا يحب أن يفهم ، ولو برهنا على فساد رأيه ، وعلى ادعاءاته بالحجج والأرقام .**

ومن هؤلاء المستشرقين الذين حملوا معاول الهدم المؤرخ « برايس » الذي قال : « إن احتكاك الإسلام بالحضارة سيقضي عليه ويؤذن بنهايته » متغافلاً عن حقيقة لا تقبل الشك . أن الحضارة الحالية مدينة للإسلام بوجودها . وصدر الإسلام الرحب يسع العلوم كلها لأنه مصدر حث عليها .

والنوع الثاني :

قادهم علمهم المحدود إلى معرفة أشياء وغابت عنهم أشياء . عرفوا جوانب وجهلوا أخرى . فأحدهم يصيب تارة . ويخطئ أخرى . مثل غيتاني وغوستاف

لوبون . وكارل بروكلمان وهو لغوي في الدرجة الأولى . لكنه بحث في التشريع الإسلامي فتاه وأخطأ . فأمثال هؤلاء لهم شهادات منصفة . وأخطاء عن جهل وعن حسن نية أحياناً .

وغيتاني ـ المستشرق الإيطالي ـ مثلٌ آخر على هذا النوع : فهو يزعم أن الهجرة إلى الحبشة اقتصادية ولخلاف حدث بين عثمان بن مظعون وأبي بكر الصديق متناسياً تعذيب قريش واضطهادها للمسلمين ومع ذلك فإنه يرفض محقاً « حكاية الغَرَانِيق » التي سيمر بحثها . وهكذا نراه يخطئ ثم يصيب ... وأمثاله كُثُر .

ومن هؤلاء من قدم للتراث العربي الإسلامي خدمة لا تنكر في مجال البحث والجمع والتصنيف والنشر ...

والنوع الثالث :

قادته موضوعيته إلى الإقرار بجمال الإسلام . وعظمة نبيه . لكنه بقي على دينه أمثال الدكتورة لورافيشيا فاغليري والدكتورة زيغريد هونكه ، وجوته ، وتوماس كارليل ، وبودلي ، وتولوستوي ، ولامرتين ، والفيلسوف الشهير برناردشو الذي قال : **« إن محمداً يجب أن يدعى منقذ الانسانية ، إنني أعتقد أنه لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة »** .

ومن هؤلاء المستشرقين من ساقه عقله ودفعه علمه إلى الإسلام فأسلم أمثال : ليوبولد فايس الذي من كتبه الشهيرة التي تداولها الناس : الطريق إلى مكة . والإسلام على مفترق الطرق ... ومثل : إتيان دينيه[1] الفرنسي المسلم ، واللورد

---

(١) إتيان دينيه ، ولد في باريس عام ١٨٦١ . من كبار أهل الفن ورجال التصوير . صاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة . تزدان بها جدران المعارض الفنية . وتحتفظ بها المتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم . وردت ترجمته في معجم « لاروس » الكبير ، أعلن =

هيدلي[٢]، ورينيه جينو[٣]، والدكتور جرنييه[٤].

كما أسلم أخيراً الفيلسوف والسياسي والمفكر الماركسي « روجيه غارودي » ، الذي يحمل دكتوراه في الآداب ، ومرتبة الأستاذية في الفلسفة .

لقد درّس غارودي الفلسفة في الجامعات الفرنسية والجزائرية ، وانتخب في أوائل الأربعينات إلى الجمعية الوطنية الفرنسية ، وتكرر انتخابه أكثر من مرة ، وفي عام ١٩٥٦ اختير نائباً لرئيس الجمعية الوطنية الفرنسية ، وفي عام ١٩٥٩ عضواً في مجلس الشيوخ الفرنسي ، وعضواً في المكتب السياسي الشيوعي الفرنسي حتى بداية السبعينات ، وكان مرشّح الحزب الشيوعي لرئاسة الجمهورية الفرنسية .

= إسلامه رسمياً بالجامع الكبير بمدينة الجزائر في اجتماع حافل عام ١٩٢٧ . كان كثير التفكير . جم التأمل . التجأ إلى العقل في أمور دين أبويه وبيئته . فرفضها وأسلم .
أشهر كتبه ، أشعة خاصة بنور الإسلام . والحج إلى بيت الله الحرام .

(٢) اللورد هيدلي ، كان لإسلامه ضجة كبيرة لمركزه . ولما يعلمه فيه عارفوه من نضج في التفكير . وتروٍّ في الأمور . قال عن سبب إسلامه . قرع الدين الإسلامي لبي حقاً وتملك رشدي صدقاً . وأقنعني نقاؤه . وأصبح حقيقة راسخةً في عقلي وفؤادي . إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها قط من قبل .

(٣) رينيه جينو ، عالم فيلسوف حكيم . أراد أن يعتصم بنص لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ كما يقول ـ فلم يجد ، بعد دراسة عميقة ، سوى القرآن . فهو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف ولا التبديل . مؤلفاته مشهورة في أوروبة وأمريكة . وأهمها : أزمة العالم الحديث . الشرق والغرب . رمزية الصليب : فند فيه أن الإسلام انتشر بالسيف .

(٤) الدكتور جرنييه : قال عن سبب إسلامه : إني تتبعت كل الآيات القرآنية . التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية . والتي درستها من صغري . وأعلمها جيداً . فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة . فأسلمت لأني تيقنت أن محمداً ﷺ أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة ... ولو أن كل صاحب فن من الفنون . أو علم من العلوم . قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً . كما قارنت أنا ... لأسلم بلا شك . إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض .
هذه الأسطر من كتاب : « أوربا والإسلام » للدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر رحمه الله .

كُتُبَه كثيرة ، كلها عن الحرية والاشتراكية العلمية مع دراسات عن الإسلام ، مع بعض الكتب الأدبية والمسرحيات .

وفي ١١ رمضان ١٤٠٢ الموافق لِـ : ٢ تموز (يوليو) ١٩٨٢ زار جنيف بدعوة من المؤسسة الثقافية الإسلامية ، حيث أعلن إسلامه بوثيقة رسمية ، واتخذ اسم « رجا » اسماً جديداً بدلاً من « روجيه » .

وهذا يثبت أن الإسلام بحاجة إلى عقول كبيرة عالِمَة تتفهَّمه وتتبناه .

كما ويثبت ـ بعد ألف وأربعمئة سنة ـ أنه القمة في الفكر المعاصر ، يجد فيه الفلاسفة والمفكرون ـ إن لم يكونوا أصحاب أغراض أو تعصُّب ـ ضالتهم المنشودة ، وملجأهم الطبيعي والفطري حيث الانسجام الفكري والاستقرار النفسي .

وأكثر ما ركّز المستشرقون على فتوحاتنا العربية الإسلامية . فوصفوها بالوحشية والعنف . وبالقسوة والإكراه . ونسي المستشرقون صورتين متلازمتين في تاريخ البشرية :

ـ صورة بيت المقدس حين استولى عليه الصليبيون في أواخر القرن الحادي عشر .

ـ وصورته حين استعاده أهله في أواخر القرن الثاني عشر .

ففي الصورة الأُولى نجد الصليبيين يخربون ويدمرون ويقتلون سكان المدينة ويذبحونهم تذبيحاً . حتى ليعترف بعضهم أنهم وصلوا إلى مسجد المدينة في بحر من الدماء بلغ ركبتيه .

وفي الصورة الثانية نجد صلاح الدين يحمي الأرواح . ويبجّل رجال الدين . ويكرم الحرائر من النساء . ويصون المباني المقدسة . بل يرمُّها ويأمر بإصلاحها .

ـ في الصورة الأولى : وحشية هؤلاء وقسوتهم وهمجيتهم .

ـ وفي الصورة الثانية : سماحة الإسلام ونبله وكرمه ...

بهذا شهد المؤرخون . غربيهم قبل شرقيهم . منذ عصر صلاح الدين حتى اليوم . ولكن ذلك لا يروق للمستشرقين . حتى لو شهد أبناء جلدتهم بنا خيراً .

يقول المؤرخ الإنجليزي المعاصر ـ وهو من مؤرخي الحروب الصليبية ـ رانسمان Runciman في كتابه : « تاريخ الحروب الصليبية . ج ٢ » . عند كلامه عن رجوع بيت المقدس وموقف صلاح الدين وجيشه من سكان المدينة :

« **كان المنتصرون معقولين وإنسانيين** ، فعلى حين نجد الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاماً يخوضون في دماء ضحاياهم . لا نجد في هذه المرة بناء نهب . ولا إنساناً أصابه أذى . ونرى الحراس ـ تنفيذاً لأوامر صلاح الدين ـ منبثين لحراسة الطرق والأبواب وحماية المسيحيين من أي اعتداء قد يصيبهم » .

هذا ...

وفي تاريخ الغرب مساوئ ومساوئ . وعار يتلوه عار . ولكن أين « المستغربون » الذين يكرسون أنفسهم للرد على « المستشرقين » .

تاريخنا وتراثنا كفتاة كاملة الجمال والحسن . رائعة الفتنة . وتاريخهم وتراثهم كعجوز شمطاء في عينها حَوَل . ووجهها مُتَغَضِّن . وأنفها رسم قوساً في وجهها ... ووظيفة هذا الصنف من المستشرقين : تشويه الفتاة الكاملة الجمال والحسن بتلطيخها بالطين تارة . وبتمزيق ثيابها تارة . أو برميها في عرضها حسداً أو حقداً فهي العفيفة الطاهرة .

وفي الوقت ذاته وظيفتهم تجميل الشمطاء بتزيينها حتى لو اضطروا إلى تركيب أعضاء جديدة تزويراً ومكابرة ... وكل عمل نقوم به نحن فهو في عرفهم تافه لا يذكر . وإذا قام الغرب بالعمل ذاته . فهو عمل كبير عظيم مُخَلَّد ...

المستشرقــون ينظرون إلى نبــوة محمــد نظرة عــاديــة مجردة من الصوت الإلهي ، وما ذلك إلا من قبيل التعصب الديني المبني على عداء سياسي ، إنهم ينكرون أن يكون محمد ذا نبوة صحيحة . بينما هم يقرون بهذه النبوة نفسها لجميع أنبيــاء بني إسرائيل . ونحن في هــذه الأُمور لن نغمض أعيننــا عن آرائهم ولكننا سنفند الفاسد منها . وندل على موضع التحامل ليعرف القــارئ مــا يجب أن يدع مما يجب أن يأخذ .

إنهم ينكرون فضل الإسلام وأثر الحضــارة العربيــة الإسلاميــة على أوربــة . لم ينكرون ؟ الجواب من بحاثة منصف ذاع صيته . إنه الدكتور غوستاف لوبون . في كتابه الشهير « حضارة العرب » : « لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضاً . وهو أن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر بالحقيقــة . وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد »[٥] .

وقال : « والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العــالم اليونــاني القــديم إلاَّ من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد . وبفضل هــذه الترجمــة اطلعنــا على محتويــات كتب اليونان التي ضــاع أصلهــا ... فعلى العــالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقــاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً . قــال مسيو ليبري : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربة في الآداب عدة قرون »[٦] .

ومع هذا ...

فنحن لا نريد التهجم على أحد . أو مشاتمة أحد . أو توجيــه السهــام لأحــد . حتى المستشرقين المبشرين أصحــاب الهوى . لأنهم لن يشعروا بهــذا كلــه إنْ حصل . ولكن الذي نريده تفنيد هذه الشبه والمطاعن دون عويل . وإظهــار الحقيقــة دون

---

(٥) حضارة العرب . ص ٥٧٧ .

(٦) حضارة العرب . ص ٥٦٨ .

تهـويـل . لننصف العلم والبحث العلمي أَوَّلاً . ونـدافـع عن تراثنـا ثـانيـاً . وحتى لا ينحرف شبابنا الناشئ مع هذا التيار من الاتهامـات البـاطلـة التي يطلقهـا مثل هؤلاء المستشرقين . والتي تؤدي إلى إلقاء ستار كالح السواد على أعين شبابنـا الـذين لا يعرفـون حقيقـة دينهم . فيتبنـون مثـل هـذه الآراء دون دراسـة أو تمحيص ... ولهذا :

سنعمد إلى عقد **محكمة** ، وفي كل جلسة سَيُنَادى على الإسلام . ليثبت أنه فوق الاتهام . مع أن « **النائب العام** » سيوجّه إليه تهمة . والنائب العـام في كل جلسـة سيكون مستشرقاً . سنذكر اسمه واسم الكتاب الذي ذكر فيـه شبهتـه . أو افتراءه . أو شهادته . منصفة أو متحيزة . فيأمر « **القاضي** » الإسلامَ بـالـدفـاع عن نفسـه . ونحن نعني بـالقـاضي : **العقل والفكر** ، العقل الواعي المـدرك . والفكر النـاضـج الموضوعي الذي رمى التحيز وأقبل .

سيقف الإسـلام بعْـد أمر القـاضي ودون أن يكلف محـاميـاً للـدفـاع لـوضـوح الرؤيـا . ويقينـه من نفسـه . فيرافع ويتلـو محضر دفـاعـه مُبَرْمِجـاً أدلتـه . ذاكراً مراجعها بوضوح ليسهل على من يحضر الجلسـة . أن يرجع إليهـا . وتوخى الإسلام المراجع المتوفرة في الأسواق حاليـاً . مع ذكر « شواهـد » من تـاريخنـا وتـاريخهم . وآرائنا وآرائهم .

ثم نختم الجلسة بأمر من القاضي دون أن يعلن النتيجة ، أبراءة كانت أم إدانـة . لأن كل قـارئ يحمل عقلاً وفكراً مختلفـاً عن عقل الآخر وفكره . فتوخيت أن أدع الحكم بالبراءة أو إبقاء الإدانة للقارئ نفسه ـ لك أنت يا من تمسك هذا الكتـاب بين يديك ـ فدوِّن هـذه البراءة أو الإدانـة لا على الورق . بل في عقلـك وفكرك الـذي تحمله . ولم أسجل نتيجة المحاكمة في كل جلسة كي لا أفرض عليـك ـ أيهـا القـارئ ـ رأيي الـذي تـوصلت إليـه وهـو : أن الإسـلام بريء من تهم المستشرقين لا شـائبـة

تتخلّلـــه . كامــل لا نقص فيـــه ... ولكنني أريـــدك أن تتلمس تلـــك البراءة بموضوعية ...

وفي ختام هذه المقدمة :

نوجّه إلى أولئك الذين أخـذوا بـآراء هؤلاء المستشرقين - عن تحيز لكل مـا هو مستورد - أو عن سماع دون بحث . إنَّنا ندعوهم إلى قراءة هذا الكتـاب بتمعن . فـإن وجـدوا فيـه ضـالتهم فبهـا ونعمت ... وإن بقي في أنفسهم مكابرة وعنت أو عــدم قنـاعـة . فمجـال الرد والنقـاش مفتوح للجميع بهـدوء واتـزان وفكر علمي مجرد من الهـوى والتحيز والتعصب . بعيـدين عن التهـويـل والضجيـج المفتعلين . اللــذين لا يوصلان إلى نتيجة أو هدف .

وملاحظة نعرضها : إنَّنا نناقش الإسلام فكراً ومبادئ . لانناقشـه شخصيـات تبنته ثم أخطأت أو أساءت إليه !... فما أجمل النقاش الهادف الذي يتجمل بوضوح الرؤيا ...

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧]

والله من وراء القصد ..

دمشق - ١٧ ربيع الأنور ١٣٩١ هـ

١٢ أيار « مايو » ١٩٧١ م

شوقي أبو خليل

ص . ب ٦٢٢٢

دمشق - سورية

الجلسة الأُولى :

مصدر القرآن

☆ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ .
[يونس : ٣٨]

أمر القاضي الحاجب أن ينادي « الإسلام » .

الحاجب : « الإسلام » .

يدخل الإسلام ، فيقف النائب العام ويوجه ادعاءه إلى المتهم الذي وقف وهو بشوق كي يرد التهمة التي ستوجه إليه في الجلسة الأُولى .

النائب العام : القرآن من عند محمد[١] ، من تأليفه ، وأنت تدعي أنه من عند

---

(١) ورد في كتاب :

The Readers Companion To World Literature, By: Hornstein, Persy, Brown: P. 298

«Mohammed or Muhammed religious Leader and Author of the Koran».

والترجمة هي : « محمد زعيم ديني ومؤلف للقرآن » .

ـ ويشترك في هذه الشبهة كثيرون مثل : يوليوس فلهاوزن في كتابه تاريخ الدولة العربية ، ص : ٨ طبعة : مشروع الألف كتاب ، بإشراف إدارة الثقافة العامة بمصر . والدكتور بروز أستاذ الفقه الإنجيلي في جامعة بيل . ودرمنجهم ...

ـ حتى د . لوبون وقع في هذا الخطأ صفحة ١١١ في « حضارة العرب » حيث ورد : « تأليف القرآن » .

الله . فكيف تثبت عقلاً ، وبموضوعية ، ودون الاستناد إلى نصوص دينية أنه من عند الله وليس من عند محمد ؟

القاضي : ـ يخاطب الإسلام ـ هل عندك من جواب ؟

الإسلام : أيها القاضي ، كتاب موجود ، نريد أن نبحث معاً عن مصدره بمثل ما أراد النائب العام ، بالعقل والموضوعية ، ويمكنني أن أضع لمصدره ثلاثة احتمالات لا رابع لها إطلاقاً فهو إما :

أ ـ من تأليف محمد كما يدعي النائب العام .
ب ـ وإما من تأليف العرب .
ج ـ وإما من مصدر آخر (س) مجهول سنبحث عنه معاً .

ولنر هذه الاحتمالات الثلاثة واحداً تلو الآخر .

أ ـ من تأليف محمد : يمكنني أن أفند هذا الاحتمال بما يلي :

١ ـ إن أسلوب القرآن يخالف مخالفة تامة أسلوب كلام محمد ، فلو رجعنا إلى كتب الأحاديث التي جمعت أقوال محمد ، وقارناها بالقرآن ، لرأينا الفرق الواضح والتغاير الظاهر في كل شيء ، في أسلوب التعبير ، وفي الموضوعات ، فحديث محمد تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهيم والتعليم والخطابة في صورها ومعناها المألوف لدى العرب كافة ، بخلاف أسلوب القرآن الذي لا يعرف له شبيه في أساليب العرب

٢ ـ يستشعر القارئ في فطرته عند قراءة كتب الأحاديث شخصية بشرية وذاتية تعتريها الخشية والمهابة والضعف أمام الله ، بخلاف القرآن الذي يتراءى للقارئ من خلال آياته ذاتية جبارة عادلة حكيمة خالقة بارئة مصورة ، رحيمة لا تضعف حتى في مواطن الرحمة . فلو كان القرآن من

كلام محمد لكان أسلوبه وأسلوب الأحاديث سواء . ومن المسلّم به لدى أهل البصر الأدبي والباع الطويل في اللغة . أنه من المتعذر على الشخص الواحد أن يكون له في بيانه أسلوبان يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً جذرياً .

٣ ـ محمد ﷺ أمي[٢] ما درس ولا تعلم ولا تتلمذ ، فهل يعقل أنه أتى بهذا الإعجاز التشريعي المتكامل دون أي تناقض ، فأقر بعظمة هذا التشريع القريب والبعيد ، المسلم وغير المسلم حتى أصبح مصدراً من مصادر التشريع في أوروبة ، فكيف يستطيع هذا الأمي ـ وهل يتأتى له ـ أن يكون هذا القرآن بإعجازه اللغوي الفريد الغريب . وإعجازه التشريعي المتكامل اجتماعياً واقتصادياً ودينياً وسياسياً ... هل يمكن لهذا الكتاب أن يكون من عنده ؟!.

٤ ـ إن نظرة القرآن الكاملة الشاملة المتناسقة للكون والحياة والفكر والمعاملات والحروب والزواج والعبادات والاقتصاد ... **لو كانت من صنع محمد ، لما كان محمد بشراً** . إن هذه التنظيمات وهذه التشريعات والآراء تعجز عن القيام بها لجان كثيرة لها ثقافات عالمية وتخصص عميق مهما أتيح لها من المراجع والدراسات والوقت . فرجل أياً كانت عبقريته ، وأياً كانت ثقافته ، ليعجز عن أن يأتي بتنظيم في مسألة واحدة من هذه المسائل ، فما بالك بكلها مع تنوعها وتلون اتجاهاتها ؟ وهل يتسنى لأمي أن يأتي بهذه النظرة الشاملة في الكون والحياة والفكر ...؟...

٥ ـ لماذا يؤلف محمد القرآن ثم ينسبه إلى غيره ؟ فالعظمة تكون أقوى وأوضح

---

(٢) ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ المُبْطِلُون ﴾ ، العنكبوت : ٤٨ .

وأميّة النبي ﷺ ثابتة ، ولقد بحثناها مفصّلة في كتابنا : « آراء يهدمها الإسلام » ، تحت عنوان : « فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي » ص ٩١ ، الطبعة الثالثة .

وأسمى فيما لو جاء بعمل يعجز عنه العالم كله ، ولكان بهذا العمل فوق طاقة البشرية فَيُرْفَع إلى مرتبة أسمى من مرتبة البشر ، فأي مصلحة أو غاية لمحمد في أن يؤلف القرآن ـ وهو عمل جبار معجز ـ وينسبه لغيره ؟.

٦ ـ في القرآن أخبار الأولين بما يغاير أخبارهم في الكتب المتداولة أيام محمد ، **وفيه إعجاز علمي في الكون والحياة والطب والرياضيات**[٣] ... وذلك بالعشرات بل والمئات ، فهل يعقل أن هذا الأمي قد وضعها ؟ وكيف عرف الأمي أن الأرض كروية بشكل بيضوي[٤] ؟ وكيف عرف الأمي نظرية انتشار الكون[٥] ؟ وكيف عرف الأمي أن عناصر المادة في الكون واحدة[٦] ؟ وكيف عرف الأمي أن كمية الهواء في الأجواء تقل إلى درجة أن الإنسان يضيق صدره فيها[٧] ؟ وكيف أن الشمس والقمر يسبحان في هذا الفضاء[٨] ؟ وغير ذلك عشرات وعشرات[٩] ...

كيف عرف الأمي هذه الحقائق العلمية وهي التي عرفت اليوم في المخابر الحديثة والأقمار الصناعية ؟.

---

(٣) قال تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وازْدَادُوا تِسْعاً ﴾ ، الكهف : ٢٥ . فثلاثمائة سنة من سني الميلاد ، تساوي بالتام والكمال والحساب الدقيق ثلاثمائة وتسع سنين من السنين الهجرية ، فالزيادة (تسعاً) جاءت من التقويم الهجري . فكيف عرف محمد الأمي حساب ذلك ؟.. أجب نفسك !.

(٤) ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ، النازعات : ٣٠ .

(٥) ﴿ والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ ، الذاريات : ٤٧ .

(٦) ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الذينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوات وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ، الأنبياء : ٣٠ .

(٧) ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ ، الأنعام : ١٢٥ .

(٨) ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمَّى ﴾ ، الرعد : ٢ .

(٩) راجع كتابنا « الإنسان بين العلم والدين » تلمس المواضع الكثيرة التي ورد فيها إعجاز علمي اكتشفه العلم في القرن العشرين .

٧ ـ في القرآن عتب ولوم لمحمد في مواضع عديدة مثل :

سورة كاملة عنوانها « عَبَسَ » من آياتها : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ... ﴾ [عبس : ١ ـ ١٠] .

﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُم ... ﴾ [التوبة : ٤٣] .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ... ﴾ [آل عمران : ١٦١] .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ [التوبة : ١١٣] .

﴿ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ ، لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُم عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٨] .

﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ، إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، وَاذْكُر رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُل عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً ﴾ [الكهف : ٢٣ ـ ٢٤] .

﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

﴿ يَا أَيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التحريم : ١] .

هذا العتب وغيره كثير ، فهل يعقل أن يؤلف محمد الكتاب ثم يوجه العتب

إلى نفسه ؟ وحوادث عديدة قام بها محمد آنياً مع أصحابه ثم تبدلت في نص القرآن فلم يجد في نفسه غضاضة ، فلو كان القرآن من عنده لما قام بها ودوَّنها ، لغيَّرها وعمل الأنسب دون تسجيل للحادثة .

٨ ـ ودليل آخر : كانت تنزل بمحمد نوازل وأحداث من شأنها أن تحفزه إلى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً ، ولكن كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس[١٠] .

أيها القاضي :

« هب أن محمداً ﷺ استوحى أصول دينه العظيم من الأرض لا من السماء فماذا يستتبعه هذا الغرض مما يصادم العقل والواقع ؟

النتيجة الغريبة هي أن قرآناً بشرياً استطاع أن يقوم بدعوة لتوحيد الله في أسلوب من القول والتوجيه لم تستطعه كتب السماء نفسها ، أفهذا منطق[١١] ؟! » .

ـ أيها القاضي ـ ألا يرفض العقل السليم ، والفكر الموضوعي ، أن القرآن من عند محمد ؟

☆ ☆ ☆

٢ ـ الاحتمال الثاني أن القرآن :

من عند العرب : فطر العرب على حب البلاغة والأدب والشعر والخطابة ، فأقاموا له مواسم سنوية ، وكذلك الغزو فهو بحاجة إلى روح معنوية دافعة لأنه

---

(١٠) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ٥٠ .

(١١) الدعوة الإسلامية : دعوة عالمية . لمحمد الراوي ط : دار العربية . ص : ١٦٨ / ١٦٩ .

محتاج إلى شعراء وخطباء وبلغاء[١٢] يرفعون من شأن قبيلتهم ، ويحطون من قيمة قبيلة عدوهم .

ومن ناحية ثانية فإن إعجاز الرسل كان إعجازاً آنياً ، ينقضي لحينه . فرؤية معجزة خارقة للعادة ولقوانين الكون يستفيد منها من رآها عند حدوثها ، ولحكمة بالغة جاءت معجزات موسى في السحر ، لأن زمانه زمن ذاع فيه السحر وانتشر ، فبذَّهم موسى في مضمار عملهم . وحكمة بالغة أن عيسى جاءت معجزاته في الطب ، لأن زمنه ذاع فيه الطب وانتشر ، فبذَّهم في ميدان عملهم ، ومضمار سبقهم .

والقرآن : جاء إعجازه لقوم يباهون بالفصاحة والبلاغة والأدب والشعر والخطابة فبذَّهم وسبقهم في مضمار تنافسهم . فكيف يكون القرآن من عند العرب والتحدي قائم باقٍ لهم في أن يقلدوا سورة منه ؟ فجاء إعجازه خالداً خلود الزمن . ولو استطاع العرب صنع قرآن لفعلوا ، كي يحافظوا على عبادة الأصنام التي سفهها قرآنُ محمد ، فالقرآن ليس من عند العرب قطعاً لأنهم دهشوا بأسلوبه وبلاغته وتشريعه فرضخت عقولهم له ، ودخلوا في دين الله لعجزهم عن تقليده .

ـ لو كان القرآن من عند العرب لاستجابوا للتحدي القائم : ﴿ وَإِنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِين ، فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا ـ وَلَنْ تَفْعَلُوا ـ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُها النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ للكافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣ ـ ٢٤] .

﴿ قُل لَئِنِ اجتَمَعَتِ الأنْسُ والجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

---

(١٢) كم من جواب كان سبباً لعفو لبلاغته واستحسانه .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَلْ لا يُؤْمِنُونَ ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٣ ـ ٣٤] .

يقول الرافعي : « فمن ثم لم يقم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التي هي أكبر أمرهم ومن جهة الكلام الذي هو سيد عملهم »[١٣] وقال : « وحكمة هذا التحدي وذكره في القرآن إنما هي أن يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللدّ[١٤] والفصحاء اللُّسن ... حتى لا يجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن مولد[١٥] أو أعجمي كاذب أو منافق أو ذو غفلة فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله وأنه غير معجز »[١٦] .

لن يكون القرآن من عند العرب لإعجازه وتحديه لهم . لإعجازه في أسلوبه الذي يقول عنه طه حسين : إن القرآن ليس نثراً كما أنه ليس بشعر إنما هو قرآن ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم . ليس شعراً وهذا واضح فهو لم يقيد بقيود الشعر ، وليس نثراً لأنه مقيد بقيود خاصة به لاتوجد في غيره وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة[١٧] .

إن خروج القرآن عن أساليب العرب دليل على إعجازه وعلى أنه ليس من كلام الناس ولامن كلام محمد ولولا هذا الأسلوب ماأفحم العرب لأنهم رأوا جنساً من الكلام غير ماتؤديه طباعهم . ولما حاول بعضهم معارضته « كمسيلمة » الذي

---

(١٣) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢١٨ ط ٣ .

(١٤) اللد : الخصم الشديد . مختار الصحاح : ٥٩٥ .

(١٥) مولد : عربي غير محض . مختار الصحاح : ٧٣٥ .

(١٦) إعجار القرآن للرافعي ص ٢٢ ط ٣ .

(١٧) من كتاب حديث الشعر والنثر ص ٢٥ . « طبع دار المعارف بمصر » .

آخذ يقلده فجاء بشيء لا يشبهه ولا يشبه كلام نفسه فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها[١٨] .

ويمكن أن أنهي هذا البند بأن التحدي قائم والإعجاز ظاهر . وليس القرآن من عند العرب .

☆ ☆ ☆

٣ً ـ الاحتمال الثالث والأخير أن يكون من **مصدر آخر (س)** : إذا عجز العرب عن التحدي وهم أصحاب اللغة ، فهل يعقل أن يكون من صنع بشر غيرهم ؟ من باب أولى أنه ليس من صنع الفرس أو الروم أو الأحباش .

ليس من عند العرب وليس من عند الاقوام المجاورة الأُخرى بالضرورة . فمن أين هو إذن ؟ هل هو من عند بشر وقد عجز أفصح العرب ـ وهو بلسانهم ـ عن تقليده ؟ قطعاً أنه فوق مقدور البشر . فوق طاقتهم ، فمن أين جاء إذن ؟ لنضعك أيها القاضي ـ وأنت الفكر والعقل ـ حكماً .

وجوه الإعجاز فيه كثيرة : فصاحة في كل المواضيع والمواضع ، بلاغة غريبة ، سلامة من التناقض والخطأ ، غزارة في المعاني ، أنباء ومعجزات غيبية ، تشريع متكامل متناسق ... بعد هذا كله **من أين يمكن أن يكون ؟؟**



(١٨) روح الدين الإسلامي (عفيف طبارة) ص ٣٤ ط ٦ .

(الجلسة الثانية)

القرآن والكهان

☆ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَاتُؤْمِنُونَ ، وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَاتَذَكَّرُونَ ﴾ . [الحاقة : ٤١ ـ ٤٢]

حضر الإسلام ودخل القاعة . مرفوع الرأس . واثق الخطى . وابتدأت الجلسة الثانية ووقف النائب العام[١] ليقول : الإسلام والقرآن ومافيه من تأليف الراهب بَحِيرى . أعطاه محمد أثناء وجوده في بلاد الشام : « إن محمداً سافر مع عمه إلى بلاد الشام مرة ، وتعرف في بصرى براهب نسطوري في دير نصراني وتلقى منه علم التوراة »[٢] .

القاضي : مادفاعك أيها الإسلام ؟

الإسلام : سيادة القاضي

---

(١) صاحب الشبهة هو « نورمان دنيال » عميد كلية الملكة بجامعة أكسفورد في كتابه : (الإسلام والغرب من سنة ١١٠٠ ـ ١٣٥٠ ميلادية) .

(٢) حضارة العرب ص ١٠٢ .

ـ وفي تاريخ العرب العام لـ « ل . ا . سيديو » الطبعة الثانية ١٩٦٩ (عيسى البابي الحلبي وشركاه) ورد : « ونحن حين نقدر القرآن . نقول إن محمداً لم يبتع في تأليفه أن يمنح البشرية أدباً أفضل مما في الإنجيل ... » . وقال : « أُلهِمَ محمد المبادئ اليهودية والنصرانية فأقام ديناً بعيداً عن الخوارق ... » وقال : « فبلغ ـ محمد ـ بُصرى ، فاجتمع فيها ببحيرى الذي كان اسمه لدى النصارى ، جرجيس أو سرجيُس ، فنال حُظْوةً عنده » . ص ٥٨ .

لي ملاحظة بسيطة صغيرة أوردها في دفاعي ضد هذه الشبهة .

إن اسم الكاهن الـذي زعموا أنـه كان يملي أو يعطي قصص القرآن للنبي ﷺ ، كان يختلف دائماً باختلاف مرجع ومصدر هذه الشبهة أو الإشاعة المفتراة ، فـإن كان المرجـع مسيحيـاً فـالراهب هـو سرجيـوس أو « بَحِيرَى » وفي مرات أخرى هـو « ورقة بن نوفل » .

وإذا كان المرجع يهوديـاً فصـاحب القرآن « حـاخـام » إسرائيلي مجهـول الاسم ـ ولاندري لماذا ! ـ كما جاء في رواية (بيـدرودي ألفونسو) الـذي ينتهي في أصلـه ونسبه إلى بني إسرائيل[٣] .

يا أيها القاضي لنتفكر في هذه النقاط الثماني التالية :

١ ـ روايات عـدة : أو اختلاف الروايـات يـدل على أن الشبهـة والتهمـة لم يتفق عليها ولم تكن مُحْكَمة . فمرة بَحِيرَى ، وتارة وَرَقَة ، وكرة حاخام بيـدرودي ألفونسو ... أليس هذا كافياً لرد التهمة ؟

٢ ـ إن عمر محمد ﷺ كان تسع سنوات[٤] فقـط عنـدمـا ذهب مع عمـه أبي طـالب إلى الشـام ، فهل يُعْقَل أن يعي ويستوعب هـذا الطفل الأمي مـا يمليـه لـه بَحِيرى ؟

ولما عاد ثانية مع ميسرة خادم خديجـة في تجـارة لهـا كان عمره خمسـاً وعشرين

---

(٣) مايقال عن الإسلام ص ٢٦٦ .

(٤) الكامـل في التـاريـخ : جـ ١ ص ٢٣ ، والطبري : جـ ٢ ص ٢٧٨ ، الروض الأنف : جـ ١ ص ٢٠٦ ، عيـون الأثر : جـ ١ ص ٤٠ ، وفي الـوفـا بـأحـوال المصطفى لابن الجـوزي جـ ١ ص ١٣١ : « لما خرج أبو طالب إلى الشام خرج معه رسول الله ﷺ في المرة الأولى وهو ابن اثنتي عشرة سنة » .

سنة[٥] ، لم يتكلم ميسرة إلا بما رأى من عناية الله بمحمد ، ولم يجتمع محمد في هذه التجارة مع أي كاهن أو راهب ، فلماذا نتغافل عن معجزات الله لنبيه ﷺ وهو في تجارته لخديجة ؟ ولماذا ـ نظن ـ أنه أخذ تشريعاً في هذه الرحلة ؟ .

ويحضرني تساؤل : محمد وهو في التاسعة لانقبل عقلاً أنه يستوعب قرآناً . خاصة وأنه أمي ، ولكن من المحتمل وهو في الخامسة والعشرين أنه وعى هذا التشريع ، والرد العقلي الموضوعي يكون : إن محمداً عندما كان في التاسعة كان أمياً ، وهو في الخامسة والعشرين أمي أيضاً ، ثم كيف رتب هذه التجارة مع خديجة بنت خويلد ـ ولم تكن زوجته بعد ؟ ـ **وهل كان من الممكن أن يخرج إلى بلاد الشام خلسة لو لم تكلفه خديجة بتجارتها ليأخذ من بَحِيرى القرآن ؟**

وماهي الصلة السابقة بين محمد وبَحِيرَى ؟ ولماذا انتقى بَحِيرَى محمداً بالذات وأعطاه هذا التشريع ، ولم يعطه لابنه أو قريبه أو يدعيه لنفسه ؟

لماذا يعطي المجد والخلود والشهرة والقوة والنصر وخير البشرية وإنقاذها إلى هذا العربي اليتيم ولم يدعه لنفسه ؟ أليس هو ـ أقصد الراهب بحيرى ـ أولى بذلك من يتيم أبي طالب ؟؟؟

٣ ـ إن النبي ﷺ لم يبق ـ في رحلته الأُولى ـ إلا وقتاً قصيراً مع بَحِيرى بوجود أُناس كثر ، فعامل الزمن يجب التنبه له ، فهل يكفي لهذا الأمي الصغير يوم أو يومان أو ثلاثة كي يعي القرآن كله جملة وتفصيلاً ؟.

ولو أنه أخذ شيئاً من بحيرى لقالت قريش لمحمد لما ادعى النبوّة : إن بحيرى

---

(٥) الروض الأُنف : جـ ١ ص ٢١٢ ، عيون الأثر : جـ ١ ص ٤٧ ، البداية والنهاية : جـ ٢ ص ٢٩٥ .

أعطـاك هـذا ، ولكان ذلـك ورقـة رابحـة بيـد قريش[٦] ، لأنـه لن يستطيـع إنكار ماأخذ بوجود قومه ، وهذا مـاله تمله قريش في حربهـا الإعلاميـة ضـد النبي وضـد القرآن ، وهي التي أشـاعت مـاأشـاعت ، وعملت مـاعملت للـوقـوف في وجـه النبي والقرآن !!

٤ ـ رفضنا عقلاً وبرهنا بموضوعية أن القرآن لن يكون من عند بشر مطلقـاً ، فبَحِيرى بشر ، وورقـة بن نوفـل بشر ، وحـاخـام الفـونسـو بشر ... كلهم بشر فلن يكون من عندهم ، ولو بقي محمد عندهم آلاف السنين لما أتوا بمثله ولما أعطوه بالتـالي هذا التشريع المعجز .

٥ ـ لم يعـاصر بَحِيرى أو ورقـة ... التسلسـل الـزمني للحـوادث الواردة في القرآن الكريم ، فأين بحِيرى أو ورقة أو ... من سؤال يسألـه رسول الله فنرى الإجابة قد وجدت في حينها وجاء القرآن يشرحها ويحـدد موقفـه منهـا ، وهـذا يـدحض دحضـاً قـاطعـاً كون القرآن من عنـد هؤلاء فلو كان جـزء منـه من عندهم ، لكانت الحوادث التي جرت بعدهم وتكلم بها النبي من عنده لها أسلوب يغاير أسلوبهم ، أي لكان في القرآن أسلوبان متغايران وهذا مالانراه في القرآن قطعاً .

ومهما كان بَحِيرى أو غيره : كبير عقل ، وصاحب نظر ثـاقب ، وعبقريـاً فـذاً رهطاً ، فلن يعرف أو يعرف غيره حوادث جرت بعد وفاته بعشرات السنين !..

٦ ـ في القرآن الكريم آيات لاتوافق عقيدة المسيحية فكيف يكتبهـا بَحِيرى أو ورقة ؟ وآيات توضح نفسية اليهود الخبيثة فكيف يكتبها « حاخام » ؟.

---

(٦) ولقال ذلك هرقل وملك غسّان أيضاً عندما دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام ديناً سماوياً موحاً بـه من الله إليه .

آيات لا توافق المسيحية :

١ - ﴿ وَقَوْلِهِم إِنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَاصَلَبُوهُ وَلكِن شُبِّهَ لَهُم وَإِنَّ الذِينَ اختَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَالَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ﴾ [النساء : ١٥٧] .

٢ - ﴿ يـاأَهْلَ الكِتَابِ لاَتَغْلُوا في دِينِكُم وَلاَتَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ ، إِنَّمَا المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَتَقُولُوا ثَلاثَةٌ ، انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء : ١٧١] .

٣ - ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ وَقَالَ المَسِيحُ يـابَنِي إِسْرائِيلَ اعبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِك بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

٤ - ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابنَ مَرْيَم أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالَ : سُبْحانَكَ مَايَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَافِي نَفْسِي وَلاَأَعْلَمُ مَافِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

٥ - ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ يابَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدي اسمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصف : ٦] .

فأين التوحيد لله المطلق في العقيدة الإسلامية من التثليث في عقيدة بَحِيرى ؟!

وآيات تندّد باليهود ونفسيتهم :

١ ـ ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُم وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُم لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُم يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

٢ ـ ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِم وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ... ﴾ [المائدة : ٦٤] .

٣ ـ ﴿ مَثَلُ الذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ، بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ، وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٥] .

٤ ـ ﴿ ... قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أَدْنَى بِالذِي هُوَ خَيْرٌ ؟ اهبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَاسَأَلْتُمْ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ وبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ٦١] .

٥ ـ ﴿ وَإِذَا جَاؤُوكُم قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَخَلُوا بِالكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ . وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالعُدْوانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[7] [المائدة : ٦١ ـ ٦٢] .

٧ ـ هل الراهب بَحِيرى كاذب ؟ أو ورقة كاذب ؟ كيف نرضى بعالم دين ، عكف واعتكف في صومعته وديره للعبادة ومعرفة الله عقلاً وروحاً أن يكذب ؟ والكذب نقيصة لانقبل بها لإنسان عادي ، فكيف لناسك متعبد ؟ كيف يقول أحدهم أن القرآن من عند الله نزل على قلب محمد بن عبد الله وهو من عنده ؟

---

(٧) راجع تفسير الآيتين في أحد التفاسير ، مثلا « التفسير الحديث » لمحمد عزة دروزة ، جـ ١١ ص ١٣٩ .

هل يرضى صاحب الشبهة « نورمان دنيال » أن يكون عالم دينه كاذباً ؟ ومامصلحته في هذا الافتراء ؟

٨ ـ وكلمة أخيرة ـ ياسيادة القاضي ـ

إن القرآن الذي قالوا عنه إنه من عند بَحِيرى أو غيره ، صاغوه في ترجماتهم إلى الأوربية بتشويه وتحريف فلم يسمع الأوربي بلاغة وتشريع القرآن ، ترجماتهم مشوَّهة[٨] فلا أمانة تاريخية أدبية في النقل لغرض في نفوس المترجمين ، ترجماتهم ذكروا فيها قصصاً غرامية ، هذا الراهب : فيدنزيو Fidenzio يقول بأسلوب القصص الغرامية الأخاذة[٩] :

« كان هناك رجل يسمى سيدوس ـ زيد ـ له زوجة تسمى زبيب[١٠] ـ هكذا ـ وكانت هذه الزوجة أجمل نساء الأرض في زمانها ، وسمع محمد بجمالها الرائع فشغف بها حباً ، وأراد أن يراها ، فقصد إلى منزلها في غياب زوجها يسأل عنه ، فقالت له الزوجة : ماذا تبغي يارسول الله ؟ وماذا جاء بك عندنا ؟ إن زوجي قد ذهب إلى عمله . ولم تخف المرأة خبر الزيارة عن زوجها الذي سألها عند عودته : هل كان رسول الله هنا ؟ فقالت : نعم كان هنا . قال : هل رأى وجهك ؟ قالت : نعم رآه وأطال النظر إليه . فقال الزوج حينئذ : لاعيش لي معك بعد الآن ... » .

ومضى الراهب « الأمين » في سرد القصة على هذا النمط مستشهداً لها بما ورد عن حديث زيد وزوجته في سورة الأحزاب فتمَّت « الأُحدوثة » .

---

(٨) راجع عدد « الهلال » شهر كانون الأول سنة ١٩٧٠ ، لمعرفة الترجمات كلها وذلك في ص ١٠٤ حتى ص ١١٧ .

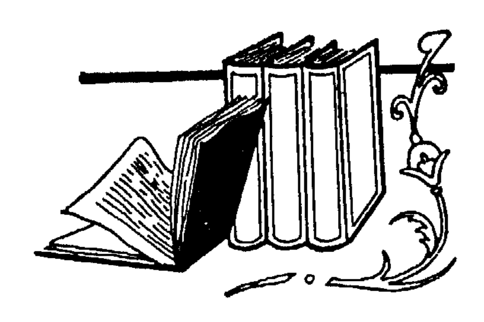
(٩) مايقال عن الإسلام ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

(١٠) ترجمة أمينة حتى في الأسماء (زينب) ترجمتها : « زبيب » . والقصة مفصلة في بحث زوجات محمد في هذا الكتاب . فتُراجع لمعرفة كذب ودجل (فيدنزيو) وأمثاله وأشياعه .

(فمن يكـذب ويفتري علينـا بمثل هـذه الإفتراءات التي لانقبلهـا ـ أو يقبلهـا عاقل ـ على مؤمن عادي من عامة المسلمين ، ينطق بـإشـاعـات منهـا أن القرآن من عند راهب) .

فـالأدلـة الثانيـة ـ أيهـا القـاضي الحكيم ـ كل واحـد منهـا كافٍ لرد شبهــة : « نورمان دنيال » عميد كلية الملكة بجامعة أكسفورد .





(الجلسة الثالثة)

تناقض في القرآن

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرْآنَ ؟ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثيراً ﴾ [النساء : ٨٢]

التهمة اليوم موجهة من (جولد تسيهر) ولوسيان كليموفتش ، اللذين لا يعترفان بالقرآن كتاباً سماوياً ، بل إنه من تأليف محمد ، وهذه الشبهة رددنا عليها وأثبتنا عقلاً أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر ولو اجتمعوا له . وهما يزعمان أن بالقرآن تناقضاً . فلنستمع للنائب العام :

وقف النائب العام وقال : « **ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً وخالياً من المتناقضات** ولم يصلنا من المعارف الدينية ، الأكثر أهمية وخطراً ، إلا آثار عامة نجد فيها ـ إذا بحثناها في تفاصيلها ـ أحياناً تعاليم متناقضة »[1] .

... ويقول القرآن : « إن الله خلق جميع الحيوانات من الماء ، ثم يذكر بعد ذلك في سبع آيات مختلفات أن الله خلق الإنسان خلقاً ، ثم هو في الوقت نفسه يناقض نفسه بنفسه سبع مرات ، فيقول في مرة : إن الله خلق الإنسان من التراب ، في مرة ثانية من طين ، وفي مرة ثالثة من الفخار ورابعة من

---

(١) جولد تسيهر في بحثه : « نمو العقيدة الإسلامية وتطورها » . والنص عن : « الإسلام بين الإنصاف والجحود » .

الصلصال ، وخامسة من صلصال كالفخار ، وسادسة من حمأ مسنون ، مرة سابعة من الماء ... وهي كلها متناقضات تؤكد أن تأليف القرآن لم يتم في زمن واحد ، ولا على يد مؤلف واحد »[٢] .

جلس النائب العام فخوراً بشبهته ، وأمر القاضي الإسلام أن يدافع عن نفسه أمام هذه التهمة الخطيرة ، فوقف وقال :

ـ أيها القاضي الكريم ، أغرب ما أستغربه أن يكون تفسير ودراسة القرآن الكريم على أيدي أناس مافهموا اللغة العربية التي هي لغة القرآن . وأغرب من ذلك أن يركض شبابنا إلى تفسيرات المستشرقين الذين اتصفوا إما بالجهل وإما بالحقد وإما بالتعصب ، أيها أجدر ـ عقلاً ـ بالتفسير والأخذ عنه : مفسرونا العرب المسلمين الذين عجنتهم اللغة العربية ، وعشقوها وعشقتهم ، وتبحروا بها حتى صارت جزءاً من كيانهم ... أم نعتمد على مستشرقين لا يعرفون نطق حرف « الضاد » بعد ؟ أو « الحاء » ، أو « الخاء » ؟. أصاحب اللغة العربية أجدر بتفسير لغته ، وإفهام العالم مكنون قرآنه العظيم ، أم إنسان آخر بدأ يدس لتعصب في نفسه ، وحقد في قلبه ، وغل في روحه على أمتنا العربية الإسلامية ؟

إن التناقض « موجود » ولكن أين ؟ إنَّه موجود في عقول المتعصبين ، وفي رؤوسهم ، وفي كلامهم ـ مكابرة ـ إن التناقض موجود في كلام جولد تسيهر نفسه عندما وضع تعريفاً للقرآن ، فعرفه بقوله : إنه كتاب الإسلام المقدس « ودستوره الموحى به »[٣] . اعترف بأنه لا يمكن أن يكون من عند بشر ـ لا محمد ولا غيره ـ فهو فوق طاقتهم ، ولكن غلبت على الرجل نوازع قومه ، ومآخذ الهوى فمال مع هذه المآخذ والنوازع .

---

(٢) لوسيان كليوفتش عن كتاب « المسلمون تحت الحكم الشيوعي » للأستاذ محمد سامي عاشور .

(٣) راجع ص ١٠١ من كتاب « الإسلام بين الإنصاف والجحود » لمحمد عبد الغني حسن .

هذه التهمة ليست جديدة ـ يقولها المستشرقون حديثاً ولم تكن بالأمس ـ إنها قديمة حملها جيل عن جيل ، ألم تقل قريش عن القرآن ، كما ذكر القرآن : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ [الفرقان : ٤] ، وقالوا : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام : ٧ (٧/١١ ، ٤٣/٣٤ ، ١٥/٣٧)] .

وتصدى في كل عصر لأمثال المفترين السابقين من رد كابن قتيبة الذي قال : « وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ، ولغوا فيه وهجروا واتبعوا ﴿ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران : ٧] . بأفهام كليلة وأبصار عليلة ، ونظر مدخول ، فحرفوا الكلام عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله ، ثم قضوا عليه بالتناقض ، والاستحالة في اللحن ، وفساد النظم والاختلاف ، وأولوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر ، والحدث الغر ، واعترضت بالشبه في القلوب ، وقدحت بالشكوك في الصدور ، ولو كان مانحلوا إليه على تقديراتهم وتأويلهم ، لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله ﷺ يحتج عليه بالقرآن ، ويجعله العلم لنبوته ، والدليل على صدقه ، ويتحداه في موطن بعد موطن على أن يأتي بسورة من مثله ، وهم الفصحاء والبلغاء ، والخطباء والشعراء ، والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحِدَاد ، واللدد في الخصام ، مع اللب والنهى وأصالة الرأي ، وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب ، وكانوا مرة يقولون : هو سحر ، ومرة يقولون : هو قول الكهنة ، ومرة يقولون : أساطير الأولين ، ولم يحك الله تعالى عنهم ، ولابلغنا في شيء من الروايات أنهم جدبوه[٤] من الجهة التي جَدَبَهُ منها الطاعنون »[٥] .

---

(٤) جدبوه . عابوه . مختار الصحاح ، ص : ٩٤ .

(٥) « الإسلام بين الإنصاف والجحود » ص ٩٦/٩٥ .

ومن هذه التناقضات التي اتهم بها القرآن :

١ ـ ورد في سورة الطور ، ٢٥ : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ . بينما في سورة المؤمنون ، ١٠١ : ﴿ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُم يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ . ففي الآية الأولى إثبات للتساؤل ، وفي الثانية نفي له ، وفي ذلك تناقض جلي .

٢ ـ جاء في سورة الحجر ، ٩٢ ـ ٩٣ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، وجاء في سورة الرحمن ، ٣٩ : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌ ﴾ . فبين الآيتين تناقض واضح .

٣ ـ نقرأ في سورة الأنفال ، ٣٣ : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ . ونقرأ في سورة الأنفال نفسها ، الآية : ٣٤ : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُم اللهُ ﴾ ، فالتناقض بيِّن .

٤ ـ ورد في سورة الكهف ، ٤٦ : ﴿ المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾ ثم ورد ما يشوش ويعكس هذا المعنى في سورة التغابن ، ١٤ : ﴿ يَاأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنَّ مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُم عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُم ﴾ ، وفي سورة الأنفال ، ٢٨ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ . فالمعنى في الآيات الثلاث غير مترابط ولا يمكن التوفيق بينها .

٥ ـ ادعاء « لوسيان كليموفتش » عن تناقضات الخلق : مرة من ماء ، ومرة من طين ، ومرة من تراب ، ومرة من صلصال ، ومرة من حمأ مسنون ...

☆ ☆ ☆

أيها القاضي الحكيم ... قبل تفنيد هذه « التناقضات » واحدة تلو الأخرى ، تحضرني قصة أجعلها مقدمة لدفاعي عن القرآن العظيم :

يُرْوَى أن إبليس ظهر يوماً لأحد النساك ، فبين سؤال وجواب بينهما ، طرح الناسك سؤالاً فقال : ياإبليس ، أتحفظ شيئاً من القرآن الكريم ؟ .

إبليس : نعم ، وكيف لا ؟ وهو كتاب الله عز وجل !.

الناسك : ماذا تحفظ منه ، أتلُ عليَّ اسمعني ؟.

إبليس : ﴿ يَاأَيُّها الذِينَ آمَنُوا لاَتَقْرَبُوا الصَّلاةَ ﴾[6] [النساء : ٤٣] ، ثم تنفس برهة وقال : ﴿ فَوَيْلٌ للمُصَلِّينَ ﴾[7] [الماعون : ٤] ، ثم سكت ، وأخذ ينظر للناسك .

الناسك : ويل لك ، ألا تحفظ غير هذا ، إن لكلا الآيتين تتمة لماذا لم تذكرهما ؟

إبليس : ليس فرضاً عليَّ أن أحفظ القرآن كله ، إنما تلوتُ ما تيسر منه .

الناسك : اللهم أعوذ بك من علم لاينفع ، وأعوذ بك من عالِمٍ ضال بهواه ، مضلل عن قصد ، أو مكابر حاقد ... اللهم أعوذ بك من إبليس وجنده من الجنّ والإنس ، فاختفى إبليس اللّعين وعاد الناسك إلى عبادته ، وراح إبليس يفتش عن جاهل يغويه .

أيها القاضي ، وهكذا المستشرقون ، إنهم يفسرون حسب هواهم ، والتناقض المزعوم نُوضِّح كل بند حسب تسلسله بما يلي :

١ ـ إذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، تقطعت الأرحام وبطلت الأنساب ،

---

(٦) النساء : ٤٣ ، وتتمتها ﴿ ... وَأَنْتُم سُكَارَى ﴾ .

(٧) الماعون : ٤ وتتمة الآية الكريمة ، ﴿ الذينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِم سَاهُون ﴾ .

وشغل الناس بأنفسهم عن التساؤل : ﴿ فَصَعِقَ مَنْ في السَّمٰوات وَمَنْ في الأَرْض ﴾[8] [الزمر : ٦٨] ، فإذا نُفِخَ فيه أخرى قاموا ﴿ ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ حول أي شيء : ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢] .

لقد غفل المستشرقون والمبشرون أن بين الحالتين فرقاً ، يقتضي التساؤل في واحدة ، وعدم التساؤل في الأُخرى .

٢ ـ التناقض الثاني الذي ليس في القرآن ، بل في ذهن المستشرقين ، نوضحه كما يلي :

يُسأل الناس يوم القيامة ويوقفون على ذنوبهم ، ويحاسبون حساباً عادلاً كل بحسب عمله ، وذلك في موقف معلوم ، فإذا انتهت المسألة ، وألزمت الحجة ، انقطع الكلام ، وذهب الخصام ، وانقسم الناس وامتازوا إلى شقي وسعيد ، وَعُرِفَ أصحاب اليمين من أصحاب الشمال فلم تعد حاجة للسؤال . وهذا الموقف غير ذاك ، لكل ظرفه المناسب . **الموقف الأول سؤال للحساب ، والثاني تم السؤال وألزمت الحجة** فلا سؤال بعد إصدار الحكم .

٣ ـ التناقض الثالث الذي ورد في عقول المستشرقين ، نوضحه بما يلي :

﴿ اللّهم إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَليمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، فهو يريد : أهلكنا وأهلك محمداً ومن معه عامة ، ولا تبق على واحد من الجميع ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِم وَمَا كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وَهُم يَسْتَغفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] أما

---

(٨) للتوسع في موضوع هذه الآية راجع ، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، الجزء الثاني ، ص ٢٧١ وما بعدها ، الطبعة الثالثة « طبع البابي الحلبي عام ١٩٥١ » .

تعذيبهم وهم يصدون عن المسجد الحرام فقد كان بعد خروج النبي ﷺ والصحابة عنهم فأين التناقض ؟ ! .

٤ ـ ليس من تناقض أو تشويش في البند الرابع : « المالُ والبنون زينة الحياة الدنيا ... » الخطاب للمؤمن الذي سيبقى قلبه معلقاً بالباقيات الصالحات. ... والمال والبنون أيضاً فتنة ـ امتحان ـ لضعيف الإيمان ، فقد يحجبه المال أو البنون عن الخالق العظيم إذا تشاغل بها عنه ، وجعل همَّه هذه الزينة الزائلة . فيجب ألا يطغى نصيب الدنيا على نصيب الآخرة . المال والولد فتنة ـ اختبار ـ ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٥] لمن آثر محبة وطاعة الله على محبة الأموال والأولاد ، فهما زينة حياة المؤمن ، وهما فتنة لضعيف الإيمان أو فاقده .

فلا تناقض ، بل تكامل بين الآيات وترابط .

٥ ـ رد الإسلام على التناقض الذي ادعاه « لوسيان كليموفتش » :

جمعت الآيات التي تذكر خلق الإنسان من « ماء » فكانت[٩] : (٢١ / ٣٠ ، ٢٤ / ٤٥ ، ٢٥ / ٥٤ ، ٣٢ / ٨ ، ٥٦ / ٦٨ ، ٧٧ / ٢٠ ، ٨٦ / ٦) والآيات التي تذكر خلق الإنسان من تراب هي : (٣ / ٥٩ ، ١٨ / ٣٨ ، ٢٢ / ٥ ، ٣٠ / ٢٠) . والآيات التي تذكر خلق الإنسان من طين هي : (٣ / ٤٩ ، ٥ / ١١٣ ، ٦ / ٢ ، ٧ / ١١ ، ١٧ / ٦١ ، ٢٣ / ١٢ ، ٣٢ / ٧ ، ٣٧ / ١١ ، ٣٨ / ٧١) . أما الفخار والصلصال والحمأ المسنون . فذكرت هذه الكلمات في سورتين فقط الرحمن (٥٥ / ١٤) . وفي سورة الحجر (١٥ / ٢٦ ـ ٢٨ ـ ٣٣) .

ولدى رجوعنا إلى عدة تفاسير كابن كثير والظلال والتفسير الحديث والبيضاوي . وكلمات القرآن المفسرة الموضحة وجدنا أنه لا خلاف مطلقاً . ولا صحة بتاتاً لادعاء « لوسيان » .

---

(٩) الرقم الأول يدل على السورة بحسب تسلسلها والرقم الثاني على الآية .

ونوضح الآن ما يلي :

الخلق من ماء هو الخلق الحالي الذي حفظ النسل بعد خلق آدم من تراب ، والمراد بالماء في الآيات الوارد أرقامها سابقاً : المني . وهذا المني وُصف في سورة السجدة بأنه « مهين » أي ضعيف حقير ـ وهو كذلك ـ وصف في سورة الطارق أنه « دافق » أي مصبوب بدفع وسرعة في الرحم ـ وهو كذلك .

أما الخلق الأول فهو من :

ـ صلصال : وهو من الطين اليابس كالفخار[١٠] أو من :

ـ حمأ : وهو طين أسود متغيّر من طول مجاورة الماء .

والمسنون : المصور صورة على هيئة إنسان أجوف .

والفخار : الطين الذي يحرق ليتحجر .

فخلق الإنسان الأول من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالاً ... فلا خلاف . ولا يخالف ذلك الخلق من تراب ونحوه[١١] .

لم تذكر الآيات أن الخلق كان من تراب ثم حديد . ثم هواء . ثم ذهب . ثم غاز ما . ثم ماء مهين أو دافق . لا . بل كان الخلق من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالاً وكلها متصلة اتصالاً وثيقاً بالتراب . **وكلها ـ أيضاً ـ حالات متتالية متطورة للتراب بالذات** . فأين التناقض الذي جعل « لوسيان » يؤكد أن تأليف القرآن لم يتم في زمن واحد ولا على يد مؤلف واحد ؟

أيها القاضي . يظهر لكل موضوعي أن الهجوم على القرآن هجوم من حاقدين

---

(١٠) ورد في تفسير ابن كثير جـ ٢ . ص ٥٥٠ . عن ابن عباس ومجاهد وقتادة . الصلصال « التراب اليابس » .

(١١) راجع البيضاوي . ص ٧٠٥ . وراجع الإتقان في علوم القرآن للسيوطي . جـ ٢ . ص ٢٩ . الطبعة الثالثة « البابي الحلبي » .

متعصبين . حتى أنهم عابوا ـ تعـالى الله عن ذلـك علواً كبيراً ـ قولـه تعـالى في سورة يوسف : « فأكله الـذئب » قـالوا ـ حسب محـاكمتهم ـ كان الأولى أن يُستعمل هنـا « الافتراس » لأنه فعل السباع . وكان الأفصح أن يقال : « فافترسه الذئب » .

وقد رد على مثل هؤلاء الإمام الخطابي من علمـاء القرن الرابع الهجري قـائلاً : فـأمـا قولـه تعـالى « فـأكلـه الـذئب » فـإن الافتراس معنـاه في فعل السبع : القتل وحسب . وأصل الفَرْس : دق العنق .

أما أكلـه الـذئب : أي أكلـه أكلاً وأتى على جميع أجزائـه وأعضـائـه . فلم يترك مفصلاً ولا عظماً . وذلك أنهم ـ يعني أخوة يوسف ـ خافوا مطالبة أبيهم إيـاهم بـأثرٍ باقٍ منه يشهد بصحة مـا ذكروه فـادعوا فيـه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطـالبـة . والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى . فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بـالأكل . على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع .

... فهلاّ ترك أصحاب اللكنـة ، ومن تعجز ألسنتهم نطق الأحرف العربيـة ... تفسير القرآن ، وترك الأمر لأهلـه ! فقـد وصل بهم الأمر إلى السخافات .

يقول العقاد « رحمه الله » : (قرأنا لبعضهم أخيراً كتاباً عن الشيطـان يلم فيـه بصفة إبليس في الإسلام ويستغرب فيه ـ من هذا الـدين ـ أن يقول عن الله إنـه أمر الملائكة بالسجود لآدم ... مع أنه الدين الذي اشتهر بغايـة التشـدد في إنكار الشرك وتكفير كل ساجد لغير الله ...

ومرد الخطأ فيما بدر إلى الكاتب من التنـاقض بين التوحيـد وبين السجود لآدم أنه فهم السجود بمعنى الصلاة دون غيرها من معاني الكلمة في اللغة العربيـة . وفـاتـه أن الكلمة عرفت بـاللغـة العربيـة قبل أن يعرف العرب صلاة الإسلام . ولم يفهموا منها أنها كلمة تنصرف إلى العبادة دون غيرها . لأنهم يقولون « سجـدت عينـه » أي

أغضت . وأسجد عينه أي غضَّ منها . وسجدت النخلة أي مالت . وسجد : أي غض رأسه بالتحية . وسجد لعظيم : أي وقره وخشع بين يديه . ولا تناقض على معنى من هذه المعاني بين السجود لآدم وتوحيد الله . إنما السجود هنا هو التعظيم المستفاد من القصة كلها . وهو تعظيم الإنسان على غيره من المخلوقات)[١٢]

ونضيف : **أن التعظيم ليس لآدم بذاته ، إنما لمن خلق آدم من تراب** ، وجاء الأمر من الله . فتعظيم آدم امتثالاً لأمر الله وطاعة له .

والسجود لم يأت من بشر لبشر حتى نرى التوحيد في خطر . بل السجود من الملائكة لبشر ، ولا ندري نحن وضعية الملائكة وحالتهم أثناء السجود .

وليس السجود لآدم سجود عبادة ، بل سجود لعظمة الله ، لقدرته ولإبداعه الذي خلق وكوَّن آدم .

ومن سخافات جولد تسيهر أن التناقض في القرآن موجود في صفات الله فمرة : رحمن رحيم . ومرة القادر الجبار . ومرة غفور رحيم . ومرة شديد العقاب ... ونسي جولد تسيهر أن رحمته سبحانه لقوم هم المؤمنون ، وهو قادر جبار على من عصى وفسق . أنه سبحانه غفور لمن تاب وأناب ، وشديد العقاب لمن كابر على ذنبه ولم يرجع عنه .

﴿ وَالذينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٥٣] .

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ [آل عمران : ١١] .

---

(١٢)حقائق الإسلام وأباطيل خصومه . ص ٩٨ / ٩٩ . للعقاد رحمه الله .

ومن التناقضات المزعومة التي قالها المستشرقون . التناقض الوارد في الآيات التالية :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ لاَإلهَ إلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وكِيلاً ﴾[المزمل : ٩] .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾[الرحمن : ١٧] .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ والْمَغَارِبِ إنَّا لَقَادِرُونَ ﴾[المعارج : ٤٠] .

فالقرآن يناقض بعضه : فمرة ربُّ المشرق وربُّ المغرب . ومرة « مشرقين ومغربين »[١٣]. ومرة أخرى « مشارق ومغارب » .

ما سبق تناقض متخيل . نفنده بما يلي :

- رب المشرق ورب المغرب : كجهة شروق . وكجهة غروب بشكل عام على الكرة الأرضية . فجهة تشرق منها الشمس وجهة مقابلة تغيب منها .

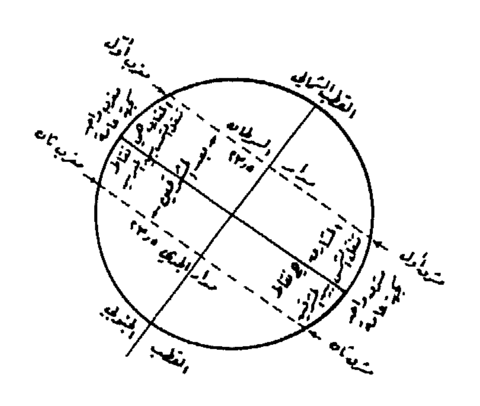
- أما « ربُّ المشرقين وربُّ المغربين » . فالشمس كما هو ملاحظ تشرق من نقطتين . نقطة نلاحظها في الصيف ونقطة نلاحظها بعيدة عن تلك في الشتاء . وكذلك الغروب .

---

(١٣)هناك قاعدة في العربية تدعى قاعدة « التغليب » . وهي أنهم يُغلِّبون على الشيء ما لغيره . لتناسب بينهما أو اختلاط . فلهذا قالوا : « الأبوين » في الأب والأم ومنه قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ ﴾[يوسف : ١٠٠] ، وقالوا : « المشرقين والمغربين » . أي يقصدون الشرق والغرب . والغرب والشرق . ومثله الخافقان في المشرق والمغرب . وقالوا : « القمرين » في الشمس والقمر . وقالوا : « العمرين » في أبي بكر وعمر . وقالوا : « المروتين » في الصفا والمروة . راجع مغني اللبيب ، جـ ٢ ص ٧٦٤ / ٧٦٥ .

ومن الناحية الجغرافية والفلكية :

إن الشمس تتعامد على مدار السرطان[١٤] في نصف الكرة الشمالي . وشتاء بالنسبة لنا سكان النصف الشمالي . تكون الشمس متعامدة على مدار الجدي[١٥] في نصف الكرة الجنوبي . فعند تعامدها على مدار السرطان تشرق متعامدة عليه ومائلة على مدار الجدي . ثم ترجع فتتعامد على مدار الجدي وتشرق من مكان آخر مائلاً بالنسبة لسكان النصف الشمالي . إذن : شتاء وصيفاً : تشرق فيهما الشمس من موضعين متباعدين ومائلين من حيث الأشعة أو متعامدين . يقابلهما مغربان متباعدان .



ودليل آخر يوضح فيه القرآن مراده بأن هنالك بعداً عظيماً بين المشرقين : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ [الزخرف : ٣٨] .

فالمشرقان : هما شروق الشمس على المدارين يقابلهما مغربان .

ـ أما المشارق والمغارب . فالشمس أثناء تنقلها بين المدارين تمر بنقاط متسلسلة عديدة ولا تمر قفزاً . فكل نقطة أثناء التنقل بين المدارين في الذهاب والإياب تعتبر مشرقاً يقابلها مغرب وبذلك تكون مشارق يقابلها مغارب .

(١٤) يقع مدار السرطان في نصف الكرة الشمالي على بعد ٥ , ٢٣ درجة عرض « شمالاً » تتعامد عليه الشمس صيفاً فيكون في الجنوب شتاء .

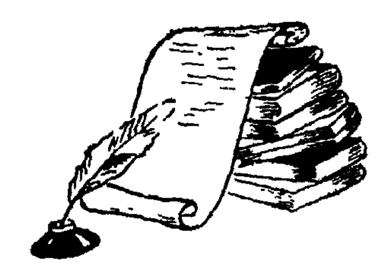
(١٥) يقع مدار الجدي في نصف الكرة الجنوبي على بعد ٥ , ٢٣ درجة عرض « جنوباً » تتعامد عليه الشمس صيفاً فيكون في الشمال شتاء .

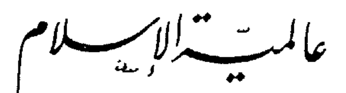
وهناك مشارق ومغارب في الكواكب : ﴿ رَبُّ السَّموات وَالأَرْض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المَشَارِقِ ﴾ [الصافات : ٥] فبعد ذكر السموات والأرض وما بينهما من عوالم وكواكب . ذكر عزَّ وجل المشارق فلكل عالم أو كوكب مشرق فسبحانه وتعالى رب المشارق .

فأين التناقض ؟!

إنه العجز عن الفهم . والتصدي بحقد لأمور لم يفهموها وبدؤوا يقارنون بينها **فالخطأ خطأ المقارن ، خطأ المقارنة والتفسير . وليس تناقضاً في الآيات .**

☆ ☆ ☆





☆ ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ ،
وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين ﴾ .
[ص : ٨٧ ـ ٨٨]

القاضي : « الإسلام » .

الحاجب « يصرخ » : « الإسلام » .

يدخل الإسلام وعلى شفتيه ابتسامة البريء وفي قسماته سخرية من أعدائه وفي يقينه براءته وبراءة نبيِّه .

النائب العام : « إن فكرة عموم الرسالة جاءت فيا بعد . وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها . لم يفكر فيها محمد نفسه . وعلى فرض أنه فكر فيها . فقد كان تفكيره تفكيراً غامضاً . فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب . كما أن هذا الدين الجديد لم يهيَّأ إلا لها . وأن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم . وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج »[1] . « لم يتخط محمد

---

(١) Muir: The Caliphate, pp. 34. 44. وترجمة النص عن كتاب « تاريخ الإسلام » ص ١٦٧ . جـ ١ . ط ٦ .

ـ وهذا الرأي للمستشرق الهولندي « فنسنك » ، ورد في كتاب المرحوم د . حموده غرابة في كتاب « الأشعري » . راجع الدعوة الإسلامية دعوة عالمية لمحمد الراوي ، ط . دار العربية .

ـ وأورد « جاك . س . ريسلر » في كتابه : « الحضارة العربية » ترجمة غنيم عبدون . نشر الدار المصرية في ص : ٢٧ . « رب العرب » وأوضح أن الإسلام للعرب فقط .

بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أمم العالم في ذلـك الوقت إلى هـذا الـدين »[٢].
« وليس من الميسور أن نقرِّر ، على وجه الدقة ، ما إذا كان النبي نفسـه قـد استشعر أنه مدعو لمثل هذه الرسالة العالمية »[٣].

ابتسم الإسلام ، ووقف وقفة المتأكد من النصر ، وقف بقوة الإيمـان بـالمبـدأ ، ومبدأ الإيمان بالقوة ، وبدأ يدافع عن نفسه قائلاً :

أيها السيد القاضي :

هل يعقل أن محمداً مـا كان يعرف غير الجزيرة العربيـة ؟ وأنهـا كانت عالمه الذي لم يفكر في سواه ؟ وما هو البرهان على أن هذا الـدين لم يهيـأ إلا لجزيرة العرب ؟

قريش بتجارتها اتصلت بدول ذلك العهد الذي عاش فيـه محمـد فـأتـاحـت لهـا هذه التجارة خبرة ودراية بشؤون الأُمم وأحوالها ، ومحمد عـاش في ظهراني قريش ، ومحمد نفسه سـافر إلى بلاد الشـام بتجـارة ، سـافر وهو صبي مع عمـه أبي طـالـب في تجارته ، ثم تاجر لخديجـة مرة ، فهل يعقل أن محمـداً لا يعرف غير بلاد العرب وهو الرجل العصامي « الأمين » الذي ما اكتسب مكانته المتـازة في مكـة قبيل البعثـة إلا بذكائه وعقله وكفاية مواهبه ؟. وبعصمة الله تعالى له وعنايته به .

وإذا تكلمنا بمنطق المستشرقين ـ يا سيادة القاضي ـ فهل يستبعد أن يقال عن محمد الذي خرج من مكة مهاجراً ناجياً بنفسه ونفس صاحبه الصـدّيق أن يتخطفهما الناس ، لائذاً بأهل المدينة الذين آووه ونصروه ، ثم صبر وصابر ، ثم عـاد إلى مكـة

---

(٢) Caetani: Annali del Islam, vol, V. pp. 323-324.

وترجمة النص « بتصرف » عن كتاب « تاريخ الإسلام » ص ١٦٨ . جـ ١ . ط ٦ .

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان : ص ٧٠ ـ ٧١ . ط ٤ .

بعد ثماني سنين وهو السيد الآمر فيها وفي الجزيرة كلها ، تحوم حول شخصه مائة ألف من القلوب أو تزيد ، ومن ورائهم كثيرون من أرجاء الجزيرة العربية يدينون له بالطاعة يأتيه رؤساؤها وأكابرها ؟ هل يبعد على هذا الرجل أن يرنو بناظريه إلى ما وراء الجزيرة ليبسط عليها سلطانه إن كان من محبي السلطة والحكم ، أو ليفيض عليها من نور وفضل الله الذي غمر الجزيرة وملأها أمناً وإيماناً ، وعدلاً ومحبة ؟ .

لو قيل لمستشرق مكابر : إن الاسكندر المكدوني كان يعمل على تكوين إمبراطورية تشمل العالم القديم كله ، وجعله يلتف حول هذا الشاب الإغريقي بعد أن يجعل ثقافته ولغته إغريقية ، لصدقنا .

ولو قيل أن نابليون كان يعمل على تكوين إمبراطورية تشمل العالمين القديم والحديث ليجلس على عرشها لصدقنا .

ولو قيل أن هتلر سعى لمثل هذا ... لصدقنا ، ومن قبله جنكيز خان لصدقنا ...

أما إذا قيل أن محمد بن عبد الله فكر في أن يدعو خلق الله المتاخمين لجزيرة العرب والمتصلين بقريش ـ اتصالاً تعيش عليه قريش وينبني على أساسه كل شيء في البيئة القرشية ـ فذلك في عرف الحاقدين أمر يعز على البحث النزيه والعقل الحر أن يقبله إلا أن يكون تفكير ذلك النبي في هذا الأمر تفكيراً على نحو غامض .

وأما القول بأن هذا الدين « لم يهيأ إلا لبلاد العرب » فمرفوض عقلاً لعدم ثبوت الادعاء والشبهة أصلاً . إذ لا برهان ولا دليل على أن الإسلام إنما خصت به جزيرة العرب . فمحمد المقتنع بما أنزل الله عليه ، بنى المسلم وربى المؤمن على أن دينه صالح لكل زمان ومكان . وقد ثبت من القرآن أنه كان يعتقد أن الإسلام قد هيّء لكل حالة وأنه تكفل بتبيان كل شيء وإسعاد الإنسان

أينما كان : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ، ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

أما الآية : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٦] ، والرسول عربي ودعوته إلى الجزيرة العربية فحسب وكتابه « قرآناً عربياً » وحكمه « حكماً عربياً » . وميدان نشاطه ما ورد في كتابه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] .

أولاً : « أي خبر في أي جزء من الأرض يمكن أن تتناقله الدنيا في لحظة واحدة وأن يعرفه العالم كله في لمح البصر ؟ »[٤] وأي غرابة في أن يأتي كتاب هذا الدين بلغة واحدة . وإذا لم ينزل القرآن بلغة واحدة ، لغة من نزل بينهم ليحملوه إلى الناس ويبلغوه للعالمين ، فماذا يمكن أن يكون ؟!.

إن الابتداء بالأهل والعشيرة منطلق طبيعي ، بل بداية الانطلاق إلى العالم دعوة الأهل والأقربين : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

إن من يقرأ القرآن الكريم وهو الكتاب العربي المبين لا يمكن أن يجد فيه ما يخصصه لفريق دون فريق ، أو قوم دون قوم .

وكونه بلسان عربي ليس إلا وصفاً له باللغة التي أُنزل بها[٥] .

ويؤيد « عموم الرسالة وعالمية الإسلام » للجنس البشري قول محمد متنبئاً أن

---

(٤) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ص ٦١ ، ولا سيا أن الحادثة كانت قبل ١٤٠٠ عام ، فيجب أن ننظر بعناية إلى إمكانات العصر العلمية آنذاك ، فلا هاتف ولا لاسلكي ولا وسيلة اتصال إلا الخيل .

(٥) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ص ٦٤ .

بلالاً (**أول ثمار الحبشة**) وأن صهيباً (**أول ثمار الروم**) وأن سلمان (**أول ثمار الفرس**) **وهذا تصريح** بجلاء دون التواء أو ريب **أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي** وذلك قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء عن حياة الفتوح والحروب بزمن طويل[٦] .

وأدلة أخرى أيها السيد الفاضل :

١ ـ تنبؤ النبي عند هجرته إلى المدينة وهو في أشد ساعات الحرج والخطر بأن سراقة بن مالك سيلبس سواري كسرى ونطاقه عندما قال له : **كيف بك يا سراقة إذا سورت بسواري كسرى** قال سراقة : كسرى بن هرمز ؟ قال النبي : نعم[٧] .

٢ ـ أم حرام[٨] تنبأ لها النبي أنها ستركب البحر عندما نام في بيتها ثم استيقظ يضحك . فقالت : « ما أضحكك يا رسول الله ؟ » .

فقال عليه الصلاة والسلام : « **ناس من أمتي عرضوا علي يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة** » .

قالت : « يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم » .

قال ﷺ : « أنت معهم » .

ثم نام فاستيقظ وهو يضحك فقال مثل ذلك ، فقالت : « ادع الله أن يجعلني منهم » .

---

(٦) « تاريخ الإسلام» : جـ ١ ص ١٦٩ ، ط ٦ .

(٧) « الكامل في التاريخ » : جـ ٢ ص ٧٤ ، عيون الأثر : جـ ١ ص ١٨٢ ، ابن هشام : جـ ٢ ص ٩٦ ، البداية والنهاية : جـ ٣ ص ١٨٥ ، السيرة النبوية : جـ ١ ص ٣٧٢ .

(٨) هي أم حرام بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت . « البداية والنهاية » : جـ ٧ ص ١٥٢ .

قـال ﷺ : « أنت من الأولين » . فكانت (أم حرام) في غزو قبرص ومـاتت بها ، وكانت الثانية عبارة عن غزو القسطنطينية[٩] .

فركوب البحر الـذي تنبـأ بـه رسول الله لنشر لواء الإسلام أين سيكون ؟ هل سيركب الصحابـة البحر من المـدينـة إلى نجـد ، هل سيكونون في سفن كأنهم الملوك على الأسرة قاصدين الربع الخالي بعد مغادرة مكة ؟ لندع الجواب للعقل السليم .

٣ ـ وصية النبي ﷺ لصحابته بـأن يستوصوا بـأهل مصر خيراً عنـدمـا قـال : « **إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً ، فـإن لهم فيكم صهراً وذمة** »[١٠] فهل مصر والأقباط سكانها في الجزيرة العربية ؟

٤ ـ أثناء حفر الخنـدق قبيل معركـة « الأحزاب » أخبر النبي صحـابتـه بفتح الحيرة وقصور كسرى وفتح القصور الحمر في الشـام[١١] ، فهل قصـور كسرى وقصـور الشام الرومية في الجزيرة العربية ؟ ومثل هذه التنبؤات عن انتشار الإسلام خـارج جزيرة العرب كثيرة وكلها تدحض افتراءات المستشرقين المكابرين .

٥ ـ ومن أحاديثه ﷺ : « إني بعثت رحمـة وكافـة فـأدوا عني يرحمكم الله »[١٢] وقال لرسول باذان عامل اليمن من قبل كسرى : « إن ديني وسلطاني سيبلغ مـا بلغ ملك كسرى »[١٣] .

فهل يطلبون تصريحاً أبلغ من هذا ؟ .

---

(٩) « البداية والنهاية » : جـ ٧ ص ١٥٣ .

(١٠) الطبري : جـ ٤ ص ٢٢٨ ، « تاريخ الإسلام » : جـ ١ ص ١٦٦ .

(١١) « الكامـل » : جـ ٢ ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ، تراجـع غـزوة الخنـدق ، وحَفْر النبي ﷺ مـع صحـابتـه ، وذكره هذه المعجزات وهو في ضيق شديد يهدد المدينة المنورة عاصمة الإسلام .

(١٢) الطبري : جـ ٢ ص ٦٤٥ .

(١٣) الكامل : جـ ٢ ص ١٤٦ .

أما الآيات الدالة على « عموم الرسالة وعالمية الإسلام » فكثيرة ننتقي منها :

١ ـ ﴿ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين ﴾ [ص : ٨٧ ـ ٨٨] .

٢ ـ ﴿ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً ، وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلى الكافِرِينَ ﴾ [يس : ٦٩ ـ ٧٠] .

٣ ـ ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : ١] .

٤ ـ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨] .

٥ ـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُم جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

٦ ـ جاء في السورة الثانية من حيث الترتيب التاريخي لسور القرآن : ﴿ نَذِيراً لِلبَشَرِ ﴾ [المدثر : ٣٦] .

٧ ـ ﴿ قَاتِلُوا الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ ، مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ، وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِم يُضَاهِئُونَ[١٤] قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ[١٥] قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى

---

(١٤) يضاهئون : يشاكلون ، ويقلدون . (يشابهون ويجارون) تفسير ابن كثير : جـ ٢ ص ٣٤٨ .

(١٥) ثبت في البحث التاريخي العلمي أن التثليث عرف قبل المسيحية ، فهو في الفلسفة الإغريقية ، راجع كتاب « محاضرات في النصرانية » (محمد أبو زهرة) ص ٣٦ ، ط ٣ .

وكتاب « تاريخ اليونان القديم » (عبد العزيز عثمان) ص ٢٢١ ، وص ٢٤٧ حيث ورد عند الحديث عن الديانة الأكادية « وكان لديهم ثالوث إلهي كما كان الأمر عند السومريين » ، كل هذا مصداق للآية الشريفة : ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ .

يُؤْفَكُونَ ، اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالمسِيحَ ابنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إلهاً وَاحداً لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَو كَرِهَ الكافِرُونَ ، هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩ ـ ٣٣] .

هذه الآيات الدالة على عالمية الإسلام يقابلها أدلة على أن ألفاظ القرآن الكريم واضحة محددة ، فذكر الأنبياء وكل مرسل لقومه فقط مثل :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَقَالَ يا قَوْمِ اعبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

﴿ وَلُوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِين ﴾ [الأعراف : ٨٠] .

﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخاهُم شُعَيْباً قَالَ يا قَوْمِ اعبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

﴿ وَإلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

﴿ وَإلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ [هود : ٥٠] .

فهذه الآيات واضحة إن نوحاً ولوطاً وشعيباً وصالحاً وهوداً فمبعوث كل منهم (إلى قومه) ، أما الإسلام فبوضوح أنه (للعالمين) ، فكيف فهم المستشرقون من علوم اللغة العربية أن كلمة « عالمين » للعرب فقط ؟

لقد عمت رسالة محمد الخافقين ، وشملت الأبيض والأصفر ، ولم يحس أحد من هؤلاء أن الدعوة لا تناسبه . ولا أنها مستوردة إليه من صنف آخر ، بل أحس كل واحد أن الدعوة له ، وأنها تنظّم كيانه وحياته .

(الجلسة الخامسة)

رسائل مزوّرة

● « إنّ اللهَ سَيَفْتَحُ عَلَيْكُم بَعْدِي مِصْرَ فاسْتَوْصُوا بِقِبْطِها خيراً فإنّ لَهُم فيكم صِهْراً وَذِمّةً » [رسولُ الله ﷺ]

يُنادى على الإسلام ، فيدخل القاعة ويوجه إليه النائب العام (مرجليوث) الاتهام التالي :

لم يوجه محمد أي كتاب للملوك والأُمراء خارج الجزيرة العربية ، ودليلنا على ذلك أننا لم نعثر على أثر لهذه الكتب في تاريخ هؤلاء الملوك والأُمراء[1] ، ويمكن بذلك أن نثبت رأي وليم مور . وغيتاني أن الإسلام لم يفكر بخارج الجزيرة العربية مطلقاً .

الإسلام يظهر الحقيقة :

يمكن أن أجزئ الشبهة إلى جزأين : إنكار الرسائل وعدم وجودها ، وإثارة شبهة وليم مور وغيتاني التي نقضت في جلسة سابقة فلن أتعرض لهذا الجزء في ردي حيث بينت رأيي سابقاً . أما الرد على الجزء الأول من الشبهة :

لا ينهض دليل على صحة هذا الزعم ليؤكده ، خصوصاً وأن بعض الكتب محفوظ إلى يومنا هذا « في استامبول » ، وقد تكون الكتب الأُخرى فقدت لسبب من الأسباب ، وخاصة أن كتاب كسرى مثلاً قد تمزق ، وكيف لم يعثر المستشرق مرجليوث على أثر لهذه الكتب في تاريخ هؤلاء الملوك والأُمراء وقد قامت حروب من أجلها ؟

---

(١) تاريخ الإسلام جـ ١ ص ١٥٧ ، ط ٦ .

وتـاريخنـا العربي الإسلامي لايـؤخـذ من فم المستشرقين ولامن تحقيقـاتهم ، إذ أكثرهم على الأخص (مرجليوث وأشباهـه) درسوا الإسلام من غير موضوعيـة ومن غير تجرد بل ابتغى مع أقرانه التخريب والدس والتشكيك .

علمـاؤنـا العرب مصـدر تراثنـا وهم (على كثرتهم) لم يتطرق إليهم الشـك في إرسال هذه الكتب ولم يخطر ببـالهم مطلقـاً شـك أو تردد ، فمن نصـدق ؟ أنصـدق علماءنا العرب أم مستشرقاً أجنبياً ؟

لنر معـاً ـ أيهـا القـاضي الحكيم ـ أهم مراجع التـاريخ العربي الإسـلامي ونـدع الحكم لك :

١ ـ ابن هشام : في الجزء الرابع ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ، ذكر الرسائل .

٢ ـ اليعقوبي : في الجزء الثاني ص ٨٣ ، ذكر الرسائل .

٣ ـ الكامل في التـاريـخ لابن الأثير الجـزري في الجـزء الثـاني ص ١٤٣ ، ذكر الرسائل[٢] .

٤ ـ في البداية والنهاية : الجزء الرابع ص ٣٦٢ ومابعدها .

٥ ـ في الطبري الجزء الثـاني ص ٦٤٤ خروج رسل رسـول الله ﷺ إلى الملـوك (طبع دار المعـارف) ومـاسبق من كتب هي أسس التـاريـخ العربي ، ولنر مثـالاً ماذكر الطبري في الجزء الثاني ص ٦٤٩ :

---

(٢) الكتب كما وردت في « الكامـل » جـ ٢ ص ١٤٣ هي : كتـاب أرسلـه النبي مـع حـاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس في مصر ، وأرسل شجاع بن وهب الأسـدي إلى الحـارث بن أبي شمر الغسـاني في بصرى الشام ، وأرسل دحية الكلبي إلى قيصر الروم ، وأرسـل سليط بن عمرو العـامري إلى هوذه بن علي الحنفي ملك اليمامة ، وبعث عبـد الله بن حـذافـة إلى كسرى الفرس ، وأرسل عمرو بن أميـة الضخري إلى النجاشي ، وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين ، هذا وجمع الكتب كلها : شمس الدين بن طولون الدمشقي المتوفى (سنة ٩٥٣) في كتابـه إعلام السـائلين عن كتب سيد المرسلين .

(حدثنا ابن حميد قال : حدثني ابن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب المصري أنّه وجد كتاباً فيه تسمية من بعث رسول الله ﷺ إلى ملوك الخائبين[٣] وماقال لأصحابه حين بعثهم . فبعثت به « أي الكتاب » إلى ابن شهاب الزهري مع ثقة من أهل البلدة فعرفه « أي الكتاب ») .

ثم ذكر الطبري نص رسالة النبي ﷺ إلى هرقل وهي :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل قيصر الروم ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن تتولَّ فإن إثم الأكارين « الأريسيين » عليك)[٤] .

ثم نص رسالة النبي ﷺ للمقوقس :

(بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين : ﴿ قُلْ ياأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم أَلاّ نَعْبُدَ إلاّ اللهَ ولانُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

ونص رسالة النجاشي :

(بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم[٥] ملك الحبشة . سلام أنت فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهين ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإني

---

(٣) الكفار .

(٤) الكامل ، جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٥) الأصحم : كثير الخير والبركة (نبات أصحم : نبات كثير الخضرة) .

أدعوك إلى الله وحده لاشريك لـه والموالاة على طـاعتـه وأن تتبعني وتؤمن بـالـذي جـاءني فـإني رسول الله وقـد بعثت إليـك ابن عمي جعفراً ونفراً معـه من المسلمين ، فـإذا جـاءك فـأقرهم ودع التجبر . فـإني أدعـوك وجنـودك إلى الله ، فقـد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي . والسلام على من اتبع الهدى) .

وكتب إلى كسرى أبرويز ملك الفرس :

(من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهـدى وآمن بالله ورسولـه ، وأدعوك بـدعـايـة الله عز وجل ، فـإني رسول الله إلى النـاس كافـة ولأنذر من كان حيـاً ويحق القول على الكافرين ، وأسلم تسلم ، فـإن توليت فـإن إثم المجوس عليك)[٦] .

ـ أيها السيد القاضي ـ ودليل صحة هذه الكتب مايلي :

١ ـ **حديث هرقل مع أبي سفيان** واستفساره عن خروج نبيٍّ آخر الزمان ، فقد ورد في المراجع العربية (وهي مصدر تاريخنا) مايلي[٧] :

(قال أبو سفيان : خرجنا في نفر من قريش تجاراً إلى الشام ... والله إنا لَبِغَزّة إذ هجم علينا صـاحب شرطتـه (أي شرطـة هرقل) ، فقـال أنتم من رهـط الرجل الذي بالحجاز (يعني النبي ﷺ) ؟ قلنا : نعم !

قال انطلقوا بنا إلى الملك ، فانطلقنا معه ، فلما انتهينا إليه قال : أيكم أمسُّ به رحماً ؟ قلت : أنا ، فقال : ادنه . فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي ، قال : إني سأسأله ، فإذا كذب (أي أبو سفيان) فردوا عليه . قـال أبو سفيـان : فوالله لو

---

(٦) راجع هذه الكتب في صبح الأعشى للقلقشندي (جـ ٦ ص ٣٧٦ ـ ٣٨٠) .

(٧) صحيـح البخـاري (طبعـة بـولاق سنـة ١٣١٣ هـ) جـ ١ ص ٨ ، والطبري جـ ٣ ص ٨٥ ـ ٨٧ ، فتح الباري (شرح البخـاري) لابن حجر (القـاهرة سنـة ١٣١٩ هـ) جـ ١ ص ٢٤ ـ ٣٤ ، عمـدة القـارئ ، شرح البخـاري للعيني (القـاهرة سنـة ١٣٠٨ هـ) جـ ١ ص ٩١ ، والكامل في التـاريـخ (طبع : إدارة الطباعة المنيرية ، جـ ٢ ص ١٤٤) .

كذبت ماردوا عليّ . ولكن كنت امرءاً سيداً أتكرم عن الكـذب ، وعرفت أن أيسر مافي ذلك إن أنا كذبته ، أن يحفظوا ذلك علي ثم يحدثوا به عني ، فلم أكذبـه . فقـال « هرقل » : أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدّعي مايدّعي ، قال : فجعلت أزهد له شأنه وأصغّر له أمره ، وأقول له : أيها الملك ! مـا يهمـك من أمره ، إن شأنه دون مايبلغك ، فجعل لايلتفت إلى ذلك مني ثم قال : أنبئني عمـا أسـألـك عنه من شأنه ، قلت : سل عما بدا لك .

قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : محض . أوسطنا نسباً .

قال : فأخبرني هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل مايقول هو ، فهو يتشبه به ؟

قلت : لا .

قال : فأخبرني عن أتباعه منكم من هم ؟

قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، وأما ذوو الأسنـان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد .

قـال : فـأخبرني عمن تبعـه ، أيحبـه ويلزمـه أم يقليـه[٨] ويفـارقـه ؟؟ (وفي رواية : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟) .

فقلت : ماتبعه رجل ففارقه .

قال : هل يغدر ؟

أبو سفيان يقول : « فلم أجد شيئاً مما سألني عنـه أغمزه[٩] فيـه غيرهـا ، قلت : لا ! ونحن منه في هدنة[١٠] ولانأمن غدره ... « وأسئلة أخرى » .

---

(٨) يقليه : يبغضه ويكرهه ، مختار الصحاح ص ٥٥٠ .

(٩) أغمزه : أطعنه .

(١٠) في هدنة : يريد صلح الحديبية الذي عقد سنة ٦ هـ .

قال أبو سفيان : فوالله ماالتفت إليها مني ، ثم كرر عليَّ الحديث فقال :

« سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه ، لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً ، وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبَّه به ، فزعمت أن لا ، وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه . فزعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان ، وسألتك عمن يتبعه أيحبه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان لاتدخل قلباً فتخرج منه (وفي رواية أخرى وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب) ، وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا ، فلئن كنت صدقتني عنه ، ليغلبني على ماتحت قدمي هاتين ، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه ، انطلق لشأنك . قال أبو سفيان :

ـ فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي بالآخرى وأقول : أي عباد الله ، لقد أمرَ أمرُ ابن أبي كبشة[11]) .

هذا ، وذكر الطبري عن هرقل « أنه قد أجاز دحية الكلبي ـ سفير رسول الله ﷺ إليه ـ بمال وكساه كسى »[12] وأن أناساً من « جذام » بأرض « حسمى »[13] قطعوا عليه الطريق ولم يتركوا معه شيئاً ، فجاء إلى الرسول قبل أن يدخل بيته ، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلى أرض « حسمى » .

---

(11) يعني الرسول ﷺ ، وكان يكنيه كفار قريش « عليه الصلاة والسلام » بأبيه من الرضاع استخفافاً به (ولكن سيطأطئ أبو سفيان وقريش كلها رؤوسهم بعد حين) . وأبو كبشة هذا هو زوج حليمة السعدية التي أرضعته ﷺ .

(12) الطبري : جـ ٢ ص ٨٧ .

(13) أرض ببادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان ، وأهل تبوك يرون جبل « حسمى » في غربيهم .

ويحدثنا الطبري أيضاً[١٤] : أن هرقل لما وصل إليه كتاب الرسول ﷺ وهو بالشام يريد العودة إلى القسطنطينية ، جمع الروم فقال لهم : « يامعشر الروم ! إني عارض عليكم أموراً فانظروا فيما قد أردتها . قالوا : ماهي ، قال : تعلمون والله أن هذا الرجل لنبي مرسل . إنا نجده في كتابنا نعرفه بصفته التي وُصف لنا ، فهلم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا .

قالوا : نحن نكون تحت يدي العرب ونحن أعظم الناس ملكاً وأكثرهم رجالاً وأفضلهم بلداً ؟

قال : فهلم فأعطيه الجزية في كل سنة ، أكسر عني شوكته وأستريح من حربه بمال أعطيه إياه .

قالوا : نحن نعطي العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا ، ونحن أكثر الناس عدداً وأعظمهم ملكاً وأمنعهم بلداً ؟ لاوالله لانفعل هذا أبداً .

قال : فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية ويدعني وأرض الشام .

فقالوا : نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفت أنها سرة الشام ؟ والله لانفعل هذا أبداً .

فلما أبوا عليه قال :

أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم ، ثم جلس على بغل فانطلق ، حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال : « السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع »[١٥] ثم غادر سورية إلى عاصمة ملكه القسطنطينية .

٢ ـ يعترف (مرجليوث) بقصة إسلام باذان عامل كسرى في اليمن ، يعترف بإسلامه دون ذكر الدافع والعامل الرئيس الذي سبب قصة « إسلام باذان » .

---

(١٤) الطبري : جـ ٢ ص ٦٥١ .

(١٥) قال هرقل باليونانية لما رحل من أنطاكية إلى القسطنطينية : « سوزة سورية » ومعناها كوني بسلام ياسورية .

والقصة[16] هي :

أرسل كسرى إلى عامله في اليمن واسمه باذان أن : « ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جَلِدَيْن[17] فليأتياني به » فبعث باذان رسولين يحملان كتاباً إلى الرسول ﷺ . يأمره فيه أن ينصرف معهما إليه ، فخرجا حتى قدما الطائف ، فوجدا رجالاً من قريش ، فسألاهم عن الرسول فقالوا : هو بالمدينة . واستبشروا بها وفرحوا قال بعضهم : أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك كفيتم الرجل .

فخرج الرجلان حتى قدما على رسول الله ﷺ ، فقالا : إن كسرى قد بعثنا إليك لتنطلق معنا ، فصرفهما الرسول ﷺ على أن يعودا إليه في الغد ، فأتى رسول الله الخبر من السماء « أن الله قد سلّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله » فلما قدم الرسولان أخبرهما الرسول ﷺ هذا الخبر[18] ، فقالا له : إنا قد نقمنا عليك ماهو أيسر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ؟ قال : نعم ، أخبراه ذلك عني ، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ مابلغ كسرى ...

فعاد الرسولان إلى باذان فقصا عليه ما تنبأ به النبي ﷺ فقال : والله ما هذا بكلام ملك . وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول ، ولننظرن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقاً فإنه لنبي مرسل[19] ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا . فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه : « أما بعد ، فإني قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً

---

(١٦) القصة موجودة في الطبري : جـ ٢ ص ٦٥٥ ، وفي الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٤٥ .

(١٧) جلدين : قويين ، ذو عزيمة . واسم الرجل الأول « بابويه » والثاني كان كاتباً حاسباً اسمه « خرخسره » .

(١٨) قال رسول الله لهما : « قولا له أن ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر » وأمرهما أن يقولا لباذان : « أسلم فإن أسلم أقره على ماتحت يده وأملكه على قومه » الكامل : جـ ٢ ص ١٤٦ .

(١٩) ويجب القول هنا أن عقلية أهالي بلاد العرب وما جاورها من بلاد الفرس والروم ، كانت مهيأة =

لفارس لما استحل من قتل أشرافهم . فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك - يعني رسول الله ﷺ - فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه » .

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال : إن هذا الرجل لرسول ، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن .

وقد قبل مرجليوث القصة ، ولكنه يقول أن العيون أنبأت النبي بالقصة (ولنا تعليق على هذا القول فيما بعد)[٢٠]: فكيف يقبلها لصحتها التاريخية ولا يقبل سببها ؟ بل يرفضه ليرفض بالتالي « رسالة النبي لكسرى » ولا يضع سبباً لإرسال الرجلين الجَلِدَين ولرسالة شيرويه ولإسلام باذان ومن معه من فرس في اليمن ؟؟؟...

٣ - معركة مُؤْتَة[٢١] :

- اعترف المستشرقون مثل « كارل بروكلمان »[٢٢] أن معركة مؤتة سنة ٨ هـ كانت ثأراً من الحارث بن أبي شمر الغساني الذي قتل رسولَ رسولِ الله إليه وهو : شجاع بن وهب الأسدي[٢٣].

لقبول ظهور نبي آخر الزمان ولقبول هذه النبوءات . حتى أن هرقل - كمثال - أمر صاحب مدينة « ايلياء » أن يستطلع رأيه في ظهور نبي آخر الزمان .

(٢٠)وذلك في الجلسة السادسة « نبوءات محمد » .

(٢١)مُؤْتَة : بالضم ثم واو مهموزة وتاء مثناة من فوقها ، وهي قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، كانت تطبع بها السيوف . معجم البلدان : جـ ٥ ، ص ٢١٩ .

(٢٢)« تاريخ الشعوب الإسلامية » ، ص ٥٩ . اعترف بقتل رسول رسول الله ولم يذكر اسم قاتله ، ولكنه قال : « فجهز النبي سرية عدتها ثلاثة آلاف رجل ابتغاء الاقتصاص ممن قتله » ويهمنا هنا « وجود رسول » لرسول الله خارج الجزيرة العربية .

(٢٣)لمعرفة أخبار مؤتة مفصلة راجع : الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٥٨ ، والطبري : جـ ٣ ص ٣٦ ...

فكيف تكون (مؤتة) وسببها قتل الحارث لحامل رسالة رسول الله إلى ملك غسان ثم ينكر « مرجليوث وأشياعه » وجود الرسائل ؟؟.

٤ ـ وصية النبي ﷺ بأهل مصر :

اعترف بروكلمان أيضاً بوصية النبي بأهل مصر . قال رسول الله ﷺ : « **إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لهم فيكم صهراً وذِمَّة** »[٢٤].

ووجود « مارية القبطية » نفسها زوجة لرسول الله لدليل على الرسائل . فلولا رسالة النبي إلى المقوقس والتي حملها « حاطب بن أبي بلتعة » لما وصلت مارية إلى جزيرة العرب ! والمقوقس ما أرسل هداياه إلى النبي إلا بعد مناقشة طويلة مع حاطب حامل الرسالة ولا طائل من إيرادها هنا .

٥ ـ الآيات الدالة على عالمية الإسلام :

فالآيات التي توضح دون ريب أو شك عالمية الدعوة الإسلامية وعموم الرسالة . وقد مرت معنا هذه الآيات في صفحة (٥٤ / ٥٥) :

المدثر : ٣٦ ـ الفرقان : ١ الأعراف : ١٥٨ ص : ٨٧ ـ ٨٨ النحل : ٨٩ سبأ : ٢٨ التوبة : ٢٩ ـ ٣٣ يس : ٦٩ ـ ٧٠ .

مع الآيات الأخرى التي تحض على الدعوة إلى الله بإقناع ومباحثة . ونشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ومنها :

- ﴿ ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ

---

(٢٤)الطبري : جـ ٤ ص ٢٢٨ . وأورد ابن عبد الحكم جـ ١ ص ١ و ٢ رواية مشابهة ، تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٦٦ .

أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[٢٥] [النحل : ١٢٥] .

- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٣ - ٣٤] .

- ﴿ هَا أَنْتُم هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٦] .

- ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

فهذه الآيات ، مع الآيات الأولى تؤيد تأييداً عظيماً إرسال النبي ﷺ الرسائل لتبليغ الدعوة التي أمر بها الله عز وجل ، فآيات توضح عموم الرسالة ، ثم آيات تحض على التبليغ بالحكمة والموعظة الحسنة للناس كافة فماذا تكون النتيجة : إنها تبليغ الملوك والأمراء المعاصرين لعهد النبوة .

---

(٢٥) هذه الآية مع الآيات الثلاث التالية بعدها ، تحض أهل الكتاب وتدعوهم للمناقشة ، فجملة « يا أهل الكتاب ... » وردت في القرآن الكريم بالمواضع التالية :

- آل عمران : ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٩٨ ، ٩٩ .
- النساء : ١٧٠ .
- المائدة : ١٦ ، ٢١ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧١ .

وهرقل والمقوقس والنجاشي من أهل الكتاب ، ومن باب أولى أن يدعو النبي ﷺ كسرى إذ لا كتاب سماوي لديه فهو ليس على شيء مطلقاً من عقيدة إلهية .

وآيات أخرى تقول لرسول الله ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ ﴾ ٣ / ٢٠ . ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ ﴾ ٥ / ٩٩ ، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ ﴾ ١٣ / ٤٠ . ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البَلاَغُ ﴾ ٤٢ / ٤٨ ...

فالدعوة عالمية وعلى الرسول البلاغ ونؤكّد أن هرقل وكسرى ... من سكان هذا العالم الأرضي ؟!

٦ ـ حديث « ابن حُمَيْد »[٢٦] : الذي ورد معنا وهو :

قال الطبري[٢٧] . « وحدثنا ابن حميد » قال : حدثنا سلمة ، قال : حدثني ابن إسحاق ، عن يزيد بن أبي حبيب المصري ، أنه وجد كتاباً فيه تسميةُ من بعث رسول الله إلى ملوك الخائبين « الكفار » . وما قال لأصحابه حين بعثهم ، فبعث به إلى ابن شهاب الزُّهري ، مع ثقة من أهل بلده فعرفه ... » .

٧ ـ إذا قيل أن نابليون وزع منشوراً عند وصوله إلى مصر عام (١٧٩٨ م) على السكان ، وكان أثره كذا وكذا ، وفيه ومضمونه كذا وكذا ، أثره وما فيه جليٌّ في روايات عدة وحوادث صحيحة ، ولسبب نجهله فقدت النسخة الأصلية للمنشور ، فهل يكفي عدم العثور عليه لأن ننكر وجوده ؟

هذا ... وهل اطلع (مرجليوث) على كل كتب ومخطوطات الفرس والروم ولم يجد لرسالة رسول الله أثراً ؟ إذن بماذا يفسّر رسالة شيرويه إلى باذان ؟

ونضيف أن من مصلحة الكهان وبعض المؤرخين المحترفين في الدّس والتخريب طمس مثل هذه الرسائل لطمس عالمية الإسلام وعموم الرسالة ، وليست أخبار المؤرخ « ابن العبري » كمثل ، ببعيدة عن المؤرخين المحققين الموضوعيين ، فقد عرف بتزويره للوثائق وطمسه روح الفتوحات الإسلامية المثالية ، ويمكن إيراد مثال واحد ـ لنرى معاً الروح التي عمل بها ـ هو وأمثاله في تزويره تاريخنا الإسلامي :

---

(٢٦)محمد بن حُميد (٢٤٨ هـ ـ ٨٦٢ م) : أبو عبد الله محمد بن حُميد بن حيان التيمي الرازي : حافظ للحديث من أهل الريّ ، أخذ عنه كثيرون من الأئمة كابن حنبل وابن ماجه والترمذي . تهذيب التهذيب : ٩ : ١٢٧ ، وتاريخ بغداد : ٢ : ٢٥٩ ، وميزان الاعتدال : ٣ : ٤٩ ، وشذرات الذهب : ٢ : ١١٨ ، وتذكرة الحفاظ : ٢ : ٦٧ ، والتبيان : مخطوط . راجع الأعلام للزركلي : جـ ٦ ص ٣٤٣ .

(٢٧)الطبري : جـ ٢ ص ٦٤٥ .

كتاب الرشيد ، الذي ردَّ على كتاب نقفور[٢٨]، أوردته المصادر العربية كما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم من هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام »[٢٩].

فأورد ابن العبري[٣٠] الرسالة كما هي بتغيير وتزوير كلمة واحدة هي كلمة « كلب » الروم ، أوردها « ملك » الروم . فهذا التزوير ينطوي على خبث في النفس ، وطمس لشيء لا يريد أن يقرَّ به . وما أكثر المستشرقين الذين هم بنفسية « ابن العبري » .

٨ ـ الدليل الأخير ـ والقاطع ـ **وجود رسالة النبي ﷺ للمقوقس ، المحفوظة في متحف « توب كابي** Top Kapi » في اسطنبول ، وقد نشرت مجلة العربي في العدد ١١٠ ، ص : ٤٩ صورة الرسالة ، كنا نود نشرها هنا ولكنها لن تكون بوضوح مجلة العربي ، فهي هناك بالألوان وجليَّةٌ واضحة ، فيمكن الرجوع إلى العدد ١١٠ من مجلة العربي ص : ٤٩ .

ووجود هذه الرسالة : يثبت وجود الرسائل الأخرى .

---

(٢٨)نص رسالة نقفور للرشيد : (من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب ، أما بعد : فإن الملكة التي كانت قبلي ـ وهي ايريني ـ أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقياً بحمل أضعافها إليها ، لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك . وإلا فالسيف بيننا وبينك) . البداية والنهاية : جـ ١٠ ص ١٩٣ ، تاريخ ابن الوردي : جـ ١ ص ٢٨٣ ، الكامل في التاريخ : الجزء الخامس ، صفحة ١١٨ ، تاريخ الموصل : ص ٣٠٩ ، تاريخ الخلفاء : ص : ٢٨٨ .

(٢٩)الكامل في التاريخ : جـ ٥ ص ١١٨ .

(٣٠)وهو غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري ، ولد سنة ١٢٢٦ م في مدينة ملطية بأرمينية الصغرى . عاش في أنطاكية ثم صار كبير أساقفتها ... توفي عام ١٢٨٦ م .

« نص رسالة النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى »

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى .

سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله غيره وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية .

علامة الختم

محمد رسول الله

صورة رسالة النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى

من هو المنذر بن ساوى

هو المنذر بن ساوى بن الأخنس العبدي (٠٠ ـ ١١ هـ ، ٠٠ ـ ٦٣٣ م) من عبد القيس أو من بني عبد الله بن دارم . من تميم . أمير في الجاهلية والإسلام . كان صاحب « البحرين » وكان رسول الله ﷺ قد بعث إليه العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة حاملاً معه الرسالة « المنشورة » يدعوه إلى الإسلام ، فأسلم وحسن إسلامه واستمر في عمله . ولم يصح خبر وفوده على النبي ﷺ . ومات قبل ردة أهل البحرين .

نبوءات محمّد

☆ عيـون النبي أتت إليـه بـالأخبـار ، وجاءتـه بـالحوادث بسرعـة مـذهلـة ، فليست نبوءات محمد معجزات دالة مثبتة لنبوته !.

النائب العام : « إن عيون[1] الرسول كانت تأتيه بالأخبار بسرعة ، واستبعد عـدول رسولي بـاذان عن تـأديـة واجبهما إثر نبـوءة النبي بمـوت كسرى .. وإذا كان تاريخ اغتيال كسرى فـارس صحيحـاً[2] ، فـإن كل مـا يمكن أن نفرضـه هو أن هـذا الاضطراب الـذي انتشر على أثر مقتل كسرى كان السبب في نقل عيون الرسول نبـأ هذا الاغتيال إليه »[3].

القاضي : ما دفاعك أيها الإسلام .

الإسلام : إن الذي يهدف إليه مرجليوث وأضرابه من هـذه الشبهـة هو عـدم الاعتراف بنبوة محمد بن عبد الله . وبالتـالي إنكار الوحي والرسـالـة ، وإن لم يكن الذي جـاء بـه محمـد وحيـاً ورسـالـة ونبوة من الله ، فكيف يكون الوحي ، وكيف تكون الرسالة وماهي صفـات النبوة ؟ وأي صفـة من هـذه الصفـات لم نجـدهـا في رسول الله محمـد ؟ . إن مرجليوث وأشيـاعـه يعترفون بعشرات الرسل والأنبيـاء فلم لا يعترفون برسالة محمد وقد حاز كل صفات الأنبياء الذين سبقوه ؟

---

(١) العين : حاسة الرؤيا ، وهي أيضاً « الجاسوس » ، وهذا المعنى هو المراد هنا .

(٢) يوم الثلاثاء ١٠ جمادى الآخرة سنة ٧ هـ ، وذلك بعد فتح خيبر بثلاثة أشهر تقريباً .

(٣) Margoliouth: Mohammad and the Rise of Islam, p. 368.

فات مرجليوث في شبهته أشياء وأشياء .. **فاته أن يذكر اسماً واحداً فقط من العيون الموظفة عند محمد بن عبد الله لتأتيه بالأخبار** . وفاته أن الاضطراب الذي انتشر وكان سبباً في نقل عيون الرسول نبأ هذا الاغتيال إليه لم يكن في حيّ ضيق ، الاضطراب لم يكن في قرية ولم يكن في مدينة قريبة ، وعلى فرض حدوثه حسب الادعاء ، فإنه لم يكن في مثل هذا القرب الذي يسمح بوصول الأخبار بساعات . إنه كان على بعد ألف ميل أو يزيد .

فات مرجليوث ـ وبشكل رئيسٍ ـ أن الرسول ﷺ ، أعلن موت كسرى يوم اغتياله بالذات ، برغم ما بين الحجاز وفارس من البعد ، وخبر موت كسرى لم يصل إلى بلاد اليمن إلا بعد تنبؤ الرسول بمقتله وعودة رسولي باذان إليه ثم انتظاره وصول الأخبار الرسمية من بلاد فارس .

أما استبعاد مرجليوث عدول رسول باذان عن تنفيذ أمر كسرى لمجرد تنبؤ الرسول بمقتله فمرفوض لسببين :

الأول : لماذا رجع الرسولان إلى باذان دون إحضار النبي معهما ؟ إن مرجليوث رفض أن يكون التنبؤ سبباً لعودتها ثم لم يضع سبباً ما لتلك العودة .

إن نفي بعض الحوادث سهل هيّن ، ولكن من الصعب أو المستحيل أن نقنع الآخرين بما نقول إذا لم نقدم الدليل والبرهان ، ثم نسأل : بماذا يفسر مرجليوث دخول باذان في الإسلام ؟

الثاني : إن عقلية أهالي بلاد العرب وما جاورها من بلاد فارس والروم ، كانت مهيأة لقبول هذه التنبؤات لأنهم كانوا ينتظرون ظهور نبي آخر الزمان ، حتى أن هرقل كتب إلى صاحب مدينة إيلياء يستطلع رأيه في ظهور نبي آخر الزمان(٤) .

---

(٤) راجع تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٦٠ / ١٦٣ .

وعلى هذا فإن العقل السليم يرفض ادعاء « مرجليوث » الذي يلقيه بلا أي دعم أو دليل ، ويمكن أن نسأل مرجليوث ومن نسج على منواله :

١ ـ بماذا تفسر جلوس النبي ﷺ في محرابه الشريف بعد صلاة العصر ، وقد أدار وجهه الكريم الطاهر إلى المصلين ، وقد علته الحمرة ، وغلبته الرعشة والحزن وأخذ يصف ملحمة تدور رحاها في أرض مؤتة ، على بعد مئات الأميال من المدينة المنورة ، بين ثلاثة آلاف من جنده ومائتي ألف من جند الأعداء ، فقال : أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ... ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم صمت برهة وقال : ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله[٥] ...

فكيف كانت العيون توصل الأخبار إلى رسول الله ساعة حدوثها فوراً .

٢ ـ بماذا يفسر « مرجليوث » وصف النبي ـ الوصف الدقيق ـ للمسجد الأقصى عندما سأله أبو جهل وقريش معه عن دليل يثبت الإسراء والمعراج ؟ وقد أخبر النبي قريشاً عن عيرها قافلة قافلة ، فقال : بعيركم (بالتنعيم) ـ اسم مكان ـ يقدمها جمل أورق ، عليه غرارتان مخيطتان ، تطلع عليكم من طلوع الشمس ، فخرجوا إلى « الثنية » ـ مكان قرب مكة ـ بزعامة أبي جهل ، فجلسوا ينتظرون طلوع الشمس ليكذبوه ﷺ وقال قائل : هذه الشمس قد طلعت . فقال آخر : والله وهذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق كما قال ، فلم يفلحوا في تفسير هذه الظاهرة أو النبوءة فقالوا : **إن هذا إلاّ سحر مبين**[٦] .

وبم يفسر مرجليوث وأتباعه الحادثة التالية ؟ :

---

(٥) راجع الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٤٦ ويعني ﷺ استلم الراية : خالد بن الوليد رضي الله عنه .

(٦) راجع تفاصيل الحادثة في كتب السيرة كلها أو بالكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ٣٦ / ٣٧ .

٣ ـ بعد بدر جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية قرب الكعبة ، وكان عمير شيطاناً يؤذي النبي وأصحابه وكان ابنه في الأسرى ، قال صفوان : لا خير في العيش بعد من أصيب ببدر ، فقال عمير : صدقت ، ولولا دَيْن عليّ ، وعيال أخشى ضيعتهم ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فقال صفوان : دَيْنُك عليّ ، وعيالك مع عيالي أسوقهم . فسار إلى المدينة ـ بعد أن شحذ سيفه وسمَّه ـ كما في الطبري ـ فقدمها ، فأمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب بإدخاله عليه ، فأخذ عمر بحمالة سيفه ، وقال لرجال معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ واحذروا هذا الخبيث . فلما رآه النبي ﷺ قال لعمر : اتركه ، ثم قال : ادن يا عمير ، ما جاء بك ؟ قال : جئت لهذا الأسير ـ ابنه ـ قال النبي ﷺ : اصدقني ، قال عمير : ما جئت إلاّ لذلك ، قال ﷺ : بل قعدت أنت وصفوان ، وجرى بينكما كذا وكذا ، فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، هذا الأمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ، فقال النبي ﷺ ، فقّهوا أخاكم في دينه وعلموه القرآن ، وأطلقوا له أسيره ففعلوا[٧] ...

فبماذا يفسّر لنا مرجليوث وتلامذته معرفة النبي لمثل هذه الحوادث ؟ .

٤ ـ بماذا يفسر « مرجليوث » **إخبار النبي ﷺ لصحابته بفتوحات أمته** فيما سيأتي من الزمان مثل :

« إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم فيكم صهراً وذمة »[٨] وقد فتحت مصر بعد انتقال النبي ﷺ إلى جوار ربه بحوالي عشر سنين ؟ .

---

(٧) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ٩٥ .

(٨) الطبري : جـ ٤ ص ٢٢٨ .

أخبر النبي أثناء حفر الخندق بأن الحيرة وقصور كسرى وقصور الشام الحمر ستفتح لكم[٩] ، وقد فتحت .

تنبأ عند هجرته إلى المدينة لسراقة بن مالك وهو في أشد الساعات حرجاً ، أنه سيلبس سواري كسرى ونطاقه ، وتم ذلك بعد فتح العراق[١٠] .

تنبأ النبي لأم حرام بنت ملحان زوج عبادة بن الصامت أنها ستركب البحر غازية في سبيل الله وقد تم ذلك في خلافة عثمان رضي الله عنه[١١] .

بالإضافة إلى عشرات المعجزات ، التي جمع بعضها ابن الأثير في كتابه أُسد الغابة في معرفة الصحابة[١٢] ، ومنها : قوله ﷺ عن عثمان : « **يدخل الجنة على بلوى تصيبه** » وقوله : « **إن الله مقمصك قميصاً فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم** » وقوله : « **لعلك تُضرب على هذه فتختضب** » ، يعني جانب رأسه ولحيته ، فكان كذلك .

ـ وقال عن الحسن : « **يصلح الله به بين فئتين عظيمتين** » وكان ذلك .

ـ أخبر النبي ﷺ أن إحدى زوجاته ـ وحذر عائشة أن تكون هي ـ تنبحها كلاب الحَوْأب ، وقد نبحت كلاب ماء الحوأب عائشة حقاً فقالت رضي الله عنها : أنا والله صاحبةُ كلاب الحوأب طروقاً ، ردُّوني[١٣] ...

---

(٩) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٢٢ / ١٢٣ .

(١٠) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ٧٤ .

(١١) البداية والنهاية : جـ ٧ ص ١٥٣ .

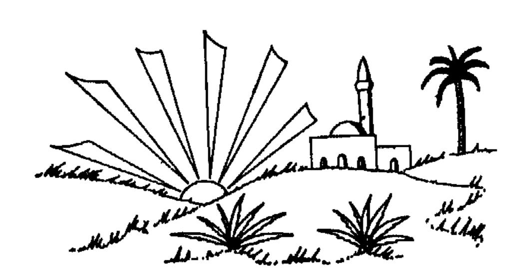
(١٢) راجع الجزء الأول من كتاب « أُسد الغابة في معرفة الصحابة » لابن الأثير ص ٣٦ ، ط : دار الشعب . وعيون الأثر : جـ ٢ ص ٢٨٦ .

(١٣) تاريخ الطبري : جـ ٤ ص ٤٥٧ ، ط : دار المعارف بمصر ، والحَوْأب : موضع في طريق البصرة ، قال أبو زياد : ومن مياه أبي بكر بن كلاب الحَوْأب ، وقال نصر : الحَوْأب من مياه العرب على طريق البصرة ، معجم البلدان : جـ ٢ ص ٣١٤ .

قال ﷺ : « يدفن رجل صالح تحت سور القسطنطينية » فكان ذلك الرجل الصالح : « أبو أيوب الأنصاري » .

هـذا وغيره كثير ، هـل كان بعيـون أم أنهـا معجـزات النبـوة ؟ ليحكم العقـل ـ السيد القاضي ـ !

☆ ☆ ☆



(الجلسة السابعة)

الغرانيق

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى . تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُم وَآبَاؤُكُم مَاأَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى ﴾

[النجم : ١٩ - ٢٣]

وقف النائب العام وهو اليوم « الموسوعة التاريخية للقرون الوسطى » التي أصدرتها جامعة كمبريدج . وكارل بروكلمان[1] ، والتهمة هي : اعترف النبي في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث . اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية : ص ٣٤ / ٣٥ .

وردت القصة في كتاب : دراسات تاريخية باللغة الإنجليزية للسنة الثالثة من قسم التاريخ تحت عنوان : The Beginning of Opposition, The «Satanic Verses».

أي بدء المعارضة والآيات الشيطانية ، في ص ١ إلى ٢٢ .

ومن الملاحظ أن الكاتب قطع بثبوت الروايات لورودها في الطبري دون أن يذكر أن الطبري معروف بالجمع الكثير وباستقصاء الروايات مهما كان حظها من الصحة . مع أنه يضعف بعض الروايات الصحيحة لأحداث أُخرى بوضع جملة : « القصة التقليدية » . وللحقيقة أقول : يمضي الطالب سنة دراسية ليدرس : الغرانيق . والهجرة إلى الحبشة هجرة اقتصادية والخلاف المزعوم بين الصدّيق وعثمان بن مظعون على الزعامة في حياة النبي ﷺ : وحديث الإفك ... لماذا هذا التخير لمثل هذه المواضيع - والتي لها ردود كلها - ونغفل جمال وروعة الأحداث الأُخرى وخاصة الحضارة العربية الإسلامية ؟

بنات الله . وأشار إليهنَّ في إحدى الآيات الموحاة ـ كذا ـ إليه بقوله : تلك الغرانيق العُلَى . وإن شفاعتهن ترتضى . ثم قوي شعور النبي بالوحدانية ، فلم يعترف بغير الملائكة شفعاء عند الله وجاءت السورة الثالثة والخمسون وفيها إنكار لأن تكون الآلهة الثلاث بنات الله .

يأمر القاضي الإسلام بالدفاع عن نفسه .

الإسلام : يكاد يجمع المستشرقون على قبول مسألة الغرانيق على أنها قضية مسلَّمة ، دون عرضها على محك النقد والتحليل ، أو العقل والمنطق والتمحيص ، كأنهم لايحبون أن ينكشف الحق في مسألة تصلح موضعاً للكلام والتجريح باستثناء المؤرخ الإيطالي « غيتاني » الذي جرى مع المحققين من علماء المسلمين على إنكار قصة الغرانيق لتهافتها في الإسناد وفي الحوادث .

ملخّص « حكاية الغرانيق » : أن النبيَّ ﷺ لما رأى تجنب قريش إياه ، وإيذاءهم لأصحابه تمنى فقال : ليته لا ينزل عليَّ شيء ينفرهم مني ، وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه ، فجلس يوماً في نادٍ من تلك الأندية التي تقوم حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى وصل قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى ﴾ ثم قرأ بعد ذلك : تلك الغرانيق العُلَى وإن شفاعتهن لترتجى . ثم مضى في قراءة السورة حتى آخرها ، وسجد وسجد القوم جميعاً لم يتخلف منهم أحد . حتى أن الوليد بن المغيرة لهرمه لم يستطع السجود فحمل في كفه حفنة تراب وسجد عليها[٢] .

وأعلنت قريش رضاها عما تلا النبي ﷺ ، وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، أما إذْ جعلت لها نصيباً

(٢) راجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، الجزء الثالث ص ٢٢٩ / ٢٣٠ ، ط : دار إحياء التراث العربي (بيروت) .

فنحن معك ، وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم ، وبلغ ذلك مسامع المسلمين في أرض الحبشة ، فقالوا : عشائرنا أحب إلينا ، وخرجوا راجعين حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار ، لقوا ركباً من كنانة فسألوهم فقالوا : ذكر آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم ارتد عنها ، فعاد فشتم آلهتهم وعادوا له بالشر . وائتمر المسلمون ما يصنعون فلم يطيقوا عن لقاء أهلهم صبراً فدخلوا مكة .

وتضيف بعض كتب التاريخ والطبقات أن النبي عليه السلام ارتد عن ذكر آلهة قريش بالخير لأنه كبُر عليه قول قريش : أما إذا جعلت لآلهتنا نصيباً فنحن معك . ولأنه حين عرض على جبريل في المساء سورة النجم وفيها مسألة الغرانيق قال له جبريل : أوجئتك بهاتين الكلمتين ؟ فأجابه النبي ﷺ : قُلْتُ على الله ما لم يقل ؟ ثم أوحى الله إلى نبيه : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ، وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ، إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاتَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ [الإسراء : ٧٣ ـ ٧٥] .

وهناك عاد عليه السلام يذكر آلهة قريش بالشر ويسبها وعادت قريش إلى مناوأته وإيذاء أصحابه . وصححت الآيات بعد نسخ الآيات التي امتدحت أصنام قريش . وأيد رواة هذه « الحكاية » حكايتهم بالآية » ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلانَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج : ٥٢] .

واستناداً إلى القرآن والسُّنّة واللغة والمعقول والتاريخ نفسه فإن هذا مرفوض ومدحوض :

١ ـ مرفوض باطل محتجين بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ، لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة :

٤٤ و ٤٥ و ٤٦] ، ولقوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ، إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ٣ و ٤] .

ولو حصل مثل هذا الشيء الذي ورد في « الحكاية » لكان مناقضاً للآيات السابقة ، والآية التي احتج بها مُدَّعو « الحكاية » نفسها تتضمن تثبيت النبي ﷺ على عدم مداهنة قريش مطلقاً : ﴿ وَلَوْلاَ أنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ ، وقريش أحبت المداهنة لكن لم يستجب رسول الله لتثبيت الله له .

ولقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُطِعِ المُكَذِّبِينَ ، وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ، وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ ﴾ [ن : ٨ ـ ١١] .

قال ابن عباس في تفسير هذه الآيات : لو ترخص لهم فيرخصون ، وقال مجاهد : تركن إلى آلهتهم وتترك ماأنت عليه من الحق[٣] . ولكن « لاتطع » الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة مكابرة وضعفاً . فهنا أمر بعدم إطاعة المداهنين فكيف لمن لاينطق عن الهوى . الإطاعة ومخالفة الأمر أو التَّقَوُّل . فلو تقوَّل : ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ﴾ .

ويرفض صاحب « **الإبريز** »[٤] حكاية الغرانيق كُلِّية لرفض عياض وابن عربي لها . وذلك لضعف نقلتها واضطراب روايتها . وانقطاع أسنادها ، فيقول لو أنها وقعت لارتد كثير ممن أسلم وهذا مالم يحدث .

ويفسر الآية التي احتج بها مُرَدِّدُوا هذه الحكاية بقوله : إن هذه الآية تشير إلى أن كل نبي يتمنى الإيمان لأمته ويحرص عليه . ونبينا من جملتهم . فقد قال الله فيه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفاً ﴾

---

(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٤ ص ٤٠٣ .

(٤) « الإبريز » تأليف أحمد بن المبارك . ط . مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٦١ الصفحات من : ٢٤٠ / ٢٤٤ .

[الكهف : ٦] . فالنـاس إذن قـد اختلفوا ﴿ فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

فأما من كفر فقد ألقى عليه الشيطان من الوساوس القادحة له في الرسالة فكفر ، وكذا المؤمن لايخلو من وساوس لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب ، فينسخ الله مايلقيه الشيطان في قلوب أمة الرسل ويحكم آياته الدالة على الوحدانية والرسالة ويبقى ذلك في قلوب المنافقين والكاذبين(٥) .

ويقول صاحب الإبريز : « **وبالجملة فالتفسير الصحيح للآية هو الذي يوفي بثلاثة أمور : العموم الذي في أولها ، والتعليل الذي في آخرها ، ويعطي للرسالة حقها** »(٦) .

وقد تكون قريش قد اختلقت حادثة الغرانيق وروجها المنافقون لأن خطتهم : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً » [الإسراء : ٧٣] .

فقريش اختلقت الحكاية ليرجع المهاجرون من الحبشة وهم الذين فروا من اضطهادها ، ودليل رغبتها في عودة المهاجرين - وهم طلبتها - أن وفدها إلى النجاشي طلب منه رد هؤلاء المهاجرين إلى قومهم ، وذلك بعد هجرتهم الثانية إلى الحبشة .

٢ - **أما السُّنَّة** : فالنبي ﷺ لم يحترم الأصنام في الجاهلية إذ لم يعرف عنه أنه تقرب لصنم بل قال : « **بُغِّضَ إليَّ الأوثان والشعر** » . وأن علياً كرم الله وجهه ، لم يسجد ولم يقترب إلى صنم . وأن الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه أولى به أن

---

(٥) المرجع السابق ص ٢٤٣ .

(٦) المرجع السابق ص ٢٤٤ .

لا يقنع بصنم . فما هَمَّ النبي ﷺ بعمل من أعمال الجاهلية قبل النبوة إلا عصمه الله ، فكيف به في الإسلام ؟.

سئل ابن خزيمة عن هذه القصة فقال من وضع الزنادقة . وقال البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ورواية البخاري عارية عن ذكر الغرانيق .

ورد في تفسير ابن كثير ـ الذي يعتبر حجة في الحديث ، وتفسيره معروف أنه من قسم التفسير بالمأثور ـ وفي الجزء الثالث ، الصفحة ٢٢٩ / ٢٣٠ : أن حديث الغرانيق « مرسل » ، والحديث المرسل : حديث سقط منه الصحابي ، وفي مصطلح الحديث قاعدة تنص على أن إرسال الحديث سبب لضعفه[٧] ، فهو حديث ضعيف قطعاً .

ومما يضعف الرواية ويؤكد أنها موضوعة مبتدعة ، اختلاف النص عند الذين وضعوها في كتبهم : فمنهم من أورد النص : تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى . ووردت : تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن تُرتضى . ووردت : تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن ترتجى . ووردت في الجزء الخامس من تفسير ابن كثير والبغوي جـ ٥ ص ٦٠٣ : وأن شفاعتها لترتجى ، وأنها لمع الغرانيق العُلَى .

طعن الإمام البيهقي في هذه القصة من جهة النقل وذكر أن رواتها مطعون فيهم .

قال الإمام ابن حزم : « والحديث الذي فيه : وأنهن الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى . فكذب بحت لأنه لم يصلح من طريق النقل ولامعنى للاشتغال به ، إذ وضع الكذب لايعجز عنه أحد »[٨] .

---

(٧) إلا مراسيل « سعيد بن المسيب » رضي الله عنه فهي معتمدة فقط ، لمعرفته بورعه وتقواه وإيمانه .

(٨) راجع « الإسلام بين الإنصاف والجحود » ص ٦٩ إلى ص ٧٢ .

٣ ـ **أما اللغة العربية :** فدفعت بلفظها اللغوي بتحليل الشيخ محمد عبده « حكاية الغرانيق » : إن العرب لم يَصِفُوا آلهتهم بالغرانيق قطعاً، لم يأت لهم في نظم ولا في خطب . ولم يكن ذلك جارياً على ألسنتهم ، ولم يستعمل « الغرنوق » و « الغرنيق » إلا لاستعماله الحقيقي بكونه طائراً مائياً أسود أو أبيض ـ واسمه : مالك الحزين ـ واستعمل لغة بشكل مجازي للشاب الأبيض الجميل .

٤ ـ **ومن المعقول :** أن النبي ﷺ ماكان يصلي عند البيت في بدء الدعوة إلا في أوقات الخلوة ولشدة عداوة قريش ماكانوا يتركونه ليقرأ القرآن وهم يسمعون . وورد أن الصحابة كانوا يذهبون إلى شعاب مكة للاجتماع والصلاة خشية من إيذاء قريش لهم . واطلع عليهم نفر من سفهاء قريش فناكروهم وعابوا عليهم دينهم فاقتتلوا ...

٥ ـ **ومن الناحية التاريخية :** نورد ردّ الدكتور عمر فروخ على إيراد « بروكلمان » لهذه « الحكاية »[٩] .

قال الدكتور فروخ مامفاده : وأمسك المبشرون وبعض المستشرقين بهذه الرواية وزعموا أن الرسول ﷺ إنما فعل ذلك لما قاومه مشركو مكة ، فأحب أن يتقرب منهم ، فمدح آلهتهم فعدوا هذا تراجعاً عن تشدده في التوحيد ومهاجمة الأصنام ، ولقد وجدت أن أحسن رد على هذه الفرية ماذكره العالم الهندي مولانا محمد علي[١٠] :

قال إن هذه الرواية وردت عند الواقدي وعند الطبري ، ومع ذلك فإنها لاظل لها من الحقيقة ، فإن كل عمل من أعمال رسول الله ﷺ مناقض لمثل هذا الاتجاه . أضف إلى ذلك أن الواقدي معروف بسرد الإسرائيليات وبسرد الخرافات ،

---

(٩) هامش ص ٣٥ ، كتاب « تاريخ الشعوب الإسلامية » لبروكلمان .

(١٠) The Holy Qur'an, Second Edition. Lahore 1920, P 1016, note, 2382.

وكذلك الطبري معروف بالجمع الكثير وباستقصاء الروايات مهما كان حظها من الصحة .

على أننا لو رجعنا إلى رواية محمد بن إسحق أو إلى صحيح البخاري وهو الذي لم يغادر من حياة الرسول ﷺ شيئاً إلا ذكره لم نَرَ لقصة الغرانيق أثراً ، وابن إسحاق جاء قبل الواقدي بأربعين سنة وقبل الطبري بنحو مائة وخمسين سنة أو تزيد . أما البخاري فقد كان معاصراً للواقدي ، ومع ذلك لم يذكر هذه القصة ، ثم أن الواقدي معروف عند المحدثين بأنه يضع الأحاديث . وأنه غير ثقة فيما يروي ، وكذلك لم يذكرها أحد من رواة الحديث .

وإذا عدنا إلى قراءة الآيات نفسها بالتسلسل وجدناها : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ؟ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى[11] ، إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم ، مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَد جَاءَهُم مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى ﴾ [النجم : ١٩ ـ ٢٣] .

فليس من المعقول أن تحشر بين هذه الآيات المتتالية آية مناقضة لها في أصل العقيدة الإسلامية وصلب دعوة محمد ﷺ .

ورجعت إلى الرواية في الكامل في التاريخ فوجدتها ، فرفضتها قطعاً لأن صاحب « الكامل » ابن الأثير الجزري متوفى سنة ٦٣٠ هـ أي عاش بعد الطبري بكثير ، بينما ابن جرير الطبري الذي عرف عنه كثرة الجمع وباستقصاء الروايات مهما كان حظها من الصحة متوفى عام ٣١٠ هـ . فهي قطعاً من وضع الزنادقة كما ورد في هامش ص ٥٢ . في الكامل نفسه جـ ٢ .

☆ ☆ ☆

---

(١١) قسمة جائرة ، مختار الصحاح : ٣٨٥ .

(الجلسة الثامنة)

لو تحالفت القبائل

☆ ﴿ يُرِيـــدُونَ لِيُطْفِئُـوا نُـورَ اللهِ بِـأَفْـواهِهِم وَاللهُ مُتِمُّ نُـورِهِ وَلَـوْ كَرِهَ الكَـافِرُونَ ، هُـوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُـولَـهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾ .

[الصّف : ٨ و ٩]

النائب العام وقف ليقول : « ولو أن القبائل العربية استطـاعت أن تعقـد فيما بينها محالفات حربية دقيقة ضد محمد للدفاع عن طقوسها وشعائرها الدينية والـذود عن إستقلالها ، الأمر الذي كان ذا أهمية في نظر تلك القبائل ، لأصبح جهاد محمد في مناجزتها جهاداً في غير عدو ، إلا أن عجز العربي القح عن أن يجمع شتـات القبـائل المتفرقة ، وأن يوحّدَ بين البطون الممزقة للعمل تحت لواء واحد ـ حتى لو كان ذلك في سبيل الظفر بغايات سامية وأغراض خطيرة الشأن ـ فإن ذلـك قـد سمح لـه أن يخضعهم لدينه القبيلة تلو الأخرى ، وأن ينتصر عليها بكل الوسائل ، تـارة بـالقوة والقهر ، وتارة بالمحالفات الودية والوسائل السلميـة ، وإن الهـدايـا التي كان الرسول يتألف بهـا قلوب النـاشئين في الـدين ، وكـذلـك خـاصـة القوم وصفوتهم الـذين لم يتغلغل الإيمـان بعـد في قلوبهم ، كان لهـا أثر كبير في قلوب العرب ، حتى أصبحـوا يدخلون في دين الله أفراداً وجماعات »[1] .

وقف الإسلام ليفند شبهة « نولدكـه » هـذه بكلمـات قليلـة بسيطـة من واقع التاريخ الإسلامي فقال :

---

(١) راجع تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٣٩ . حيث تجد الشبهة وهي للمستشرق « نولدكه » .

١ - لم يفطن نولدكه لاجتماع العرب على حرب الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب ، فقد حزبوا الأحزاب عليه وأغاروا على المدينة وحاصروها وضيقوا على أهلها حتى كان المسلم يخشى أن يخرج لقضاء حاجته ، اشتد الخوف وعظم البلاء على المسلمين إذ ذاك ، وظهر نفاق الكثيرين حتى قال متعب بن قُشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط[٢] .

فقد أقبلت قريش ومعها كنانة وتهامة وغطفان في عشرة آلاف ، وتحالفت معها قبيلة بني قريظة اليهودية التي نقضت العهد مع النبي ﷺ .

ولكن هذه الحرب أظهرت مقدرة الرسول الحربية ، ومرونته السياسية : إذ نفذ مشورة سلمان الفارسي بحفر الخندق . وهي من الأعمال الحربية التي لم تعرفها العرب من قبل . حتى لقد دهشت قريش عندما رأته وقال قائلهم : « والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها »[٣] . كما تجلت حنكته السياسية في مساومة غطفان لزلزلتها عن موقفها إلى جانب قريش . لقد فاوض رسول الله ﷺ غطفان وأطمعها في ثلث غلة المدينة ثم عدل عن ذلك ورفضه ، فتوهمت غطفان أن مركزه قد تحسَّن ، وأنه مقبل على حرب الأحزاب وإجلائهم ، ومما زاد هذا الوهم تحقُّق غطفان من عدول بني قريظة عن مناصرة الأحزاب ، وعزمها على تقديم سادات قريش وغطفان إلى الرسول ﷺ ليقتلهم[٤] ، فتحقق التفريق بين الأحزاب وبين بني قريظة . هذا إلى ما أبداه الرسول ﷺ من المهارة في مصابرة المسلمين ، وتشجيعهم على تحمل الجوع والجهد والعري في تلك الأيام التي عصفت بها قدرة الله بمعسكر قريش واضطرتهم إلى الجلاء[٥] .

---

(٢) ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٣٨ ، تاريخ اليعقوبي : جـ ٢ ص ٥١ .

(٣) ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٤٠ .

(٤) الذي فرق الأحزاب وبني قريظة هو « نعيم بن مسعود الأشجعي » .

(٥) تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١١٩ / ١٢٠

ونسي « نولدكه » محاصرة النبي ﷺ وقومه في شِعْبٍ من شعاب مكة لمدة ثلاث سنين من قبل قريش ، لا بيع لهم ولا شراء ولا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ، لقد كانت مقاطعة ولكن الصبر والثبات أخرج النبي ﷺ من هذه الأزمة منصوراً[٦] .

ونسي « نولدكه » أيضاً الحلف المركز الذي تزعمته « خيبر » وضم يهود تيماء ، ويهود فدك ويهود وادي القُرَى الذي قضى عليه النبي ﷺ .

فأحلاف كثيرة ومركزة قامت ضد محمد ودعوته ، ولكن مقدرته ﷺ الحربية والسياسية مع التوفيق الإلهي قضت على هذه الأحلاف ولم تفلح برغم أنها أضعاف قوة محمد وصحبه ، غير أن المعونة الإلهية كانت دوماً معه .

وأخيراً التحالف يكون لقوم قلة ضد كثرة ، والنبي ﷺ ما خاض حرباً وكان بها عدد جيشه أكبر من عدد جيش المشركين : في بدر ، في أُحُد ، في الخندق ، في فتح مكة ، في غزوة تبوك ... جيش الإيمان قلة ؛ وجيش الكفر كثرة ، فلماذا التحالف ؟

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِم وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٨ و ٩] .



(٦) راجع ابن هشام : جـ ١ ص ٣٦٠ / ٣٧٢ / ٣٧٥ / ٣٩٧ / ٣٩٩ .

(الجلسة التاسعة)

انتشار الإسلام

☆ « رَمَتْنِي بِدَائِها .. وَانْسَلَّتْ »
مثل عربي

يدخل الإسلام إلى قاعة المحكمة ، فيأمر القاضي النائب العام أن يعرض شبهته واتهامه ، فيقف النائب العام ، ويوجّه إلى الإسلام التهمة التالية :

- كيف يتسق في عقل إنسان مفكر موضوعي يبتغي الحقيقة ، أن ينادي الإسلام بحرية الفكر والمعتقد . ويدّعي الحجة والإقناع كما ورد في قرآنه :

﴿ لاإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾[البقرة : ٢٥٦] .
﴿ وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر ﴾[الكهف : ٢٩] .
﴿ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ المُبِينُ ﴾[النحل : ٨٢] .

ثم يعتمد على السيف ليفرض نفسه على الشعوب ؟ :

« يتحتم على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم ، لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني »[١] .

« من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحاً إلاّ عندما كان يهدف إلى الغزو »[٢] .

---

(١) راجع كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية : ص ٧٨ .
(٢) راجع : Muir 2 col , IV , PP . 107 - 8 8 . و : Caetani vol , 1 ,P . 663 . وفردريك دينسون موريس في : . The Religions of the Word P . 28 « Cambridge , 1852 » .

ويرجع كل من « مور » و« غيتاني » : « ازدياد عدد المؤمنين إلى الانتصارات العسكرية وإكراه الناس على الدعوة الموجودة في تعاليم الإسلام »[٣] .

« وأخضعَ سيفُ الإسلام شعوبَ أفريقية وآسية شعباً بعد شعب »[٤] .

« أن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح »[٥] .

« في القرن السابع للميلاد برز في الشرق عدو جديد ، ذلك هو الإسلام الذي أُسِّس على القوة ، وقام على أشد أنواع التعصب ، لقد وضع محمدٌ السَّيْف في أيدي الذين اتبعوه . وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذّات »[٦] .

« وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة »[٧] .

« إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينَهم بالقوة وقالوا للناس : « أَسْلِمُوا أو مُوتُوا » . « بينما أتباع المسيح ربحوا النفوسَ بِبرِّهم وإحسانهم »[٨] .



---

(٣) الدعوة إلى الإسلام ص ٤٦٩ : The Religions of the World, P.28. «Cambridge, 1852».

(٤) التبشير والاستعمار ص ٤١ . عن : Islam and Mission: 43.

(٥) هذا كلام : لطفي ليفونيان Levonian 9.

(٦) كتاب « البحث عن الدين الحقيقي » تأليف المنسينور كولي . ط ١٩٢٨ ، ص ٢٢٠ .

(٧) كتاب « تاريخ محاضرات ج . ايزاك . للشرق الأدنى ص ٣٢ . والكتاب يدرس لطلاب الصف الخامس في المدارس الفرنسية في بيروت » .

(٨) كتاب « تاريخ فرنسة » تأليف هـ . غيومان و ف . لوسيتر . ص ٨٠ ـ ٨٢ « وكان يدرس في لبنان » .

سمع الإسلام هـذه الادعـاءات ووقف بعـزم وقـوة ليرد على هـؤلاء المستشرقين وخصـوصـاً أن بعض هـذه الآراء تُـدرَّس في المـدارس التبشيريـة في الـوطن العربي وبالتحـديـد فهي تقرر لصفوف المرحلـة الابتـدائيـة ليخرج المبشرون جيلاً كارهـاً حاقداً على الإسلام .

ـ سيادة القاضي ـ

بدأ الرسول العربي الكريم ﷺ دعوتـه في مكـة بـأن عرض الإسلام على بعض أصحابه الثقات : فأسلم الصـدِّيق وعثمان وابن العوام وسعـد وابن عوف وغيرهم .. كما عرض نفسه في موسم الحج على القبائل داعياً إلى دين الله عز وجل . فاستجـاب قوم من الأوس والخـزرج . وبقي النبي ﷺ يـدعـو في مكـة محتمـلاً الأذى والألم . والاضطهاد والظلم من قريش ، وهاجر إلى المدينة دون أن يريق قطرة دم ، وبعد قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة حارب النبي ﷺ الفئات التالية :

١ ـ قريش « سكان مكة المكرمة » .

٢ ـ اليهود « في المدينة المنورة وفي خيبر » .

٣ ـ الروم والغساسنة العرب الخاضعين لهم .

فلماذا حارب النبي ﷺ والمسلمون هؤلاء ؟

١ ـ قريش :

مكث النبي ﷺ بمكة « مسقط رأسه » ثلاث عشرة سنة . يدعو الناس بالحجة والموعظة الحسنة ، وقـد أذاقتـه قريش ـ هو والمؤمنين عـامـة ـ كل صنوف الأذى . وصبَّر الله نبيـه ﴿ فَـاصْبِرْ كَمَـا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُـلِ وَلاَ تَسْتَعْجِـلْ لَهُمْ ﴾[9] [الأحقاف : ٣٥] ، وذكر الله قصة « أصحـاب الأخـدود » الـذين تحملوا النـار في

---

(٩) وهي مكية .

سبيـل الله ـ كما ورد في سـورة البروج وهي مكيـة ـ وذكر لـه قصص الأنبيـاء في « سورة الأنبياء » ومنها قصة « ذي النون » « يونس عليـه السلام » . ومغزاهـا أن اصبر في قـومـك ولاتكن كـذي النـون الـذي لم يصبر و ﴿ ذَهَبَ مُغَـاضِبـاً ﴾[10] [الأنبياء : ٨٧]فصبَّر الله عز وجل النبي ﷺ ، وصبَّر النبي ﷺ صحابته .

هاجر النبي ﷺ وصودرت أمواله وأموال المسلمين فظُلِمَ وظُلِمَ أصحـابـه ، وفي المدينة أعلن على قريش مقابل ماسبق ، حرباً اقتصاديـة يرغمها بهـا على الاعتراف بحقوقه في مكة وحقه في نشر الدعوة ، فخرج يريد قافلة أبي سفيان ولكنهـا تمكنت من الإفلات ، ولكن قريشاً خرجت إلى رسول الله ﷺ بقضّهـا وقضيضهـا ، بكامل قوتها حتى عبيدها خرجوا معها ، فأذن الله لنبيه بالقتال بالآيات التالية :

﴿ أُذِنَ لِلَّـذِينَ يُقَـاتَلُونَ بِـأَنَّهُم ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِم لَقَـدِيرٌ ، الَّـذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ﴾[الحج : ٣٩ ـ ٤٠] .

﴿ وَقَـاتِلُـوا فِي سَبِيـلِ اللهِ الَّـذِينَ يُقَـاتِلُـونَكُم وَلاَ تَعْتَـدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ، وَاقْتُلُوهُم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُم مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُم وَالفِتْنَةُ أَشَـدُّ مِنَ القَتْلِ وَلاَ تُقَـاتِلُـوهُمْ عِنْـدَ المَسْجِـدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَـاتِلُـوكُم فِيـهِ فَـإِنْ قَـاتَلُـوكُم فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ ، فَإِن انْتَهَوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لاَتَكُـونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُـونَ الـدِّينُ للهِ فَـإِنِ انتَهَـوا فَـلاَ عُـدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّـالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠ ـ ١٩٣] .

﴿ وَمَـا لَكُم لاَتُقَـاتِلُـونَ فِي سَبِيـلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَـالِ وَالنِّسَـاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ القَرْيَـةِ الظَّـالِمِ أَهْلُهَـا ، وَاجْعَل لَنَـا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾[النساء : ٧٥] .

فنرى أن القتـال لم يُشَرَّع إلا « دفـاعـاً عن النفس » ومـا إلى ذلـك من العرض

(١٠) وهي مكية .

والمال ، ومـا يـذكر بـالفخر والكرامـة لرسول الله ـ وكل سيرتـه عزة وفخر وكرامـة ﷺ ـ أنه في بدر ماأراد قتالاً أو سفك دماء ، إنه أراد حرباً اقتصاديـة ليعوض عـما ذهب وَصُودِرَ في مكة ، وفي أُحُد أراد البقاء في المدينة والمحاصرة لـدفع قريش بـأقل خسـائر ، وفي الخنـدق ـ غزوة الأحزاب ـ اتخـذ ﷺ موقف المـدافـع وفرَّق قريشـاً بإنشـاب خلاف بينهم كي لاتُزْهَق أرواحٌ من الطرفين ، وعنـدمـا أراد فتح مكـة[11] أغلق وقطع الطرق الـذاهبـة إلى مكـة كي يعود إلى بلـده التي أُخرج منهـا ، وليفهم قريشاً التي تطاولت على نقض صلح الحديبية ولم تَفِ بعهدهـا . استخفـافـاً وحقـداً عندما رأت القبائل العربية تدخل في دين الله بالإقناع والموعظة الحسنة ليفهمها أن دعايتها عن محمـد أنـه : كاهن ، أو شـاعر ، أو مجنون ، قـد تكشفت أمـام العرب ، ورأى العرب في محمد رسول الله ﷺ عاقلاً حكيماً ... دعوته حق ورسالته صدق .

أراد النبي ﷺ دخول مكة دون أن تُزْهَقَ أرواحٌ أو تُرَاقَ دماءٌ . وبالفعل فإنه لمـا وصل إلى قرب مكـة جـاءه أبـو سفيـان ، فقـال النبي ﷺ للعبـاس : « **اذهب فـاحبس أبـا سفيـان عنـد خَطْم[12] الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليـه جنود الله** »[13] . وهنا أراد النبي ﷺ أن يذهب أبو سفيـان بعـد هـذا وفي نفسـه خوف من قوة النبي ﷺ لِيُقنِعَ قريشاً بعدم جـدوى المقـاومـة ، وقـال النبي ﷺ : « **من دخـل دار أبي سفيـان فهـو آمن ، ومن دخـل دار حكيم بن حـزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهـو آمن ، ومن أغلـق عليـه بـابـه فهـو**

---

(١١) أراد ﷺ فتح مكة لنقض قريش « صلح الحديبيـة : ٦ هـ » . عنـدمـا شجعت قبيلـة بكر ، ضد قبيلة خزاعة حليفـة النبي ﷺ « راجع الكامل في التـاريخ : جـ ٢ ص ١٦١ ، والطبري : جـ ٣ ص ٤٢ » وتاريخ الإسـلام : جـ ١ ص ١٣٧ .

(١٢) الخطم : أنف الجبل ، وهو يخرج منـه يضيـق معـه الطريـق فتتزاحم فيـه الخيـل حتى يحطم بعضها بعضاً .

(١٣) الكامـل في التـــاريـخ : جـ ٢ ص ١٦٥ ، الطبري : جـ ٣ ص ٥٤ ، عيـون الأثر : جـ ٢ ص ١٧٠ .

آمن »[14] ، وبالفعل فقد وصل أبو سفيان مكة فقال : يامعشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لاقِبَل لكم به ...[15] وعهد النبي إلى أُمَرائه عند دخول مكة « **أن لايقتلوا أحداً إلا من قاتلهم »**[16] .

فالنبي ﷺ كان حريصاً على عدم سفك الدماء لأن الدم العربي كان غالياً عنده وهو حريص على سلامة هذا الدم برغم شرك صاحبه ووثنيته ، لأنه ﷺ عارف مكانة الأمة العربية ـ على جاهليتها ـ عند الله .

وللحقيقة أقول : إن الإسلام لم يقبل في جزيرة العرب إلا « مسلمين » ، وذلك لحماية الموطن الأول ، لحماية الإسلام داخل وطنه ، وآخر من أخرج من الجزيرة العربية « نصارى نجران » الذين أعطاهم النبي ﷺ ضمانات تضمن صيانة مؤسساتهم[17] . ثم أبعدهم عمر بن الخطاب لما خالفوا شروط الصلح التي عقدت بينهم وبين النبي ﷺ ، وعندما صاروا خطراً يتسرب منه الضرر إلى الجزيرة العربية[18] .

وهكذا فإننا رأينا أن النبي ﷺ كان محقاً في محاربته لقريش ، لأنه إنما كان في موقف الدفاع أمام من ناصبوه العداء وحاولوا القضاء على رسالته ، ولم يرعوا فيه إلاًّ ولاذمة ، فأخرجوه وصحبه من ديارهم ، وصادروا أموالهم ، فاستطاع بهذه الحروب أن يحرر الجزيرة العربية من الشرك والوثنية بأقل الخسائر وخلال مدة وجيزة ...

---

(١٤) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٦ ، الطبري : جـ ٣ ص ٥٤ . والرواية للطبري .

(١٥) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٦ ، الطبري : جـ ٣ ص ٥٤ .

(١٦) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٦٧ .

(١٧) دفاع عن الإسلام : لورافيشيا فاغليري ، ص ٣٤ .

(١٨) الدولة العربية : يوليوس فلهاوزن ، ص ٢٣ .

وهنا في سؤال أطرحه عليك ـ سيادة القاضي ـ: هل خطر ببال هؤلاء المتعصبة من الحاقدين أن يجمعوا عدد القتلى في هذه الحروب وخلال ثلاث وعشرين سنة من بعثته ﷺ وحتى وفاته ؟ **إنه لم يتعد ولم يجاوز أربعمائة وأربعين رجلاً من العرب**[19] !! فأي دعوة في العالم حققت مثل انتصارات محمد ، بهذه المدة ، وبهذه القلة القليلة من الخسائر البشرية ؟!..

وأخيراً ... فلينظروا اعتراف مارجليوث بأن محاربة النبي ﷺ لقريش كان أمراً مشروعاً إنسانياً له مايبرره[20] .

٢ ـ حروب النبي ﷺ ضد اليهود :

قال المستشرقون عندما تكلموا عن اليهود :

« حاول محمد ﷺ أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد »[21] . « إجلاء اليهود باستعمال وسائل غير مقدسة »[22] عاش محمد هذه السنين الست بعد هجرته على التلصص والسلب والنهب ، ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه ، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة فقد كان هناك على أي حال سبب ما ـ حقيقياً كان أو مصطنعاً ـ يدعو إلى انتقامه منهم ، إلاّ أن خيبر التي تبعد عن المدينة كل هذا البعد ، لم يرتكب أهلها في حقه ،

---

(١٩) راجع مقدمة كتابنا « غزوة بدر الكبرى » حيث جمعنا بدقة عدد القتلى من العرب كلهم ، مسلمهم ومشركهم ، حتى ومن قُتِل غدراً أو خطأ فكان المجموع / ٤٤٠ / رجلاً ، مع ٦٠٠ ـ ٧٠٠ من اليهود قُتلوا بعد نقضهم مواثيقهم مع رسول الله ﷺ وخيانتهم للمسلمين وهم في ساعات حرجة .

(٢٠) Muhammad and the Rise of Islam, PP. 462 - 3

(٢١) يوليوس فلهاوزن « تاريخ الدولة العربية » ص ١٥ .

(٢٢) يوليوس فلهاوزن « تاريخ الدولة العربية » ص ٢٢ .

ولا في حق أتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعاً .. وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التي سيطرت على نفس محمد ، والتي دفعته إلى شنّ غارات متتابعة ، كما سيطرت على نفس الاسكندر من قبله ونابليون من بعده ... إن استيلاء محمد على خيبر يبين لنا إلى أي حدٍّ أصبح الإسلام خطراً يهدد العالم »[٢٣] .

والآن لنُفَنِّد آراء هؤلاء المستشرقين ومرجليوث خاصة وهو قد (عذر) النبي ﷺ في حربه لقريش وليهود المدينة ، ولم (يعذره) في غزوة خيبر ، فقد جمع بين إعذاره في الأول ، والحمل عليه في الأمر الثاني ، ليظهر بمظهر الموضوعي المنصف فما أفلح ، لما يلي :

النبيُّ ﷺ محق كل الحق في إجلاء اليهود من بني قينقاع بعد بدر لمؤامرتهم وتطاولهم وغرورهم ، فمن أقوالهم : « يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة » ويقول ابن الأثير : « فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبينه » . ثم يذكر قصة المرأة المسلمة التي تعرض لها اليهود في سوق بني قينقاع[٢٤] .

والنبيُّ ﷺ محق كل الحق في إجلاء يهود بني النضير بعد أُحُد لأنهم تآمروا مع قريش ضد المسلمين .

والنبيُّ ﷺ محق كل الحق في حكمه ببني قريظة بعد الخندق لنكثهم عهودهم معه ، وهو في أشد ساعات الحرج ، بعد أن ساعدوا قريشاً وحرضوها ضد رسول الله ﷺ .

وكما يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن في « تاريخ الإسلام » بعد أن أورد مؤامراتهم ووقوفهم دائماً في صف معادٍ ضد النبي ﷺ . قال : « ومع ذلك كان الرسول يرفق باليهود إذا نقضوا عهده أو حاربهم فانتصر عليهم ، فكان لا يعاقبهم

---

(٢٣) راجع تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

(٢٤) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ٩٦ ، عيون الأثر : جـ ١ ص ٢٩٥ .

إلا بمقدار ما يكف أيديهم عنه ، وكان يحكّم فيهم من يختارونه بأنفسهم . وصفوة القول أن معاملة الرسول إياهم كانت أيسر وأخف من معاملته قريشاً وغيرها »[٢٥] .

إن اليهود ـ شعب الله المختار ـ كما يسمون أنفسهم عزَّ عليهم أن يروا (أرستقراطيتهم) مهددة باستقرار أمر العرب والتفافهم حول رسول الله ﷺ ، فلا ضمان لمركزهم هذا إلا بالقضاء على محمد ودعوته . فكانوا ينقضون العهود في أحرج الأوقات ويمالئون أعداء المسلمين عليهم ليستأصلوا شأفتهم ويبيدوهم عن آخرهم ، حتى أنهم حاولوا قتل رسول الله مرتين : مرة بفخذ مسمومة ومرة بإلقاء حجر عليه من سطح دار كان جالساً في صحنها[٢٦] .

فحرب محمد ﷺ ضد يهود المدينة مشروعة لها ما يبررها ، أما بالنسبة لخيبر فالأمر ما يلي :

أولاً : نعجب لأمر مرجليوث ـ ومن نحا نحوه ـ في قراءة التاريخ ، فالتاريخ ينص وبصراحة[٢٧] أن اليهود عندما أخفق العرب في القضاء على محمد ﷺ جمعوا شملهم وتحزّبوا أحزاباً واستعدوا للإغارة على المدينة ، ليدهموا المسلمين فيها ، وعلم النبي ﷺ بتأهبهم للإغارة على المدينة والقضاء على الإسلام في معقله ، فعاجلهم وسار إليهم ، سار إلى خيبر صاحبة الزعامة[٢٨] والرأس المدبر ليهود المنطقة . وإن موقف يهود خيبر معروف حيال الدعوة وعداءهم العلني العملي للإسلام ، ومكائدهم المتكررة ، يدحض أقوال المستشرقين أصحاب الهوى والغرض كرجليوث وأشياعه .

وقد قال التاريخ : إن الرسول ﷺ أتى بعين (بجاسوس) فأقر أنه مرسل إلى

---

(٢٥) تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٣٢ .

(٢٦) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٥٠ .

(٢٧) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٤٧ ، الطبري : جـ ٣ ص ٩ .

(٢٨) اليهود المتحالفون بزعامة « خيبر » منهم : يهود تيماء ، ويهود فدك ، ويهود وادي القرى .

خيبر يعرض معونة يهود (فدك) ونصرتها على أن يجعلوا لهم ثمر خيبر ، والذي قبض على العين عليٌّ رضي الله عنه . وقال العين : « إن جميع اليهود سيمدون خيبر بالمعونة »[٢٩] وشك مرجليوث وأمثاله في صدق التاريخ وأمانته ، لأن صدق التاريخ في هذه الحالة يدحض دعواه ، ويصد هجماته على الرسول والمسلمين .

وإذا رأى التاريخ أن لكل غزوة أسبابها الملحة والدفاعية التي يصح أن تحمل رسول الله ﷺ على أشد أنواع العقاب ، أقسى مما كان يفعل ، وروى إلى جانب هذا حرص النبي ﷺ على الوفاء بعهوده ودفعه الديات لمن قتلهم أصحابه خطأ ، وعفوه عن كل معتد إذا أتاه مسلماً . إذا حدث التاريخ بكل ذلك أصم « مرجليوث » أذنيه كي لا يتراجع أمام الموضوعية والحقيقة التاريخية ومنطق البحث المنهجي التاريخي العلمي . فلماذا ؟!

وإذا اتهم « مرجليوث » النبي ﷺ والمسلمين أنهم قاموا بغزوة خيبر حبّاً بالمال والغنائم ليس غير ، فإنه لا يحب أن يستعرض تاريخ المسلمين ليرى أن المسلمين زهدوا بالمال وما قاتلوا من أجله أبداً فإن المسلمين الأولين قد خرجوا من مكة تاركين أموالهم وأملاكهم وتحملوا ألوان الفتنة والعذاب[٣٠] ، وآلام العزلة في شعب أبي طالب ، وقسوة الاغتراب في الحبشة والهجرة إلى المدينة . وإن في إيواء الأنصار إخوانهم المهاجرين وقسمتهم ثروتهم عليهم : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

كل هذا يدحض فرية « مرجليوث » ، فكل عاقل يقول : إن المسلمين الذين ذاقوا كل هذه الآلام ما صبروا عليها طمعاً بمال سيأتي يوما ما ، بل إيماناً بعقيدة وحسب . ولكن من يحاول أن يمسّ هذه العقيدة فله جزاء مناسب . وما حرب النبي ﷺ ضد خيبر إلاّ جزاء لقوم طمعوا في القضاء على دين الله .

---

(٢٩) تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٣٤ .

(٣٠) سنعود لهذا البحث في « الغنيمة هي الهدف » الجلسة الثالثة عشرة .

٣ ـ حروب النبي ﷺ ضد الغساسنة وأسيادهم الروم :

وذلك في معركتي : « مؤتة سنة ٨ هـ ، وتبوك سنة ٩ هـ » .

مُؤْتَة : أرسل النبي ﷺ في السنة الثامنة للهجرة[٣١] رسولاً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الغساسنة يدعوه إلى الإسلام ، فقتل الحارث رسولَ رسولِ الله : شجاع بن وهب الأَسدي (وليس هكذا تعامل الرُّسل والوفود ، ففي هذا انتهاك للعرف الدولي ، وأن الرسل لا تقتل مهما عملت ومهما تكلمت) . وقال : « من ينزع مني ملكي أنا سائر إليه »[٣٢] . مع أن النبي ﷺ ما أراد منه ملكه ، بل أراد هدايته وإسلامه فحسب .

ولما سبق ، سيّر الرسول ﷺ جيشاً من ثلاثة آلاف مجاهد بقيادة مولاه زيد بن حارثة لتأديب من قتل ممثل الإسلام والنُّبُوَّة . فلقى زيد جموع الغساسنة ومعهم الروم عند مؤتة ، ولا تهمنا حوادث المعركة ، بل يهمنا أن النبي ﷺ ما رفع سيفاً بوجه الغساسنة وأسيادهم الروم إلا بعد قتل رسوله إليهم ، واستعداد الحارث للسير إلى المدينة المنورة لحرب الإسلام في عاصمة الإسلام ، **فكانت سرية مؤتة عملاً دفاعياً** .

تبوك[٣٣] : بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام أن الروم تجمعوا على حدود فلسطين لقتال المسلمين ومعهم بعض القبائل العربية المتنصِّرة ، فدعا المسلمين للخروج إليهم قبل أن يغزوهم في عقر دارهم . وبالفعل فقد وصل ﷺ تبوك وأقام فيها أياماً ، فصالحه أهلها بعد انسحاب الجيش الرومي باتجاه الشمال ، وصالح أمير

---

(٣١) راجع « رسائل مزورة » فهي تدحض نشر الإسلام بالسيف ، بل الدعوة كانت : « بالحكمة والموعظة الحسنة » .

(٣٢) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٣٣) تبوك : موضع بين وادي القُرَى والشام ، بين الحِجر وأَوَّل الشام على أربع مراحل من الحجر ، نحو نصف طريق الشام ، معجم البلدان : جـ ٢ ص ١٤ .

دومة الجندل وأيلة وعاد دون سفك دماء .

وهكذا فإن مسير النبي ﷺ إلى تبوك كان لأسباب مشروعة جلية .

وصفوة القول لقد خاض النبي ﷺ حروباً عادلة بعد أن وضع السلم أساساً لسياسته والحرب للدفاع ، وكان الحفاظ على الأرواح أمله ، وكان تأديب الظالم المغرور بأقل دماء هدفه ، وكان التسامح منطبعاً في ذاته وهو غايته .

ﷺ إنه القدوة الحسنة والأُسوة لمن بعده في الجهاد ، فإلى الجهاد : تعريفه ، أُسس إعلانه ، آدابه ، غايته ، ماذا حقق ...

☆ ☆ ☆

الجهاد[٣٤] ...

أيها السيد القاضي ...

ركّز الإسلام في نفوس أتباعه المؤمنين مبدأ العِزَّة ، وجعل شعورهم بها شعاراً : ﴿ وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ولِلمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] . ولا بدّ لهذه العزة أن تبقى وتنشر بين الشعوب المضطهدة المظلومة ، والجهاد وسيلة بثها ونشرها ، وجعل الإسلام لهذه العِزّة مؤيدات وضمانات هي :

١ ـ ربط ضمير المؤمن بمثل أعلى هو الله ، فلا يعرف المؤمن الخضوع إلا لربّه ، ولا يخشى أحداً سواه .

٢ ـ جعل الإنسان يسمو على كل طبقية أو حسب أو نسب أو مال أو جاه أو

---

(٣٤) نعني به هنا معناه الخاص : القتال والحرب . فهناك جهاد النفس والهوى ، وهناك جهاد بالمال والكلمة الطيبة . واعتمدنا في هذا القسم كتاب الدكتور فتحي الدريني : التربية الاسلامية (٣ ث) : جـ ٢ ص ١٠٢ ـ ١١٩ .

لون أو جنس ... وجعل العمل الصالح لخير الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة منشأ كل تقدير أو شرف : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .

٣ ـ مبدأ المساواة في الحقوق .

٤ ـ العدل المطلق قوام المجتمع والحكم ، فلا تفاوت بسبب قرابة أو مودة أو عداء ...

٥ ـ تحريم الاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض ...

« فالعزَّة » لا تعني الاستعلاء أو البغي أو التسلط . ومع ذلك فهي عزة قائمة على القوة وجاعلة هدفها السلم في العلاقات الدولية ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ [الأنفال : ٦١] . وما قوة العزة ، وعزة القوة إلاّ للدفاع عن المبدأ والدعوة ، وردع الاعتداء وظلم الظالم ، فالعزة درع الرسالة وصون لها .

ما الجهاد ؟ وما هدفه ؟

لم يفرض الله الجهاد لإكراه الناس على الإسلام . فالإكراه لا يؤسس عقيدة : ﴿ لاَإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . لذلك فإن الإسلام لا يَقْهَر . ولا يُجْبِر امرأ على دين يرفضه . وعلى هذا فالحرية مكفولة في أحكام ودستور الإسلام . ولو صح قول بعضهم أن الإسلام سَلَّ سيفاً وفرض نفسه على الناس جبراً لما وجدنا شيئاً اسمه : « الجزية » أو « ذميون » فالجزية لغير المسلمين الذين لم يرضوا دخول الإسلام . ولم يجبرهم الإسلام على اعتناقه ، إنهم في حرية تامة ، عقائدهم ومعابدهم محترمة يطبقون أحكام دينهم فيما بينهم . وجاءت النصوص الصريحة تحرم إيذاءهم فقد قال رسول الله : « **من آذى ذمياً فأنا خصمه** »[٣٥].

---

(٣٥) رواه الخطيب عن ابن مسعود رضي الله عنه .

فالحجة وسيلة لنشر الدعوة الإسلامية :

﴿ ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١ ـ ٢٢] .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيد ﴾ [ق : ٤٥] .

وأساس إعلان الجهاد :

١ ـ إزالة عوائق الحرية العقلية . وحماية « الشخصية الإنسانية » من الانحدار في هوة من الإسفاف ، وإتاحة المجال لإبراز خصائصها الخيرة وتخليصها من شوائب الخرافة والوهم وعبادة المادة واستغلال المستضعفين ، لتقرَّر كلمة الله في الأرض وتعلو .

٢ ـ ردّ الظلم والبغي والعدوان عن الدين والوطن والأهل والمال والولد : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهم ظُلِمُوا ﴾ [الحج : ٣٩] .

٣ ـ كفاية حرية الدين والاعتقاد .

٤ ـ تأمين طريق الدعوة لدين الله ـ بأمر من الله ـ باعتبارها رسالة اجتماعية إصلاحية ومنقذة شاملة ، تنطوي على مبادئ الحق والخير والعدل والمساواة والإخاء وعبادة الله وحده .

٥ ـ نصرة المظلومين المضطهدين من الشعوب : ﴿ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وأما القول بأن المسلمين حملوا السيف ليرغموا الشعوب على الإسلام فتهويل أشاعته وهللت له الكنيسة في أوربة . ويمكن إيراد شهادة المؤرخ الكبير « توينبي » بهذا الصدد مع أننا سنفرد لشهادة المنصفين صفحات في نهاية هذا البحث .

قال شيخ المؤرخين المعاصرين « توينبي » : « من الميسور أن نسقط الدعوى التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلواً في تجسيم أثر الإكراه في الدعوة الإسلامية ، إذْ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف ، وإنما كان تخييراً بين الإسلام والجزية ، وهي الخطة التي استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في البلاد الإنجليزية على عهد الملكة اليزابيت »[٣٦]، فكيف يعتبر مبدأ « الإسلام أو الجزية » في الشرق منكراً وقسوة وعاراً بينما ينظر إلى مبدأ « المسيحية أو الجزية » في الغرب ـ في إنجلترا بالذات ـ على أنه خطة حكيمة تستحق الثناء ؟... أليس هذا تحاملاً ؟؟!!..

هذا ، وإن أكثر البلاد عدد مسلمين هي أقل البلاد غزوات إسلامية ، أو إن الملايين المسلمة في أفريقية وجنوب آسية لم يصل إليها جيش من المسلمين ، بل وصلهم دعاة ، ودعاة فحسب .

إن المسلمين لم يحاربوا قط في صدر الدعوة إلاَّ مدافعين أو دافعين من يصدون عن الدعوة بالموعظة الحسنة من ذوي السلطان[٣٧].

---

(٣٦) ما يقال عن الإسلام ، ص : ٢٧ .

(٣٧) يقول الأستاذ محمد الغزالي في كتابه « التعصب والتسامح » ص ٩٠ : (إن الإسلام لو استخدم =

أما قتل الحارث رسول رسول الله ؟

أما ساعد الروم الغساسنة وقرروا غزو الإسلام في عقر داره ؟

أما أرسل كسرى يطلب النبي ﷺ حياً أو ميتاً لأنه دعاه إلى الإسلام ؟

« إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم ، ولكن نقلوا الأمم إلى الإسلام » . لم ينجل فتحهم عن غالبين ومغلوبين لا تزال تهيج بينهم الأحقاد ، دخل الإسلام تلك النفوس عن قناعة ، وهذا هو سلطان الإسلام السياسي والعسكري الحربي ينحسر عن البلاد ، ولكنه ما زال مستقراً إلى يوم القيامة فيها . فالفتح الإسلامي نسيج وحده في تاريخ البشرية لا يشبهه فتح ولا يدانيه ولا يقاس به .

آداب الجهاد :

وحقيقة أذكرها للتاريخ : أن الأساس الأخلاقي الذي قامت عليه الفتوحات ، وكان عليه الجهاد ، يستقيم مع كل أساس سليم لكل اعتقاد سليم قويم ، وهو دستور خالد لآداب الحروب .

تصور ـ سيادة القاضي الحكيم ـ أن للحروب عند المسلمين آداباً لخّصها الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه في عشر خصال ، جاءت في خطبته التي ودع بها جيش أسامة بن زيد ، وفيها يقول[٣٨] :

« يا أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني :

= قوة عسكرية ضد حكومات تعتمد سياستها على تأمين حقوق الفرد وإطلاق حريته الدينية ، لكان قد ارتكب جريمة من أقبح الجرائم) .

(٣٨) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ٢٢٧ . والطبري : جـ ٣ ص ٢٢٦ .

١ ـ لا تخونوا ولا تَغلُّوا[٣٩] .

٢ ـ ولا تغدروا ولا تمثلوا .

٣ ـ ولا تقتلوا طفلاً صغيراً .

٤ ـ ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة .

٥ ـ ولا تعقروا نخلاً[٤٠] ولا تحرقوه .

٦ ـ ولا تقطعوا شجرة مثمرة .

٧ ـ ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة[٤١] .

٨ ـ وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

٩ ـ وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها .

١٠ ـ وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً . اندفعوا باسم الله » .

ومن آداب الإسلام في الجهاد : عدم التمثيل بالقتيل أو الإحراق بالنار أو تجويع الأعداء ، أو إرهاب الأسرى ، ومن الآداب ضرورة إعلان الحرب قبل البدء بالقتال للابتعاد عن الخداع والخيانة ، ولا تعلن الحرب إلا بعد استنفاذ جميع وسائل النصح والدعوة ، ثم عدم التفاخر بالنصر أو مراءاة الناس : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّـذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

---

(٣٩) الغلُّ : الغِشُّ أو الضِغْن والحِقْد « مختار الصحاح : ٤٧٩ » .

(٤٠) عقر النخلة : قطع رأسها .

(٤١) مما سبق نعلم أن الإسلام يحرم استخدام أسلحة الدمار كالقنابل الذرية والقنابل المحرقة « كالنابالم » التي تقذف على الآمنين دون تمييز بين محاربين ومستضعفين مدنيين . وفي القرن العشرين « قرن النور » : كيف تنشر المبادئ ؟ بالاقتناع والمحاجة أم بالقنابل والمدافع ؟

وبعد ، فهل من سبق أعظم من تقرير تلك الآداب للحروب والتي قررها أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فأخذها القانون الدولي الحديث وتبنتها الأمم المتحدة شعاراً للإنسانية ، شعاراً لا يزال على الورق ، بينما كانت إيماناً راسخاً لدى كل المجاهدين من المسلمين الأولين .

وإليك ـ سيادة القاضي ـ بنود هذا القانون[٤٢]:

١ ـ إخطار الدولة التي سيعلن عليها الحرب بميعاد معين[٤٣] .

٢ ـ قرر القانون الدولي أن الرعايا غير المنتظمين في الجيش لا يعدّون محاربين ولا يجوز إلحاق الأذى بهم ، وأن وصف المحاربين خاص بكل جندي أو محارب .

٣ ـ منع القانون الدولي الإجهاز على الجرحى وتعذيب العدو والفتك به غيلة .

٤ ـ قرر القانون الدولي قواعد في حسن معاملة الأسرى وعدم مسهم بأذى .

الجهاد لله وحده ، فما ذكر الجهاد إلا وذكر مقروناً بكلمة « في سبيل الله » . « ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله » .

وصفوة القول : استخدم الإسلام السيف ضد الملوك أنصاف الآلهة[٤٤] لا ضد الشعوب ، استخدم المسلمون السيف للوصول إلى الشعوب وتحطيم المعيقات

---

(٤٢) الشرع الدولي في الإسلام ، د . نجيب الأرمنازي .

(٤٣) انظر الآية الكريمة ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ ﴾ وانظر ماقبلها وما بعدها في سورة الأنفال ، الآية : ٥٨/٥٦ .
وانظر قولة تعالى في سورة التوبة : ﴿ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ... ﴾ وراجع تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٣٣٢/٣٣١ ، وتفسير في ظلال القرآن ، المجلد ٤ ، ص ١١٥ وما بعدها ...

(٤٤) ادعى ملوك فارس أن دماً إلهياً في عروقهم ، أو في طبيعتهم عناصر عُلويّة مقدّسة . مقارنة الأديان ، ج ٣ ، ص ٣١ ، د . أحمد شلبي .

والعقبات الحائلة دون ذلك ، لا لفرض الإسلام عليها . بل (إن الإسلام يجعل الاعتقاد ثمرة الإرادة الحرة) . بل لإنارة درب الاعتقاد بتحرير الإرادة .

وعلى هذا ، فهل يعتبر عدواناً الهجوم على الحكومات الظالمة التي تسلطت وأعماها الجبروت ، وقمع حكامها الحريات ، وفرضوا الضرائب المرهقة[٤٥] وفرضوا المذاهب جبراً ... هل الهجوم على الحكومات عدوانا ؟ إن العقل السليم يفرض تخليص الشعوب وتحريرها ، ولهذا دخل الإسلام إلى بلاد شعوب مستعبدة ليرفعها إلى الانسانية الحقة وسيُعْجَب أبناءُ هذه الشعوب بالدين الجديد ، فإذا منهم الأُمراء والقواد والعلماء المدافعون عن دين الفاتحين . أصبح الناس مسلمين لما رأوا أخلاق الفاتحين المثالية ، وقدوتهم الحسنة فاعتنقوا الدين الجديد قناعة دون قهر ، وعدلاً ، لا ظلماً وقتلاً .

ومن لا يقنع بهذا الأُسلوب نخاطبه من زاوية أُخرى :

كانت قريش هي البادئة في ظلم المسلمين .

وكان الروم هم البادئين في حمل السلاح ضد المسلمين .

وكذلك الفرس فهم الذين أرادوا رسول الله ﷺ حياً أو ميتاً ، وهم الذين أحدثوا ثورة داخلية في المجتمع العربي عندما شجعوا المرتدين الثائرين بالمال والسلاح[٤٦] .

فمن شرع السيف في وجه الآخر أولاً ؟ ومن المدافع عن نفسه ثانياً ؟!.

ولننظر ـ من ناحية ثانية ـ إلى الأديان الأُخرى ، فهل انتشرت بالاقتناع ؟! هل هذه التهمة الموجهة إلى الإسلام ـ وهو منها بريء ـ لم تكن

---

(٤٥) سنوضّح ذلك بالأرقام والمراجع في بحث (أهل الذمة) .

(٤٦) راجع تاريخ العرب السياسي والحضاري في العصرين القديم والوسيط ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

موجودة حقاً في الأديان الأخرى ؟ أم أنهم اتهمونا بها لـدفعهـا عن أنفسهم فوقعوا في « الإسقاط » كما يقول علم النفس ، والإسقاط من وسائل الدفـاع الأوليـة ، ألا وهو اتهام الآخرين بما فينا ، كالكاذب يتهم الناس بالكذب ليظهر نفسه صادقاً

وإليك ـ سيادة القاضي ـ كيف انتشرت تلـك الأديـان الأُخرى بطرق ليست خافية على المطلعين :

١ ـ فرض « امنحتب » فرعون مصر على شعبـه عبـادة إلـه الشمس « آتون » . وأغلق معابد الآلهـة الأُخرى وحطَّم تماثيلهـا ومحـا صورهـا وطمس أسماءهـا ، وكل مخالف تعرض للاضطهاد والعذاب[٤٧]

٢ ـ كانت البوذية : لا شـأن لهـا قبل « آزوكا » الـذي اعتنقهـا واهتم بنشرهـا خارج مملكته حتى وصل سيلان وبورما . فآزوكا تبناها وأخـذ بنشرهـا حتى شملت جنوب شرق آسيا[٤٨]

٣ ـ وكذلك المزدكية : لم يكن لها اعتبار قبل « قبـاذ » فهـذا الملـك الفـارسي تبنى هذه العقيدة وحاول فرضها جبراً على شعبه كله ، وحتى المناذرة العرب التابعين له في العراق[٤٩] . وبزوال سلطان قباذ ضعف شأن المزدكية .

٤ ـ وأما الزرادشتية : فلم تنتشر قبل دارا كسرى الفرس ، الذي نشرهـا حربـاً بعد قرن من وفاة زرادشت ، حتى وصل بها أثينا عاصمة اليونانيين القدماء .

٥ ـ الكونفوشيوسيـة : مـا انتشرت تعـاليمهـا إلا لاستخـدام صـاحبهـا لمركزه رئيساً للوزراء في مقاطعة « لو » الصينية .

---

(٤٧) راجع تاريخ الشرق الأدنى القديم لعبد العزيز عثمان ، القسم المختص بتاريخ مصر القديم .

(٤٨) راجع تاريخ الحضارة لجورج حداد .

(٤٩) تاريخ الأمم الإسلامية للحصري ، الجزء الأول ، وراجع الشهرستاني في الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٨٨

٦ ـ وأخيراً المسيحية : فإنها لم تكن لتنتشر لولا سلطة قسطنطين الذي أراد أن يكون سيدها فاستغل الخلافات الداخلية للكنيسة ، وأصدر مرسوم ميلانو عام ٣١٣ م ، الذي اعترف بموجبه بالمسيحية ، وأهال عليها أُعْطِيَاته .

وأما شارلمان فقد كان متحمساً للمسيحية ، يؤمن أن من واجبه تحويل جيرانه إلى المسيحية ، ولم يؤمن بالحجة وضرب الأمثال طرقاً للهداية ، بل كان يفضل طريق القوة(٥٠) ، فقد ظل يحارب السكسونيين ثلاثاً وثلاثين سنة ، كلها عنف ووحشية ، حتى أخضعهم وَحَوَّلهم قسراً إلى الديانة المسيحية ، كما تطلب ثماني رحلات حسوماً متتابعة ،حتى هدم الآفاريين ، الذين قيل عن أسلاب كنوزهم المكدسة أنها رفعت شارلمان من عالي الغنى والثروة إلى شاهق الفيض والوفرة(٥١) .

وفي مصدر آخر : فرض شارلمان على السكسونيين الوثنيين النصرانية بالسيف ، ولما ضعف السكسونيون بعد معارك كثيرة وحروب عديدة ، اعتنقوا المسيحية آخر الأمر وخضعوا لحكم الفرنجة(٥٢) وكان فرض هذا الدين على السكسونيين على يد القديس ليودجر Liudger وويليهاد Willehad(٥٣) .

أ ـ ويقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » :

« ولقد أُكْرِهَتْ مِصْرُ على انتحال النصرانية ، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي ، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك

---

(٥٠) راجع العدد الثامن من موسوعة « المعرفة » التي تنشرها شركة ترديسكيم « جنيف » ، ص ١٢٢/١٢٣ ، والتي صدرت بالعربية ٢٠ أيار ١٩٧١ .

(٥١) تاريخ أوربا العصور الوسطى ، تأليف : هـ . ا . ل . فيشر ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٥٢) Enhardi Fuldensis Annales وكتاب : Monumenta Germaniae Historica . G . H . Pextr

(٥٣) الدعوة إلى الإسلام : ص ٣٠ و « الأبطال » لتوماس كارليل ص ٧٦ .

الزمن ، وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات ، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم ، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين »[٥٤] .

ب ـ وفي الدنمارك : نشر الملك « كنوت Cnut » المسيحية في ممتلكاته بالقوة والارهاب ، « ومن ثَمَّ أخضع الأُمم المغلوبة على أمرها للقانون المسيحي بعد أن اشتبك مع الممالك المتبربرة في حروب طاحنة مدفوعاً بما كان يضطرم في نفسه من الشوق إلى نشر العقيدة »[٥٥] .

ج ـ وفي روسية : نشرت الدعوة المسيحية على يد جماعة اسمها ، تمعن أيها القاضي الجليل في اسمها ، إن اسمها : « إخوان السيف »[٥٦] .

وفي مصدر آخر : « أما كيف كان دخول المسيحية روسية ، فيبدو أولا أنه تم على يد فلاديمير دوق كييف « ٩٨٥ ـ ١٠١٥ م » وهو سليل رورك ، ويضرب به المثل في الوحشية والشهوانية ، اذ جاء إلى الدوقية فوق جثة آخر إخوته ، واقتنى من النسوة ثلاثة آلاف وخمسمائة[٥٧] . على أن هذا وذاك كله لم يمنع من تسجيله قديساً في عداد القديسين بالكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية ، لأنه الرجل الذي جعل من كييف مدينة مسيحية ، وجعل من الروسيين شعباً على دين المسيح ، « زعيم بغفران ذنوبه »[٥٨] . وقد أمر فلاديمير بتعميد أهل دوقية روسيا كلهم مرة

---

(٥٤) « حضارة العرب » ص ٣٣٦ ، الفصل الرابع « العرب في مصر » .

(٥٥) الدعوة إلى الإسلام : ص ٣٠ « حاشية الصفحة » . . (156 - PP . 159) I . P . 349

(٥٦) الدعوة إلى الإسلام : ص ٣١ واسمهم بالأجنبية Bretheren of the sword

(٥٧) راجع : (Camb . Med . Hist . IV . P . 208) حيث ورد أن عدد أولئك النسوة اللائي اختارهن فلاديمير لنفسه ، بالإضافة إلى خمس زوجات شرعيات ، لم يكن سوى ثمانمائة ، وهو أقرب إلى الاعتدال .

(٥٨) تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، هـ . ا . ل . فيشر ، ص ٤٠٥ .

واحدة في مياه نهر « الدنيبر »[٥٩] .

د ـ « فرض فرسان : Ordo Fratrum Militiae Christ المسيحية على شعوب ليفونيا فرضاً »[٦٠] .

ويقول توماس أرنولد عن هذه المنطقة : وربما حل الاضطهاد والتغيير الإجباري محل الدعوة الهادئة إلى « كلمة الله »[٦١] .

هـ ـ في « النروج » : قام الملك (أولاف ترايجفيسون) بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية ، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم أو بنفيهم وتشريدهم ، وبهذه الوسائل نشر المسيحية في « فيكن » ـ القسم الجنوبي من النرويج ـ بأسرها[٦٢] .

و ـ جاء في « كتاب صلاح الدين الأيوبي » قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر لقدري قلعجي ما يلي : « تمَلّ باسيليوس الثاني ناشر النصرانية في روسيا أعين (١٥ ألف) من أسرى البلغار إلاّ مائة وخمسين منهم ، أبقى لكل واحد منهم عيناً واحدة ليقودوا إخوانهم في عودتهم لبلادهم » .

ز ـ بعد أن استعرض الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الاضطهاد الذي رافق انتشار المسيحية في عهد شارلمان ومذابحه للساكسون والنورمانديين وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولتهم نشر المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من

---

(٥٩) تاريخ أوربا في العصور الوسطى . هـ . ا . ل . فيشر ، ص ٤٠٧ .

(٦٠) الدعوة إلى الإسلام ، توماس ارنولد ، ص ٣١ .

(٦١) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣١ وفي المرجع ذاته ص ٢٢٣ : « وظل الإسلام قائماً بين الباشغردية من أهل المجر حتى سنة ١٣٤٠ م ، حيث أرغم الملك شارل روبرت جميع رعاياه والذين لم يكونوا مسيحيين بعد ، أن يعتنقوا الدين المسيحي أو يغادروا البلاد » .

(٦٢) الدعوة إلى الإسلام : ص : ٣٢ .

الشعوب السلافية ، بعد هذا كله أتى إلى ما صنعه المبشرون الجوزيت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند[٦٣] التي لاقت منهم الأهوال .

ح ـ لم تكن الكشوف الجغرافية التي قامت بها أوربة خالصة للحضارة والمدنية ، فمثلاً :

« لقد أراد ليفنغستون أن يستكشف طرقاً في أفريقية للمبشرين لا للمدنية »[٦٤] ولما مات في أفريقيا ، دفن زملاؤه قلبه تحت الشجرة التي مات تحتها ، أما الجسد فهو مدفون في دير وستمنستر بلندن .

لقد ارتكب المبشرون الذين رافقوا رحلات الكشوف الجغرافية أبشع الأعمال التي لا تليق بالإنسان وإن « فاسكودي غاما » مكتشف طريق الهند كان مبشراً .

ماذا عمل المكتشفون المسيحيون بشعب أمريكة الأصلي « الهنود الحمر » ؟ كان الجواب ببساطة إنه حملة إبادة .

وهكذا كان نصيب حضارة « الأنتيل » وحضارة « الماياس » في جنوب المكسيك وحضارة الآزتيك في وسطها ، وحضارة الآنكا في بيرو[٦٥] .

وهذا مثال حيٌّ على ما رافق الكشوفات الجغرافية :

نشرت جريدة الحياة البيروتية صورة لما رافق استكشاف جزيرة « هايتي » على يد الاسبان كانت المادة العلمية تحتها ما يلي : « وانشغل ضباطه وخلفاؤه أول الأمر ـ خلفاء المستكشف قائد الحملة ـ باستكشاف جزيرة هايتي (اسبانيولا) واحتلالها ، وكانت ما تزال في داخلها أرض شاسعة مجهولة وقد تولى هذه المهمة كل

---

(٦٣) « الحركة الصليبية » ، ج ١ ، ص ٣٠ ، ط ١ سنة ١٩٦٣ تأليف د . سعيد عاشور .

(٦٤) « التبشير والاستعمار » ، ص ٥١ . د . خالدي / د . فروخ .

(٦٥) « تاريخ العصور الحديثة » ص ٦٩ .

من ديبغو فلاسكيز وبانفيلو دو نارفيز ، فأبديا من ضروب الوحشية ما لم يسبق لـه مثيل ، متفننين في تعـذيب سكان الجـزيرة بقطـع أنـاملهم وفـقء عيـونهم ، وصب الزيت المغلي ، والرصاص المـذاب في جراحهم ، أو بـإحراقهم أحيـاء على مرأى من الأسرى ... ليعترفوا بمخابئ الذهب ، أو ليهتدوا إلى الدين(٦٦) .

وقد حاول أحد الرهبان اقناع الزعيم « هانيهاي » بـاعتنـاق الـدين ... وكان مربوطاً إلى المِحْرَقَة ، فقال له : إنـه إذا تعمـد يـذهب إلى الجنـة ... فسـألـه الزعيم الهندي : « وهل في الجنـة اسبـانيون ؟ » فـأجـابـه الراهب : « طبعـاً ، مـا داموا يعبدون الإله الحق ! » فما كان من الهندي إلا أن قال : إذن ، أنا لا أريد أن أذهب إلى مكان أصادف فيه أبناء هذه الأمة المتوحشة ! »(٦٧) .

ليس هذا بمعلوم لنـا فقـط ، فقـد نشرت CUBA internacional Joulio 1972. تحت عنـوان LA HISTORIY الصفحـة : ٦ ، صـورة لمبشر بيـده صليب وزعيم إلى سـاريـة وقـد غطى حتى منتصفـه بحـزم الحطب والقش لحرقـه ، أمـا المبشر فرافـع الصليب في وجهه يدعوه إلى المسيحية قبل موته .

ط ـ الحروب الصليبيـة : التي حملت الصليب شعـاراً فظـائعهـا لاتعـد ، وانتهاكها للمفهوم البشري كان في كل أرض مروا بها ، حتى في بلاد أبنـاء دينهم(٦٨) . من فظائعهم :

« وعنـدمـا احتمى بعض أهـالي قيسـاريـة بجـامع المـدينـة لاحقهم الصليبيون

---

(٦٦) أين هـذا من انتشار الإسـلام ! وأين هـذا من وصيـة الصـديـق لجيـوش الفـاتحين قليـل من الإنصاف .

(٦٧) (الحياة) : السنة ٩ ، العدد : ٢٤٩٤ ، الأربعاء ٢٣ حزيران ١٩٥٤ « النص من كتاب لتبشير والاستعمار ص ١٢٣ » .

(٦٨) أفضل مرجع للحروب الصليبيـة مع تحليل عميـق سلم عليهـا كتـاب : « الحركـة الصليبيـة » للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم دون أن يفرقوا بين الرجال والنساء والأطفال حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين »[٦٩] .

مذبحة بيت المقدس عام ١٠٩٩ م كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، باعتراف المؤرخين الأوربيين[٧٠]

أحرق بلدوين جامع الفرما ومساجدها[٧١] . ويقول لوبون : « في مسجد عمر وحده في القدس ذبح عشرة آلاف مسلم »[٧٢]

يذكر ابن العديم عن إحدى الحملات الصليبية : إن الصليبيين أتوا في تلك الغزوة مساوئ كثيرة « فنبشوا قبور موتى المسلمين وأخذوا توابيتهم إلى الخيم وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، وآخر يقول : هذا عَلِيُّكم ، وأخذوا مصحفاً من المشاهد بظاهر حلب ، وقالوا : يا مسلم أبصر كتابكم »[٧٣] .

ارتكب قواد الحملات (وخاصة لويس السابع وزوجته إليانور وريموند دي بواتيه) فضائح جنسية مشينة[٧٤] . هذا ... فضلاً على أن المؤرخين الأوربيين وصفوا الحملات كلها بكلمتين فقط : (بربرية همجية)[٧٥] .

---

(٦٩) الحركة الصليبية : ص ٢٩٤ ، جـ ١ .

(٧٠) Greusset: Hist. des Croisades, 1, p. 161.

Runciman: op. cit, 1, p. 287.

(٧١) الحركة الصليبية : جـ ١ ص ٣٢٩ .

(٧٢) حضارة العرب : ص ٣٢٦ .

(٧٣) الحركة الصليبية : جـ ١ ص ٥٢٤ ، عن : ابن العديم زبدة الحلب : ص ٦٤٥ والنص منقول حرفياً كما هو .

(٧٤) الحركة الصليبية : جـ ٢ ص ٦٣٠ ، عن رونسمان .

(٧٥) الحركة الصليبية عن : Eyre: op. cit. pp. 197-8

وكيف لا تكون كذلك وهي صفحة سوداء في تاريخ أوربة كلها . ألم يضع الرهبان على الصخرة المشرفة زجاجات الخمر ؟ ألم يضرب الناقوس داخل المسجد الأقصى بعد إبطال الأذان به[٧٦] ؟ . أهكذا تحترم العقائد والمعابد ؟ فأين هذا من وصية الصديق رضي الله عنه إلى جيش أسامة بن زيد التي أكد فيها بأنه على المسلمين أن يدعوا الرهبان ممن فرغوا أنفسهم في الصوامع وما فرغوا أنفسهم له ؟[٧٧] .

بعد استعراض « محاكم التفتيش » في إسبانية وأعمالها المخجلة المزرية ، قال د . لوبون : « الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من ١٤٠,٠٠٠ مهاجر مسلم ، حينما كانت متجهة إلى أفريقية[٧٨] » .

وبعد أن ذكر لوبون في « حضارة العرب » خسارة ثلاثة ملايين مسلم بين ذبح وحرق وتهجير في إسبانية قال : « ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين ـ الإسبان ـ من يُؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين »[٧٩] .

ي ـ وأخيراً ... فإن الحديث في تاريخ الكنيسة بهذه الأعمال حديث يطول ، ونجمله بحملات التبشير وهي : « أشد ضرراً على بلادنا من الاستعمار ، لأن الاستعمار لم ينفذ إلى بلادنا إلاّ تحت ستار التبشير »[٨٠] .

---

(٧٦) راجع وصية الصديق في آداب الجهاد ، وانظر عهد عمر لأهل إيليا .
(٧٧) الحركة الصليبية عن « العيني » عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤١ هـ .
(٧٨) صفحة ٢٧٠ و ٢٧١ حضارة العرب .
(٧٩) صفحة ٢٧٢ حضارة العرب .
(٨٠) التبشير والاستعمار : ص ٧ .

وعلى ذلـك فـإن ضمير التبشير مسؤول عن الاستعمار الحـديث بكل جرائمـه وويلاته .

وأما حول انتشار الإسلام ، فإني أعرض عليكم ـ سيادة القاضي ـ شهـادة أوربي منصف لتؤكـد أن الإسلام لم يعرف أبـداً أي وسيلـة ممـا سبـق ذكره عنـد أصحـاب الديانات السابقـة من حب لسفـك الـدمـاء ، وقسوة ووحشيـة في الحروب ، وجبر وفرض للمبدأ بالقوة ...

وقد جاءت هذه الشهادة المنصفـة في كتـاب (الـدعوة إلى الإسلام)[٨١] الـذي ألفه السير تومـاس أرنولـد ، وبحث فيـه تـاريخ نشر العقيـدة الإسلاميـة في أقطـار الأرض . ولننظر الآن ما جاء في هذا الكتـاب معتمـدين على رأيـه وآراء وردت في كتب أخرى ، فنرى ما يلي :

١ ـ **بلاد الشام :** « تحول البـدو المسيحيون إلى الإسلام بـالتسـامح » . دخل الناس في الإسلام عن اقتناع فلماذا ؟ لأن الخليفة عمر عيَّن في كل بلد معلمين مهنتهم أن يعلموا الناس القرآن ويفقهوهم في الدين[٨٢] .

« إن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام ، إنما فعلت ذلك عن اختيـار وإرادة حرة ، وإن العرب المسيحيين الـذين يعيشون في وقتنـا هـذا بين جمـاعـات مسلمة لشاهد على هذا التسامح »[٨٣] .

وفي بلاد الشام حدث ما لا يقبله عقل حاقد جـاحـد ، لكنـه أكاليل غـار في جبين الإسلام وفخر في جبين البشرية إلى الأبد ، وشوكة في عين المكابر المتحيِّز .

---

(٨١) الطبعة الثانية ، عام ١٩٥٧ ، ملتزم الطبع والنشر : مكتبة النهضة العربية .

(٨٢) الـدعـوة إلى الإسـلام : ص ٦٩ / ٧٠ . ولاحـظ تعيين عمر للـدعـاة لنشر الـدعـوة بـالـموعظـة الحسنة .

(٨٣) الدعوة إلى الإسلام : ص ٧٠ .

أي بلـد في العـالم فُتِحَت أراضيـه ، ثم بكى أهـل البـلاد التي فتحت لانسحـاب الفـاتحين كما عمل أهل حمص ؟ قـدموا إلى أبي عبيـدة عـامر بن الجرّاح عنـدمـا قرر المسلمـون الانسحـاب إلى اليرمـوك جنـوبـاً ، وهم يبكـون وقـالـوا : « يـا معشر المسلمين ، أنتم أحب إلينـا من الروم ، وإن كانوا على ديننـا ، أنتم أوفى لنـا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنـا ، وأحسن ولايـة علينـا ، ولكنهم - أي الروم - غلبونـا على أمرنا وعلى منازلنا »(٨٤) وأغلق أهل حمص أبواب مـدينتهم دون جيش هرقل ، فهل قبل سكان حمص بفتح الإسلام بالقهر والسيف ، أم قبلوا بالفاتحين عن قناعة ومحبـة ورضاً ؟

وقال خالد بن الوليـد إلى جرجـة بن تيودور قبيل معركـة اليرموك ، عنـدمـا سأله جرجة : « فمـا منزلـة الـذي يـدخل فيكم ويجيبكم إلى هـذا الأمر اليوم ؟ قـال خـالـد : منزلتنـا واحـدة فيما افترض الله علينـا ، شريفنـا ووضيعنـا ، وأولنـا وآخرنا » .

فمناقشة خالـد وجرجـة توضح أن الغـايـة من الحروب الوصول إلى الشعوب ، فعندما رأت هذه الشعوب أن بيتها كان مهدماً وثيـابهـا ممزقـة ، ورأت قصر الإسلام وعزة ثيابه السليمة النظيفة اختاروا الأفضل .

بالله عليك أيها القاضي الحكيم كيف يمكن أن يقـال أن الإسلام فُرِضَ على بلاد الشام فرضاً ، وأسمى معاني التسامح نراه في عهود عمر إلى سكان مدن الشام ؟ وهـا نحن نختار منها : « هـذا مـا أعطى عبـد الله أمير المؤمنين أهل إيليـا من الأمـان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها وسائر ملتهـا : أنـه لا تسكن كنـائسهم ولا تهـدم ، ولا ينتقص منهـا ولا من خيرهـا ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أمـوالهم ، ولا يكرهـون على دينهم ، ولا يضـار أحـد منهم » .

---

(٨٤) ازدي : ص ٩٧ ، البلاذري : ص ١٣٧ ، الدعوة : ص ٧٣ .

ودليل آخر أن السكان قد رضوا بالإسلام عن قناعة ورضى ، تلك الكتب التي ألفها القديس « يوحنا الدمشقي » ، « وقد عاش في عصر الفتوحات » ، وكلها تدور حول مناقشات بين المسيحية والإسلام ، فهذه المناقشات والمجادلات تعطينا فكرة عن عدم الإكراه وفرض الإسلام بالسيف[(٨٥)] . وكانت صياغة هذه الكتب على شكل حوار : « **وإذا سألك العربيٌّ** » ، « **إذا قال لك العربيٌّ ... فأجبه ..** » .

وكذلك كتب تلميذ القديس يوحنا : « الأُسقف تيودور أبو قرة » الذي كتب بعض المحاورات[(٨٦)] بين العقيدتين . واستمرت هذه المناظرات حتى أيام الرشيد الذي كان يحضر هذه المناظرات التي كان فيها « طيماثاوس »[(٨٧)] و « يوسف مطران مرو » .

فبعد هذا كله ، هل دخل الإسلام إلى بلاد الشام عنوة وبالسيف ؟ أم بعد نقاش ومناظرة سادها جَوٌّ من التسامح الكامل ، انتهى إلى القناعة والإيمان والرضى بالإسلام ؟

إني لأترك الحكم إليك أيها القاضي الحكيم ، أيها العقل الموضوعي ! .

☆ ☆ ☆
☆ ☆
☆

---

(٨٥) راجع كتابنا (اليرموك) لمعرفة النقاش الذي دار بين خالد وجرجه ، ص ٤٥ .

(٨٦) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٠٣ .

(٨٧) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٠٣ .

٢ ـ أفريقية :

وأما حول انتشار الإسلام في أفريقية ، فإني أدعوكم لنقرأ معاً حالة « القبط » سكان مصر معتمدين المراجع الأجنبية ، لكي لا أدع مجالاً للشك في موقف المؤرخين العرب ، أو لمن يرمونهم بتهويل الأمر . وسيظهر كيف عامل الروم سكان مصر وذلك كما ورد في كتاب الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد فهو يقول : « كان القبط في مصر يُعَذّبُ أحدهم ثم يلقى به إلى اليَمِّ »(٨٨) .

وقد كتب في الباب الرابع من كتابه فصلاً عن انتشار الإسلام بين مسيحيي أفريقية جعل عنوانه « فتح مصر على أيدي العرب ، وترحيب القبط بهم لإنقاذهم من الحكم البيزنطي » ومما جاء تحت هذا العنوان :

« ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب ، قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي ، لما عُرف به من الإدارة الظالمة ، ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت »(٨٩) .

فماذا قدم الفتح الإسلامي لهم لتغيير حالتهم تلك ؟...

١ ـ لقد خلَّصهم من الضرائب العالية المرهقة ، ولم يأخذ منهم إلا العشر مما كان يأخذه الروم .

٢ ـ وضمن لهم الحرية الدينية المطلقة ، وقد اعترف « أرنولد » بأن الفتح الإسلامي قد جلب للقبط : (حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك)(٩٠) .

---

(٨٨) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٢٣ .

(٨٩) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٢٣ .

(٩٠) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٢٣ ، وسويرس : ص ١٠٦ و : Renaudot, p. 161

ومن اعترافه أيضاً قوله : كفل ـ عمرو بن العاص ـ الحرية في إقامة الشعائر الدينية وخلّصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أنّوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني ، ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب[٩١] .

« وليس هنالك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى الاضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين »[٩٢] « بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح »[٩٣] .

وبعد أيها القاضي الحكيم : فمن الذي يقبل القول أن سكان شمال أفريقية دخلوا في الإسلام بحد السيف والصوارم الرّعف ؟ .

☆ ☆ ☆

٣ ـ إسبانية :

« أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد في الأيام الأُولى التي أعقبت الفتح العربي الإسلامي ، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئاً ، وفي الحق أن سياسية التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون **نحو الديانة المسيحية ، كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد »[٩٤]** . كما ذكر « دوزي Dozy » تسامح العرب في إسبانية مظهراً

---

(٩١) يوحنا أُسقف نقيوس اليعقوبي (عاش في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي) . ص ٥٨٤ . و : Caetani, vol. iv, pp. 515/516

(٩٢) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٢٤ ، وذلك عن : Weltgeschichte, vol. v, p. 153, And: Bell

(٩٣) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٢٤ ، والمرجع الأُوربي السابق .

(٩٤) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٥٧ ، عن : Helfferich, p. 82

رحمة الفاتحين ، ويسر الضرائب التي فرضت والتي كانوا يدفعون أضعافها مضاعفة[٩٥] .

ويقول شاهد عيان وهو (John of Gorz) الذي زار إسبانية حول منتصف القرن العاشر : « ويستخدم المسيحيون الذين كانوا إبان حكمه - حكم الإسلام - الأماكن المقدسة وأملاكهم بحريّة »[٩٦] .

وقال آخر : « **ولم يتعرض لهم المسلمون في إقامة شعائرهم الدينية** »[٩٧] .

وقال آخر عن المسيحيين : « كانوا يحاكمون أمام قضائهم وفقاً للقوانين المعمول بها في بلادهم »[٩٨] .

وفي معرض الحديث عن حكم العرب لإسبانية ورد في (المعرفة) : « إن حكمهم لإسبانية اتسم بالحكمة ، ولم يكرهوا الناس على الدخول في دينهم ، اكتفاء بدفع الجزية ، وغدت إسبانية في عهود حكمهم تنعم بأوفى قسط من الرخاء والرفاهية »[٩٩] .

وإذا أردت أن أعرض عشرات الآراء الأخرى التي توضح أن دخول إسبانية في الإسلام كان بمحض إرادتها ، فإن الحديث ليطول بنا ، ولكن أعرض رأياً أخيراً .

« وقد بلغ تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحوّلوا إليه من مسيحي إسبانية مبلغاً كبيراً ، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة ، واستهوى أفئدتهم بشعره

---

(٩٥) الدعوة إلى الإسلام : ١٥٧ ، عن : Dozy (2): tom, ii, p. 39

(٩٦) John of Gorz. p. 352, 124

(٩٧) Eulogiu, Men, Sanct. lib, i. 30

(٩٨) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٥٨ ، عن : Baudissin. pp. 11-13, 196

(٩٩) موسوعة المعرفة : جـ ٤٣ ص ٦٨٤ . الطبعة العربية .

وفلسفته وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم »[١٠٠] .

هذا ... ولما خرج العرب المسلمون من إسبانية في ٢ كانون الثاني سنة ١٤٩٢ م « كان الأهالي المساكين لا يزالون يتمسكون بدين آبائهم ، مع أنهم أرغموا على إظهار تدينهم بالمسيحية أكثر من قرن »[١٠١] ، ثم خرج هؤلاء إلى الطرف الآخر من البحر ، إلى المغرب ، فارّين بدينهم .

فهل دخلت إسبانية في الإسلام بالإكراه وحد السيف ؟

☆ ☆ ☆

٤ ـ أوربة الشرقية :

بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م : انطلق العثمانيون في أوربة الشرقية ، فهل دخلت مناطق البلقان ويوغسلافيا وألبانيا ... في الإسلام بقوة السيف ؟

لنرى ماذا عمل فاتح القسطنطينية بعد سقوطها بيده مباشرة ، مكتفين بما جاء في كتاب توماس أرنولد .

« ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني ـ الفاتح ـ بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها ، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية . فحرّم اضطهاد المسيحيين تحريماً قاطعاً ، ومنح البطريق الجديد مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرؤوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق ، وقد تسلّم جنّاديوس ، أوّل بطريق بعد الفتح التركي ، من يد السلطان نفسه ، عصا

---

(١٠٠) الدعوة إلى الإسلام ص ١٦٤ .

(١٠١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٦٨ ، عن : Lea, The Moriscos, p. 259.

الأسقفيــة التي كانت رمـز هــذا المنصب ، ومعهــا كيس يحتــوي على ألف دوكــة ذهبية »[١٠٢] .

لم يتدخل الفاتحون في أمور الكنيسة « بعكس السلطة المدنية التي كانت مخولة للدولة البيزنطية »[١٠٣] .

سمح لهم بالاحتفال بطقوسهم الدينية تبعاً لعاداتهم القومية[١٠٤] .

لقي الفاتحون « في بقاع كثيرة من المملكة ـ البيزنطيـة ـ ترحيبـاً من جـانب الإغريق ، فقد اعتبروهم مُخَلّصين لهم من الحكم الظالم المستبـد ، حكم الفرنجـة وأهل البندقية ... فقد صيروا (أي الفرنجة) الشعب في حالة من العبوديـة يرثى لهـا[١٠٥] ، وجاء الفتح طبعاً لتخليصهم من هذه العبودية .

ووضّح كثير من المؤرخين حالـة دولـة بيزنطـة قبل الفتح كقولهم : « إن أيَّـة دولة لا تخـاف القـانون تشبـه فرسـاً من غير زمـام ، لقـد سمح قسطنطين وأسلافـه لأكابر دولته بـأن يستبـدوا بـالشعب ، فلم تعـد في محـاكمهم عـدالـة ، ولا في قلوبهم شجاعة ، وجمع القضاة الثروات من دموع الأبرياء ودمائهم ... »[١٠٦] .

ولكن الفاتحين بعد هذه الصورة القاتمة : « استطـاعوا بفضل الإدارة الحـازمـة الصارمة أن ينشروا الأمن والنظام في المقاطعات كلها ، ووجـدنـا تنظيمـاً رائعـاً في الشؤون المدنيـة والقضـائيـة »[١٠٧] . وهم أي الأتراك المسلمون **لم يرغموا أحـداً على ترك دينه**[١٠٨] .

---

(١٠٢) الدعوة إلى الإسلام ص ١٧٠ ـ ١٧١ : Phrantzes, pp 305-6

(١٠٣) الدعوة إلى الإسلام ص ١٧١ .

(١٠٤) الدعوة إلى الإسلام ص ١٧١ ، عن : Finaly, vol iii p 522

(١٠٥) الدعوة إلى الإسلام ص ١٧٢ ، عن رحالة معاصر لفترة الفتح وهو :

The Travels of Martin Baumgarten, p 373

(١٠٦) الدعوة إلى الإسلام ص ١٧٣ .

(١٠٧) الدعوة إلى الإسلام ص ١٧٤.

(١٠٨) Turcicae Spurcitiae Sugillatio Fol xvii

« رأى الأتراك أن أعظم خير يستطيعون تقديمه لأي فرد ، هو أن يهدوه إلى دين الإسلام »[١٠٩] ويقول أرنولد : « وفي سبيل هذه الغاية لم يدعوا وسيلة للإغراء إلا فعلوها[١١٠] . ثم يقول في صفحة أخرى : « **تقبلوا بصدر رحب تعاليم الإسلام الواضحة المفهومة التي تقوم على الوحدانية »**[١١١] **ثم** : « وقد انتهت إلينا الأخبار[١١٢] عن طوائف كبيرة من الناس أسلموا ولم يكونوا من بسطاء عامتهم فحسب ، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم »[١١٣].

لماذا دخل هؤلاء في الإسلام ؟

« **أصبح الدين الإسلامي في ذلك الحين الملجأ الطبيعي لأفراد الكنيسة الشرقية »**[١١٤]. وذلك بسبب خلافاتها الداخلية والقسوة والعنف التي سبقت الفتح الإسلامي الذي لاقاه الشعب من هرطقه هذه العقيدة ، وبعد أيضاً ، فهل ترى أيها القاضي الحكيم أن أوربة الشرقية دخلت الإسلام عنوة وبالسيف ؟

ومما يذكر أن حرباً وقعت بين الأتراك والمجريين ، فبحث جورج برانكوفتش عن جون هينادي وسأله : « ماذا تصنع لو انتصرت ؟ » فأجاب : « أؤسس العقيدة الرومانية الكاثوليكية » ، ثم بحث عن السلطان وسأله : « ماذا تصنع

---

(١٠٩) Scheffler, 51, 53.

(١١٠) الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٤ .

(١١١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٦ .

(١١٢) من كتاب عاش مؤلفه عام ١٤٥٨ م : « المرجع في البند ٣ » .. Turchiciae

(١١٣) الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٦ .

(١١٤) الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٧ .

لديننا لو انتصرت ؟ » فأجاب : « أُقيم كنيسة إلى جانب كل مسجد ، وأدع مطلق الحريَّة لكل فرد في أن يصلي في أيها شاء »[١١٥] !!

٥ ـ في بلاد فارس وما وراء النهر :

وحول انتشار الإسلام في بلاد فارس وما وراء النهر ، فقد وضَّح توماس أرنولد ظروف انتشاره في المنطقة ، وذلك في مقدمة الباب السابع في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » ، ولكنه سبق ذلك بوصف لمظالم الدولة الساسانية في شعبها ، واستبدادها الذي امتاز بضروب الفوضى والعنت ، فصار الشعب يكره ويمقت حكامه ، وخاصة عندما تبنت الدولة الديانة الزرادشتية ، وسمحت لكهنة هذه الديانة بالسيطرة حتى على بعض الأُمور المدنية ، **وظهر الفتح الإسلامي كمخلص للشعب من حكم الساسانيين وذلك باعتراف « غيتاني »**[١١٦].

لذلك لا غرابة أن يعترف أكثر من مستشرق : (أن سكان المدن وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة قد رحبوا بالدين الإسلامي ، واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة)[١١٧].

وشهد آخرون أنه : (لم تكن القوة والعنف السبب في اتساع نطاق التحول إلى الإسلام ، بدليل هذه المعاملة التي عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بدينه القديم)[١١٨].

ونظراً لما سبق ، فإنه من المستحيل قبول رأي المتحاملين بأن اضمحلال ديانة

---

(١١٥) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٢٣ ، عن :
Enrique Dupuy de Lome: Los Eschavos y. Turqufa, pp. 17-18 «Madrid, 1877».

(١١٦) Caitani, vol. ii, pp. 910-911.

(١١٧) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٧ ، عن : De Gobineau (2), pp. 306-316.

(١١٨) Dosabhai Framji: History of Paris, vol. i. pp. 56-59.

زرادشت في فارس وتحول الناس عنها إلى الإسلام كان بـالقوة أو : (كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الإسلام)[١١٩].

أما ما وراء النهر :

بدأ الإسلام ينتشر هناك عندما وصل قتيبة بن مسلم الباهلي[١٢٠] إلى المنطقة ، « لما وفد قتيبة بن مسلم على سمرقند ، وجد هنـاك كثيراً من الأصنـام كان عبـدتهـا يعتقدون أن كل من أثار حنقها تعرض للموت ، على أن الفـاتح المسلم لم يـأبـه لهـذه المخاوف التي أثارتها تلك الخرافات ، ومن ثم لم يحجم عن إحراق الأصنـام ، وكان من أثر ذلك العمل أن دان بالإسلام عدد كبير من الناس »[١٢١].

والتاريخ يشهد أن المسلمين قد بثوا الدعاة في المنطقـة كما حـدث أيـام عمر بن عبـد العـزيـز[١٢٢] « فقـد استجـاب بعض الأهلين إلى دعـوة عمر الثـاني للتـديـن بالإسلام »[١٢٣] « وتحول عدد كبير منهم على يـد أبي صيـدا الـذي أخـذ في نشر هـذه الدعوة بسمرقند في عهد هشام الثاني »[١٢٤].

ودخل السلاجقـة الأتراك في دين الإسلام دون عنف أو قتـال ، بـل بمجـاورة المسلمين في منطقة تركستان ، وبث الدعاة منهم وبإعجابهم بسيـادة الأمن والنظـام فيما بين المسلمين وذلـك خـلال القرنين العـاشر والحـادي عشر ، وذلـك بعـد أن أسلم

---

(١١٩) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٩ .

(١٢٠) هو القائد المسلم الذي ولاه الحجـاج بن يوسف الثقفي سنـة (٨٦ هـ) على خراسـان ، وجعل له أمر فتوح منطقة ما وراء النهر ، ففتح « بلخ » و « بيكند » و « مرو » و « بخارى » ...

(١٢١) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٤٣ ، البلاذري ص ٤٢١ .

(١٢٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٤٣ ، الترشخي ص ٤٦ .

(١٢٣) عمر الأول هو سيدنا عمر بن الخطـاب وعمر الثـاني هو عمر بن عبـد العزيز (الخليفـة الراشـد الخامس) .

(١٢٤) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٤٣ ، الطبري : جـ ٢ ص ١٥٠٧ وما يليها .

سلجوق مع قبيلته : (من بلاد تركستان إلى بخارى حيث دان هو وأتباعه بالإسلام وأصبحوا من المتحمسين له)[١٢٥].

فهل دخلت بلاد فارس وما وراء النهر في الإسلام بالسيف أم عن اقتناع وإعجاب ومسالمة وأمن ومحبة فأخلصوا لهذا الدين عن صدق ومحبة خارقة جادّة ؟

ومما هو جدير بالذكر ، أن هذه المنطقة قدمت للدين الجديد والحضارة العربية الإسلامية خدمة لا تقدر ، فلقد أخلص أبناء هذه المنطقة لدين الفاتحين ولغتهم وأحاديث رسول الله ﷺ ولعلوم الحضارة الجديدة ، فهل نقبل أن من يقوم بمثل هذه الخدمة قد دخل مكرهاً في الإسلام ؟ لو دخل مكرهاً لاستعمل عقله وفكره وقلمه ودواته لتخريب عقيدة الفاتحين ومحاربتها ، ولكنهم كرّسوا أنفسهم مخلصين لخدمة الحضارة الإسلامية فأفنوا حياتهم وهم في كل لحظة حريصون على أن يخدموا علوم الإسلام في كل مجالاتهم ، فبرز من الأسماء الكثير ، أسماء تحمل أسماء المدن في هذه المنطقة مثل : الطبري « المؤرخ والمفسر المشهور » ، ابن خرداذبة « الجغرافي المعروف » . الشهرستاني « صاحب الملل والنحل » ، البخاري « المحدّث الكبير » ، وعشرات غيرهم من العلماء في كل الميادين العلمية مثل : أبو علي الحسين بن سينا[١٢٦] ، أبو بكر الرازي ، أبو حنيفة الدينوري ، أبو الريحان البيروني ، محمد بن موسى الخوارزمي ، أبو الوفاء البوزنجاني ...

فهل خدم هؤلاء الحضارة العربية الإسلامية عن إكراه أم عن قناعة وإعجاب ، ثم عن تعلق وافتداء ؟

☆ ☆ ☆

---

(١٢٥) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٤٦ عن : Raverty, p. 117.

(١٢٦) ولد في قرية « أفشنة » قرب بخارى وذلك عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٠ م وتوفي عام ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م .

٦ ـ المغول والتتر :

جاءت موجات هؤلاء من الشرق فاندحرت جيوش المسلمين أمام أمواج مدهم الكبير ، ولم ينزل من الخطوب والويلات مثل ما نزل من جراء وحشية المغول الذين اكتسحوا كل مدنية وثقافة وداسوها ، تاركينها وراءهم صحراء خالية وأطلالاً دارسة ، « ففي بخارى اتخذ المغول من مساجدها المقدسة اصطبلات لخيولهم[١٢٧] ومزّقوا المصاحف ووطئوها بدوابهم » وكذلك في سمرقند وبلخ « وغيرها من مدن آسية الوسطى التي كانت من قبل فخر الحضارة الإسلامية ، ومواطن الأولياء وكعبة العلوم ، كما كان ذلك أيضاً مصير بغداد » .

وابن الأثير أخذته القشعريرة حين أراد وصف غارات المغول ، حيث يقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم إليه « رجلاً » وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا « ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً »[١٢٨] .

وتكفينا هذه الفكرة عن المصيبة التي حلت بالحضارة الإنسانية ، وخاصة بإغراق كتب مكتبة « دار الحكمة » ـ التي أسَّسها هارون الرشيد وآتت أُكلها أيام المأمون ـ في نهر دجلة ، فبقي أياماً يجري ومياهه سوداء من لون الحبر الأسود .

وهكذا إن الحضارة قد تأخرت قروناً بسبب ضياع علوم هذه المكتبة الإسلامية الفريدة من نوعها .

أمام هذا الانكسار العسكري أمام المغول الذين اكتسحوا العالم من الصين حتى

---

(١٢٧) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٤٩ .

(١٢٨) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : جـ ١٢ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ وذلك في حوادث سنة ٦١٧ هـ ، والآية هي : ١٩ / ٢٣ .

فلسطين ، كان لا بدّ من إثبات أن الإسلام ليس كغيره من المبادئ التي ظهرت في هذا العالم ، فأمام عظمته الذاتية ، وبتحرك غريب ، لا ندري كيف كان الله عز وجل يكتب له النصر !

لقد كان لا بدّ للإسلام أن ينهض من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده التالد ، في كل مرة وبطريقة جديدة . فاستطاع بدعاته أن يغزو قلوب أولئك الفاتحين المتبربرين ، وقام صراع غريب وتنافس كبير بين الأديان لاجتذاب هؤلاء الوثنيين البرابرة (على حد قول أرنولد) ، « تلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة »[١٢٩].

فبالدعاة ، وبالدعاة فقط ، وأي دعاة ، دعاة الطرق الصوفية والطريقة النقشبندية بخاصة[١٣٠]، تراجع القوم ، ورجعوا إلى بلادهم يحملون الإسلام إلى أبناء جلدتهم ، جاؤوا ببربرية وقسوة وحصاد للشعوب بلا رحمة ، وآبوا بإنسانية ورحمة ومحبة للعالم أجمع ، حوّلهم الإسلام بدون سيف أو جيش ، إلاَّ سيف الكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة ، التي حمل الدعاة لواءها جيش الدعاة النقشبندي ، فخرقوا القلوب بنور توجهاتهم ، فما أن فتح المغول بلادنا حتى فتح العلماء العاملون قلوبهم ، فملكناهم وملكنا أرضنا التي عادت إلينا .

وهكذا ... انتصر وانتشر الإسلام في وجه السيف .. ولم ينتصر أو ينتشر بحده ..

لقد حول الدعاة المسلمون المغول إلى دعاة مسلمين ، فعادوا بعد أن صار في جيش « بركة خان » كل فارس وسجادة صلاته معه[١٣١] أينما حل الأذان قام للصلاة مجيباً نداء : « حيَّ على الصلاة . حيَّ على الفلاح ... » .

---

(١٢٩) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٩ .

(١٣٠) الدعوة إلى الإسلام ٢٥٩ و ٢٦٦ ـ ٢٧٠ . ووصف أرنولد الطريقة النقشبندية بالقوة والنفوذ في القرن الرابع عشر الميلادي في آسية .

(١٣١) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩ ، ٢٢٦ ـ ٢٧٠ .

وتبع هذا النصر نصر آخر ، ألا وهو دخول الإسلام إلى روسية ليس بـالسيف ، ولكن بفضل مـا يسميـه المؤرخون « **القـوة المعنـويـة التي تميز بهـا المسلمـون أنفسهم** »[١٣٢] وهذه القوة هي قوة الإيمان ، قوة الإيمان بالمبدأ الذي خالـط اللحم والعظم والدم . إنها قوة الإسلام الكامنة في ثنـايـاه ، قوة البقـاء والبقـاء للأفضل ، ويقول « أرنولـد » بصراحـة : « بـدأ الإسـلام يتخلّص تـدريجيـاً من أطـلال مجـده السالف ، ويتخذ مكانه من جديد باعتباره ديناً ذا سيـادة »[١٣٣] . بـدأ هـذا الإسلام رغم « نكبة المغول » في عملية مد عنيفة بين التتر في أواسط آسية وفي روسية .

ودليل قوة الإسـلام المتجـددة التي تعتمـد على القنـاعـة والفكر : أن « نشطت الـدعوة إلى الإسـلام بيـد تتـار القرم بعـد أن صـدر مرسـوم حريـة الـدين في سنـة ١٩٠٥ »[١٣٤] .

كما أن قبائل القيرغيز دخلت الإسلام عن طريق الدعاة ، الدعاة الذين اعتمدوا على إيصـال الإسلام إلى الشعوب ، بـالحكمـة والموعظـة الحسنـة « حتى أن مـدينتهم « قـازان » أصبحت المركز الرئيس لنشـاط هـذه الـدعوة ، وكان يطبع في كل سنـة عدد كبير من المنشورات » .

وصل الإسلام إلى سيبريـة (بـدون جيوش وسيـوف) فكيف وصـل ؟ (وفي سنـة ١٧٤٥ تسرب الإسلام لأول مرة إلى قبـائل التتـار التي يطلق عليهـا « Baraba Tatars »)[١٣٥] .

سيادة القاضي ـ يطول الحديث عن انتشار الإسلام بالحكمـة والموعظـة الحسنـة

---

(١٣٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٧٦ .

(١٣٣) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٩ .

(١٣٤) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٧٦ ، عن : Islam and Missions, p. 257.

(١٣٥) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٤ ، عن Radloff, vol. i. p. 241.

والإقنـاع والفكر دون إجبـار ، والآن نتسـاءل مـع من يرى أن الإسـلام انتشر بـالسيف ، كيف وصـل الإسـلام إلى : جنـوب الهنـد وسيـلان وجـزر لكـديف ومالاديف[١٣٦] في المحيـط الهنـدي ، وإلى التيبت وإلى سواحل الصين وإلى الفيلبين وجزر أندونيسية وشبه جزيرة الملايو ؟ كيف انتشر الإسلام في أواسـط أفريقيـة في السنغال ونيجيرية والصومال وتنزانيـة ومـدغشقر وزنجبـار ... كيف وصل الإسلام إلى هناك ؟ أبالسيف ؟ وما وصلت إلى هناك جيوش تحمل سيوفاً ؟

إنه وصل بواسطة تجـار اتقـد الإيمـان في قلوبهم ، فكانوا مع تجـارتهم دعـاة إلى الإسلام ، دعاة بالكلمة الطيبة وبالعمل الذي هو دعوة ناطقة ، فالصدق والأمـانـة والوفاء والمحبة ... كلها دعوات بطريقة عملية إلى دين الإسلام .

وللاطلاع على انتشار الإسلام في الهند[١٣٧] بـالـدعوة دون سيف يراجع البـاب التاسع من كتاب « الدعوة إلى الإسلام » ص ٢٨٥ ، ولانتشار الإسلام في الصين[١٣٨] دون سيف يراجع الباب العاشر ص ٣٣١ . ولانتشار الإسلام في أفريقية دون سيف يراجع الباب الحادي عشر لمعرفـة فضل الطرق الصوفيـة في نشر الـدعوة في سـاحل أفريقيـة الشرقي وفي أوغنـدة وأفريقيـة الشرقيـة[١٣٩] والصـومـال حتى رأس الكاب

---

(١٣٦) أهل مالاديف : « دخلوا في الإسلام عن طريق التجار العرب والفرس الـذين استوطنوا هـذه البلاد » ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٠٢ .

(١٣٧) تحول الناس إلى الإسلام في جنوب الهند بسبب التجار المسلمين الذين جاؤوا من سائر جهـات الهنـد ، مثل كوجرات والـدَّكَن ، ومن بلاد العرب وفـارس ، الـدعـوة إلى الإسـلام ص ٢٩٨ ، عن : Oboardo Barposo p. 310 . والـذي أدخـل الإسـلام إلى هضبـة الـدَّكَن أحـد الـدعـاة العرب ، واسمـه « پيرمَهَـاإبير » ، وپير تعني مرشـد ، ومَهَـا تعني أكبر ، وإبير تعني النـاسـك ، وذلك سنة ١٣٠٤ م « الدعوة إلى الإسلام » ص ٣٣٢ .

(١٣٨) « إن الإسلام دخل الصين أول مـا دخل مع التجـار الـذين كانـوا يسلكـون الطريـق البحري القديم » الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٣٢ .

(١٣٩) أدخل الإسلامَ إلى مـالي Male الشيخُ يوسف شمس الـدين من تبريـز في إيران ، الـدعـوة إلى الإسلام ، ص ٣٠٣ .

« رأس الرجاء الصالح » . ولانتشار الإسلام بأرخبيل الملايو دون سيف يراجع الباب الثاني عشر ص ٤٠١ لنَر الإسلام في سومطرة ـ جاوة ـ وجزر ملوكس ـ وبورنيو ـ وسيليبس ـ والفلبين ـ وسولو[١٤٠]...) . وفي أمريكة هل يتم انتشار الإسلام فيها بالسيف والقوة ؟؟

فبعد هذا كله كيف انتشر الإسلام ؟ وكيف انتشرت العقائد الأخرى ؟..

☆ ☆ ☆

شهادات منصفة :

« ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب » .

« غوستاف لوبون »

(من نوادر المؤلفين الغربيين الذين جمعوا بين حسن النية وحسن الفهم في مسألة الجهاد « توماس كارليل » ، الحكيم الايقوسي الذي يسميه نقاد الغرب بنبي الكتاب ... فهو ينتهي بزعم الزاعمين أن الإسلام قد انتشر بالسيف إلى الغاية من السخف والغثاثة ، ولا يرتضي أن يعتبر هذا الزعم من أكاذيب التاريخ ، فإنه أضعف من أن يحسب من الأكاذيب التي تحتاج إلى تصحيح . وهو أظهر بُطْلاناً من أن يُبْطَلَ بالمناقشة ، لأن القائل به سواء ومن يقول أن رجلاً واحداً حمل سيفه وخرج إلى جميع مخالفيه ليبعث فيهم الخوف من سيفه ـ وحده ـ ويسوقهم كرهاً إلى اعتقاد ما ينكرون ، فيعتقدونه ويثبتون ا ه ثم يحملون السيف معه لتخويف الآخرين)[١٤١].

---

(١٤٠) لم يتقدم الإسلام بقوة السلاح ، بل صادفت الكلمة الطيبة ، والسلوك القويم ، والخُلُق الرفيع ، والحقيقة المقنعة النجاح في أفريقية وجنوب شرق آسية .

(١٤١) ما يقال عن الإسلام : ص ١٧٠ .

وتتساءل « لورا فيشيا فاغليري » عن تفسير مقنع لمواصلة انتشار الإسلام وتقدمه الحثيث في آسية وأفريقية في عصرنا الحاضر ، ثم تجيب : « إن أحداً لا يستطيع اليوم أن يزعم أن سيف الفاتح هو الذي يمهد السبيل أمام الإسلام ـ على العكس ـ ففي الأصقاع التي كانت في يوم من الأيام دولاً إسلامية تولت مقاليد السلطة حكومات جديدة تنتسب إلى أديان أخرى ، وعملت في أوساط المسلمين طوال فترات عديدة منظمات تبشيرية قوية ، ومع ذلك فإن هذه الحكومات ، وتلك المنظمات ، لم توفق إلى زحزحة الإسلام وإقصائه عن حياة الشعوب الإسلامية .

ـ أية قوة عجيبة تكمن في هذا الدين ؟ أية قوة داخلية من قوى الإقناع تنصهر به ؟ ومن أي غور سحيق من أغوار النفس الإنسانية ينتزع نداؤه استجابة مزلزلة ؟ »[١٤٢].

« قامت الانتصارات المدوية للعرب على أسباب متنوعة تتجلى أهمها في الخلق السامي الذي كان قد تشرَّبه العرب عن الدين الجديد »[١٤٣]

ـ « سيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم ، أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ، وأن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم ... »[١٤٤]

ـ « لم ينتشر القرآن بالسيف ... بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب »[١٤٥].

---

(١٤٢) دفاع عن الإسلام : ص ٤٠ .

(١٤٣) الحضارة العربية : جاك . س . ريسلر ، ص ٢٧ .

(١٤٤) غوستاف لوبون « حضارة العرب » ترجمة محمد عادل زعيتر ص ١٤٥ .

(١٤٥) غوستاف لوبون « حضارة العرب » ص ١٢٨ .

ـ وقال روبرتسون في كتابه « تاريخ شارلكن » : « إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو أتباع الأديان الأخرى الذين غلبوهم وتركوهم أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية » .

ـ قال « ميشود » في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » : « **إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وهو قد أعفى البطاركة والرهبان وخَدَمِهِم من الضرائب » .**

ـ وقال الكونت هنري دي كاستري في كتابه « الإسلام خواطر وسوانح » بعد وصفه الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام بين الشعوب . وصف المسلمين بقوله : « فلم يقتلوا أمة أبت الإسلام »[١٤٦].

وقال : « **فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان ، بل دخل القلوب عن شوق واختيار ، وكان نتيجة ما أُودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالألباب »[١٤٧].**

ذكر توماس كارليل ص ٧٦ في « الأبطال » في معرض ردّه على شبهة انتشار الإسلام بالسيف :

« فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف . ولكن ما هو الذي أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين . وإنه حق ، والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد ، فالذي يعتقده هو فرد ، فرد ضد العالم أجمع ، فإذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع ، وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال ، أَوَ لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن

---

(١٤٦) ص ٣٥ ، ترجمة أحمد فتحي زغلول .

(١٤٧) ص ٣٩ ـ ٤٠ (المصدر السابق) : L'Islam impression et etudes

تستخدم السيف أحياناً ، وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون ، وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أو باللسان أم بأية آلة أخرى ، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار . لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم » .





(الجلسة العاشرة)

الذميون والجزية

☆ « من عرف الحق ، عزّ عليه أن يراه مهضوماً » .
☆ « إن الله أرسل محمداً هادياً ، ولم يرسله جابياً » .

عمر بن عبد العزيز

دخل الإسلام قاعة المحكمة ، وبدأت الجلسة العاشرة ، ووقف النائب العام وقال : عامَلَ الإسلام الذميين بقسوة واضطهاد وإرهاب وقمع للحريات ، وأرهقهم بضرائب كبيرة سميت « الجزية » .

وكان موقف غير العرب بالنسبة للأرستقراطية الحربية العربية هو موقف الرعايا الخاضعين ، وكانوا هم الدعامة المالية للدولة ، فكان لابدَّ لهم أن يهيّئوا الحياة لسادتهم من طريق الخراج المفروض عليهم والضرائب التي يدفعونها كرعايا والتي كانت تُشعِرُ بالغضاضة ، وكانت وطأتُها عليهم أشد من وطأة الزكاة التي كان يدفعها المسلمون ، وكان تَدخُّل الدولة العربية في شؤونهم الداخلية - إذا لم تدع إلى ذلك حاجة - أقل من تدخلها في شؤون القبائل ... ولم تكن الحكومة - الإسلامية - يهمها سوى حمل الخَرَاج إلى بيت المال على المقدار المفروض له ... « الذميون بقرة ... الوالي يمسكها من قرونها حتى تسكن ، وعامل الخَرَاج يحلبها »[1] .

ثمَّ أيد النائب العام ادعاءه بالآية الكريمة : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَاحَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ

(١) صاحب الشبهة « يوليوس فلهاوزن » في كتابه تاريخ الدولة العربية : ص ٢٧ .

الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَـدٍ[2] وَهُم صَـاغِرُونَ[3] ﴾ [التوبـة : ٢٩] .

وقف الإسلام بعـد سماع المستشرق المتعصب « يوليـوس فلهـاوزن » وفي نفسـه كلمة : أبمثل هذه الافتراءات يعرض الإسلام على الأُوربيين ؟!.. يحق لهم ذلـك ... فلـو كتبـوا بنزاهـة وتجرد وسجلـوا الحقيقـة لظهر جمـال الـدعـوة الإسـلاميـة عنـد الأُوربيين ثم لأسلموا ... فهم يبغون تشويه الصورة في ذهن ونفس الأُوروبي فيُقـام حاجز بينه وبين الإسلام .

وقف الإسلام وطرح دفاعه على النحو التالي[4] :

ـ مقدمة :

يعيش في البـلاد الإسـلاميـة على مرّ تـاريخهـا مسيحيـون ويهـود ، ويعيش مسلمون في بلاد غير إسلامية ، فكيف كانت معاملة هؤلاء ؟ ومعاملة هؤلاء ؟.

طف في العالم الإسلامي ، فهل تسمع شكاية مسيحي أو يهودي ضد المسلمين ؟

---

(٢) عن يدٍ : أي قدرة وغنى ويسر .

(٣) صَاغِرُون : أي تجري عليهم أحكام الإسلام .

(٤) اعتمدنا في هذا البحث الكتب التالية بشكل رئيسٍ :

١ ـ مقارنة الأديان : جـ ٣ ، للدكتور أحمد شلبي .

٢ ـ الدعوة إلى الإسلام : لتوماس أرنولد .

٣ ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : للمرحوم العقاد .

٤ ـ مايقال عن الإسلام : للمرحوم العقاد .

٥ ـ حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأُمم المتحدة : لمحمد الغزالي .

٦ ـ دفاع عن الإسلام : للورافيشيا فاغليري .

٧ ـ حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية : للمودودي .

وغيرها من الكتب سنذكرها في حينها .

أما المسلمين الذين يعيشون تحت كنف حكومات غير إسلامية ، فيا للهول ، لنقرأ مثلاً قول غوستاف لوبون في « حضارة العرب ، ص ١٩٤ » فنجد وصفاً لضروب القسوة والبربرية التي كانت طابع الحكم الصليبي في فلسطين : « لم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتنكيل التي اتبعوها ، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس المسلمين واليهود الذين كان عددهم ستين ألفاً ، فأفنوهم عن آخرهم في ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً ، ويقول غليوم الصوري إن الصليبيين كانوا من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين ، ولو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشية لخرج من طور المؤرخ ليدخل في طور القادح الهاجي » .

أما في اسبانية ، فيحدثنا الواقع الحاضر أنه ليس في اسبانية الآن مسلم واحد ، لقد سُفِكَت دماءُ المسلمين ، وأُرغموا إرغاماً على ترك الإسلام والدخول في دين النصرانية . وفي شباط ١٥٠٢ م ، صدر أمر بطرد المغاربة المسلمين (وقد سموهم أعداء الله) من اشبيلية وماحولها إذا لم يقبلوا التعميد ، وعليهم أن يغادروا اسبانية قبل شهر نيسان ، وألا يصحبوا معهم ذهباً ولا فضة ، وألا يذهبوا في طريق يقودهم إلى أرض إسلامية والنتيجة التي جاءت أثراً لهذه الشروط موت الجميع[٥] .

إن محاكم التفتيش The Inquisition نصّرت المسلمين بإشراف السلطات الكنسية ، وبأشد وسائل العنف ، ولم تكن العهود التي قُطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية التي أُشبِغَت على سياسة اسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ، وفي عام ١٥٠١ م أصدر الملِكان الكاثوليكيان « فرديناند وإيزابيلا » أمراً خلاصته : لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكَفَرة ، فإنه يحظّر وجود المسلمين فيها ، ويُعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال[٦] .

---

(٥) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٤٧ .

(٦) راجع « مصرع غرُناطة » ص ٩٨ ومابعدها لمعرفة أعمال محاكم التفتيش الوحشية المروعة ، والتي =

وفي « إسرائيل » اليوم ، مـاواقع المسلمين ؟ تهجير ، حرمـان ، آلام ، انتهـاك حرمات المساجد ، ومإحراق الأقصى عن الأذهان ببعيد(٧) .

فيمكن أن ندرك وبيسر أن المسلمين لقوا من المجتمعات غير الإسلاميـة ألوانـاً من الاضطهاد والإبادة والخسف والقتل والتهجير .

بعد هذه المقدمة ، لنر غير المسلمين في دولة الإسلام :

- رسم القرآن الكريم مع أحاديث رسول الله ﷺ وأعمال الخلفاء الراشـدين .. الطريق القويم للمسلمين في معاملة غير أتبـاع ديـانتهم وسـار المجتمع المسلم على هـدي هذا الطريق .

١ - فالقرآن الكريم يقول : ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم فِي الدِّين وَلَمْ يُخْرِجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُم وَتُقْسِطُـوا إِلَيْهِم إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] .

﴿ وَطَعَامُ الَّـذِينَ أُوتُوا الكِتَـابَ حِلٌّ لَكُم وَطَعَـامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ [المـائـدة : ٥] .

وقـد يـدخل الابنُ الإسلامَ ويظل الأب على غير الإسـلام . فيـدعـو الإسـلام الابن أن يظل طيب الصحبة مع أبيه مع اختلاف الدين : ﴿ وَإِنْ جَـاهَـدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِـهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَـا وَصَـاحِبْهُمَـا فِي الـدُّنْيَـا مَعْرُوفـاً ﴾ [لقمان : ١٥] .

يوضح القرآن الكريم للمسلمين آداب الجدال بينهم وبين أهل الكتاب :

= فيها الدفن على قيد الحيـاة ، وسحق العظـام بـآلات ضـاغطـة ، وتمزيق الأرجل ، وفسخ الفـك ، وسل اللسان ، وتمزيق أثداء النساء ، وسحبهن من صدورهن بواسطة كلاليب ...

(٧) أحرق المسجد الأقصى الشريف . بمؤامرة عالمية صهيونية مدبرة ، يراجع بشـأنهـا كتـاب « حريق الأقصى » الذي وزعته « فتح » .

﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُم وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

٢ ـ أحاديث رسول الله ﷺ وأعماله :

ـ كان عليه الصلاة والسلام يحضر ولائم غير المسلمين ويشيع جنازاتهم ، ويعود مرضاهم ، ولما جاء وفد نجران المسيحي فرش لهم عباءته وأجلسهم عليها ، وكان يقترض من أهل الكتاب ، ويرهن عندهم أمتعته حتى توفي ﷺ ودرعه مرهون عند بعض اليهود في المدينة المنورة ، وكان يفعل ذلك إرشاداً وتعليماً للمسلمين ، إذ كان في الصحابة من يقرض رسول الله ﷺ بل ويؤثره على نفسه[(٨)] .

ورسول الله ﷺ يقول : « من آذى ذمياً فليس مني » . « من قتل معاهداً لم يَرَح رائحة الجنة »[(٩)] .

« من ظلم معاهداً وكلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه »[(١٠)] .

« إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا »[(١١)] . لم يقل الرسول ﷺ : « يعذب المسلمين » بل : « يعذب الناس » عامة ..

حدث زيد بن سَعْنة ـ وهو من أحبار اليهود ـ أنه أقرض النبي ﷺ قرضاً كان قد احتاج إليه ليسد به خللاً من شؤون نفر من المؤلفة قلوبهم ، ثم رأى أن يذهب

---

(٨) عفيف طبارة ، روح الدين الإسلامي : ص ١٩٨ .

(٩) رواه البخاري .

(١٠) فتوح البلدان ، طبع أوربة : ص ١٦٩ .
ورد في كتاب « حقوق الإنسان » للغزالي : « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » « ومن آذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة » وهي أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ .

(١١) رواه مسلم .

قبـل ميعـاد الـوفـاء المحـدد ليطـالب بـدَيْنـه قـال : أتيتـه ـ يعني رسـول الله ﷺ ـ فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ ـ أي عـابس ـ قلت لـه : يامحمد ، ألا تقضيني حقي ؟ فوالله ماعلمتكم بني عبـد المطلب إلا مُطْلاً ـ مسوفين في أداء الدَيْن والحقوق ـ ولقد كان لي بمخالفتكم عِلْم .

ونظر إليَّ عمر وعيناه تـدوران في وجهـه كالفلـك المستـدير ، ثم رمـاني ببصره فقال : ياعدو الله أتقول لرسول الله ﷺ مـاأسمع ؟! وتصنع بـه مـاأرى ؟ فوالـذي نفسي بيده لولا ماأحـاذر فَوتـه ـ لولا مـاأخشى أن يفوتني من رضـا الرسول ﷺ ـ لضربت بسيفي رأسك !.

ورسول الله ﷺ ينظر إليَّ في سكـون وتـؤدة فقـال : « يـاعمر أنـا وهـو كنـا أحـوج إلى غير هـذا ، أن تـأمرني بحسن الأداء ، وتـأمره بحسن اتبـاعـه ، اذهب بـه ياعمر فاعطه وزده عشرين صاعاً من تمر ، مكان مارُعته » . قال زيد : فـذهب بي عمر ، فأعطاني حقي وزادني عشرين صاعاً من تمر فقلت : ماهذه الزيادة يـاعمر ؟ قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان مارعتك[١٢] .

سار المسلمون على هذا النهج في المعاملة ، وهذه نماذج من سيرتهم :

لقد وردت آثـار نبويـة أن المسلم الـذي يمتنع عن ضيـافـة إخوانـه ـ وذلـك في حدود المدة المقررة ـ يكره عليها قانوناً مادام قادراً مستطيعاً على هذه الاستضافة ، إلا أن عمر رضي الله عنه خشي أن يشعر أهل الذمة بأن ذلك استضعـاف لهم ، فـأمر ألا يحرجوا بتقاليد الكرم الإسلامي ، وأوعز إلى الجيش أن يدعهم وشـأنهم ، على أن مايقع إبان المعـارك وفي حومـة الميـدان شيء غير مـايشرع من قوانين وتعـاليم تفسّر العلائق بين المسلمين وغيرهم على وجه الدوام .

وكتب عمر الفاروق إلى قائده سعد بن أبي وقـاص ومن معـه من الأجنـاد على

---

(١٢) رواه الطبراني .

الجبهة الفارسية : « **ونَحِّ منازلهم وجنودك ، عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم وَفوا لهم** »[١٣] .

وهذه ليست وصية للمعاملة بالحسنى ، بل بالرفق ، وفيها أن أهل الذمة يضيفون عسكر المسلمين ثلاثة أيام ، أما هم فيتنحون عن المعسكر ، هذه رحمة الفاتح الذي لم يعرف في حياته شعار « ويل للمغلوب من الغالب » ، بل رحمة ورفق وسياج من الرأفة والتسامح للشعوب المغلوبة .

وسنعرض من نماذج العهود التي سجلها الفاتحون مع أهل الذمة في البلاد التي فتحت عهودهم مع سكان **بلاد الشام** : كان عمر لا يكتفي بعهد يقطعه على نفسه وقومه[١٤] ، بل كان يشفع عهوده بوصاياه المتكرِّرة إلى ولاته ، أن يمنعوا المسلمين ظلم أهل الذمة وأن يوفوا لهم بعهدهم ويخففوا عنهم وألا يكلفوهم فوق طاقتهم وقد سجل ذلك في وصيته قبل موته .

ـ قال معدان بن أبي طلحة وجُويرية بن قدامة : ... كنا آخر من دخل عليه (على عمر بعد طعنه) وإذا عصب جرحه ببرد ... فقلنا : أوصنا ... قال : « أوصيكم بكتاب الله فإنكم لن تضلوا مااتبعتموه ، وأوصيكم بالمهاجرين فإن الناس يكثرون وهم يقلون ، وأوصيكم بالأنصار فإنهم شعب الإسلام الذي لجأ إليه ، وأوصيكم بالأعراب فإنهم أصلكم ومادتكم وإخوتكم وعدوّ عدوكم ، **وأوصيكم بأهل الذمة فإنهم ذمة نبيكم ورزق عيالكم** ، قوموا عني »[١٥] .

ومن عهوده رضي الله عنه : « ... هذا ماأعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل

---

(١٣) نهاية الأرب : جـ ٦ ص ١٦٩ .

(١٤) رواه الدارقطني حديثا عن ابن عمر ولفظه : « أنا أكرم من وفى بذمته » .

(١٥) الرياض النضرة : جـ ٢ ص ٧٥ .

ايلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها وسائر ملتها : إنه لاتُسكن كنائسهم ، ولاتُهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يُكْرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود ... »(١٦) .

☆ ☆ ☆

ومن الناحية العملية :

ـ نجد أن عمر الذي تمت في عهده أكبر الفتوحات مع عهوده زاد عطفاً وتسامحاً وحسن معاملة ، فبينما هو في كنيسة القيامة بالقدس إذ دخل وقت الصلاة ، فخرج وصلى خارجها ، وقال للبطريرك : لو صليت داخل الكنيسة خفت أن يقول المسلمون من بعدي : هذا مُصَلّى عمر ، وأن يحاولوا أن يقيموا في هذا المكان مسجداً .

ـ رأى عمر مُسنّاً يهودياً يسأل الناس ، فسأله عمر : ما الذي حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله حيث أعطاه عطاء سخياً ، ثم أرسله إلى خازن بيت المال مع رسالة قال فيها : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ، ثم خذلناه عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب(١٧) .

ـ ومر عمر رضي الله عنه في أرض الشام بقوم مجذومين من النصارى فأمر أن يُعطوا من الصدقات ، وأن يجري عليهم القوت بانتظام(١٨) .

ـ ناوأ نصارى تغلب واليهم من قِبَل عمر وهو « الوليد بن عقبة »(١٩) ، فنفد

---

(١٦) الطبري : جـ ٤ ص ١٥٩ ، طبعة دار المعارف بمصر .

(١٧) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٥١ .

(١٨) البلاذري ، فتوح البلدان : ص ١٣٥ .

(١٩) لما غضب الوليد غضبته المضرية المقيّدة بالإيمان الإسلامي . قال فيهم كلمته المشهورة :

إذا ما عصبتَ الرأس مني بمشوذ ... فغيّك مني تغلب ابنة وائل =

صبر الوليد ، مما كانوا يعملون ، فتوعدهم ، فسمع عمر بذلك ، فخشي عمر أن يبطش الوليد بهم ، فعزله عن ولايته وعين أميراً غيره ، عطفاً ومحبة بنصارى تغلب .

☆ ☆ ☆

ماذا قال الذميون عن معاملة الفاتحين لهم :

« إن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا ، يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون ذلك حق العلم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس ، يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقديسي الرب ، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار »[٢٠] . ويقول « أرنولد » معلقاً على هذه الرسالة : « تحمل هذه الرسالة الدليل الساطع **على طابع الهدوء والمسالمة في نشر هذا الدين الجديد »** .

ويقول « عيشو بابه » أحد البطاركة المسيحيين : « إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون ، **إنهم ليسوا أعداء للنصرانية** ، بل يمتدحون ملتنا ، ويوقرون قسيسينا ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا »[٢١] .

لماذا تدفع الجزية من قبل الذميين ؟

« لماذا الجزية ؟ ما مقدارها ؟.. وما يقابلها عند المسلمين ؟؟ » .

ينتفع أهل الكتاب « الذميون » بالمرافق العامة مع المسلمين ، كالقضاء

= فبلغت هذه الكلمة عمر رضي الله عنه ، فكف يد الوليد عنهم ونحاه عن منطقتهم .

(٢٠) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٠٢ وهذا كلام البطريق النسطوري يشوع باف الثالث ، وقد أرسل هذه الرسالة إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فارس .

(٢١) في روح الدين الإسلامي : ص ٢٠١ .

والشرطة والمرافق العامة ، كالطرقات والجسور ومشاريع الري ... « وتحتاج إلى نفقات يدفع المسلمون قسطها الأكبر ، ويسهم أهل الكتاب بالجزية في تكاليف هذه المرافق »[٢٢] .

ومقابل دفع الجزية لا يكلف القادرون من أهل الكتاب أن يحملوا السلاح ويدافعوا عن البلاد ، بل يقوم بذلك المسلمون ، فهي نظير إعفائهم من الواجب الكبير[٢٣] . وفي بعض الأحوال التي يقوم بها الذميون بالدفاع عن النفس تسقط عنهم الجزية بدليل[٢٤] « أن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا الإسلام ، ثم عرف المسلمون أن الروم أعدوا جيشاً كبيراً لمهاجمة المسلمين ، فأدرك المسلمون أنهم قد لا يقوون على الدفاع عن أهل حمص . وقد يضطرون للانسحاب فأعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم وقالوا لهم : شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : **إن ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم** ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهضوا بذلك فسقطت الجزية عنهم » .

ومما قالوه : « والتوراة لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نُغْلَب »[٢٥] . « ردّكم الله علينا ونصركم عليهم ـ أي على الروم ـ فلو كانوا هم ، لم يردوا علينا شيئاً ، وأخذوا كل شيء بقي لنا »[٢٦] .

---

(٢٢) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٥٢ .

(٢٣) وقد فرضت الجزية كما ذكرنا على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين ويعفى منها الطفل والمرأة والشيخ ، ومن لا معاش له أو هو عالة على غيره يعفى من أداء الجزية مهما كان عمره . الدعوة إلى الإسلام : ص ٧٩ .

(٢٤) رواية البلاذري في (فتوح البلدان) : ص ١٤٣ .

(٢٥) فتوح البلدان (الطبعة الأوربية) : ص ٧ .

(٢٦) أبو يوسف : ص ٨١ ، الدعوة إلى الإسلام : ص ٧٩ .

مقدارها : هي على الأغنياء ٤٨ درهماً في العام - حوالي جنيهين[٢٧] - وعلى المتوسطين ٢٤ درهماً ، وعلى العمال والصناع ١٢ درهماً ، فهي إذن : مقدار ضئيل يسير من المال يدفع في كل عام مرة واحدة ، تتفاوت قيمته حسب حالة الذمي المالية .

- « ويعين مقدار الجزية اعتباراً لحالتهم الاقتصادية ، فيؤخذ من الموسرين أكثر ومن الوسط أقل منه ومن الفقراء شيء قليل جداً . والذين لا معاش لهم أو هم عالة على غيرهم يعفون من أداء الجزية .

هذا وإن كانت الجزية لم يعين لها مقدار بعينه ، إلا أنه من اللازم عند تعيين المقدار أن تراعى فيه السهولة ، فيقرر منه ما يتيسر أداؤه لأهل الذمة ، وكان عمر رضي الله عنه قد جعل لكل رأس موسر ثمانية وأربعين درهماً وللوسط أربعة وعشرين درهماً وللفقير اثنى عشر درهماً »[٢٨] .

وليست الجزية لوناً من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام وإنما هي مقابل الحماية التي كفلها لهم المسلمون . « لأن قبول الجزية تثبت معه عصمة الأنفس والأموال »[٢٩] . وقال عمر لأبي عبيدة بكل صراحة ووضوح : « فإذا أخذت منهم الجزية فلا شيء لك عليهم ولا سبيل »[٣٠] .

وإن أهل الحيرة لما دفعوا المال ذكروا أن الدفع بشرطين : « أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم »[٣١] وبالفعل فقد جاء في المعاهدة : « فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا »[٣٢] .

---

(٢٧) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٥١ .

(٢٨) كتاب الخَرَاج : ص ٣٦ .

(٢٩) بدائع الصنائع : جـ ٧ ص ١١١ .

(٣٠) كتاب الخَرَاج : ص ٨٣ .

(٣١) الطبري : ص ٢٠٥٥ .

(٣٢) الطبري : ص ٢٠٥٠ .

الحقوق العامة لأهل الذمة :

١ ـ حفظ النفس : « دم الذمي » كدم المسلم[٣٣] .

روى عمر بن الحسن عن إبراهيم رحمهما الله تعالى أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة ، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « أنا أحق من وفى بذمته » . ثم أمر به فقتل .

في زمان عمر رضي الله عنه قتل رجل من بني بكر بن وائل رجلاً من أهل الذمة بالحيرة ، فأمر عمر رضي الله عنه بتسليم الرجل إلى أولياء المقتول ، فسلم إليهم فقتلوه[٣٤] .

أيام علي كرم الله وجهه أخذ رجل من المسلمين بقتل ذمي ، وقامت الحجة عليه فأمر علي بالقصاص ، فجاءه أخو المقتول وقال : قد تركت القود[٣٥] ، ولكنه كرم الله وجهه لم يرض بذلك وقال : لعلهم فزعوك أو هددوك ، فقال : لا ، بل قد أخذت الدية ، ولا أظن أخي يعود إليّ بقتل هذا الرجل . فأطلق علي القاتل وقال : « **من كان له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا** »[٣٦] .

٢ ـ القانون الجنائي : « سواء للمسلم والذمي ، يتساوى فيه الاثنان درجة ، فالذي يعاقب به المسلم على ما يأتي من الجرائم ، يعاقب به الذمي أيضاً . وإن سرق مسلم مال الذمي أو سرق ذمي مال المسلم قطعت يد السارق في كلتا الحالتين . كذلك إن قذف ذمي رجلاً أو امرأة بالزنا ، أو فعل ذلك أحد المسلمين

---

(٣٣) حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية « للمودودي » ص ١٣ ، ولقد اعتمدنا الكتاب المذكور لهذا البحث .

(٣٤) البرهان في شرح مواهب الرحمن : جـ ٣ ص ٢٧٨ .

(٣٥) القَود : القصاص ، أقاد القاتل بالقتيل قتَله به. (مختار الصحاح : ٤٧٧) .

(٣٦) البرهان : جـ ٢ ص ٢٨٢ .

أقيم حَدُّ القذف على كل منهما على السواء . وقل مثل ذلك في الزنا ، فهما سواء في حده أيضاً إلاّ الخمر ، ولا شك فإن أهل الذمة قد استثنوا من حدها في الإسلام »[٣٧] .

٣ ـ **في القانون المدني :** سواء للذمي والمسلم « وأموالهم كأموالنا » ـ قول سيدنا علي ـ ولهم أن يصنعوا الخمر ويشربوها ويبيعوها ، ولهم أيضاً أن يربّوا الخنازير ويأكلوها ويبيعوها[٣٨] ، وإن أتلف أحد من المسلمين خمر الذمي أو خنزيره ، كان عليه غرمه ، وجاء في الدر المختار : « ويضمن المسلم قيمة خمره وخنزيره إذا أتلفه »[٣٩] .

٤ ـ **حفظ الأعراض :** لا يجوز إيذاء الذمي لا باليد ولا باللسان ولا شتمه ولا ضربه ولا غيبته ، وقد ورد في الدرّ المختار : « **ويجب كف الأذى عنه وتحريم غيبته كالمسلم** »[٤٠] .

٥ ـ **ثبوت الذمة :** إن عقد الذمة يلزم المسلمين لزوماً أبدياً ، أي أنه ليس لهم أن ينقضوه بعد عقده ، ولكن أهل الذمة لهم الخيار أن يلتزموه ما شاؤوا وينقضوه متى شاؤوا . والذمي مهما ارتكب من كبيرة لا ينقض بذلك عقده . حتى ولا ينقض عقده كبائر الأفعال كالامتناع عن الجزية وقتل مسلم ... كل هذه الأفعال يعاقب عليها الذمي في القانون كأحد من الجناة ولا يعد بذلك خارجاً على الدولة ولا يخرج من عقد الذمة ، على أن هناك أمرين يخرجان ولا شك من هذا

---

(٣٧) كتاب الخراج : ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، المبسوط : جـ ٩ ص ٥٧ ـ ٥٨ . ويرى الإمام مالك رحمه الله أن الذمي مستثنى من حد الزنا كحد الخمر اعتماداً على قضاء عمر رضي الله عنه بأن الذمي إن زنى يترك أمره إلى أهل ملته « أي يعمل بقانون أحواله الشخصية » .

(٣٨) المبسوط : جـ ٨٣ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٣٩) الدر المختار : جـ ٣ ص ٢٧٣ .

(٤٠) الدر المختار : جـ ٣ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

العقد : أولهما أن يغادر دار الإسلام إلى دار الحرب ، والآخر أن يخرج على الدولة الإسلامية علناً ويبعث الفتنة في البلاد[٤١] .

٦ ـ **الأمور الشخصية :** يقضي بها الذميُّون بحسب قانونهم الشخصي . كتب عمر بن عبد العزيز إلى الإمام الحسن البصري مستفتياً : « ما بال الخلفاء الراشدين تركوا أهل الذمة وما هم عليه من نكاح المحارم واقتناء الخمور والخنازير ؟ » فأجاب الحسن البصري : « إنما بذلوا الجزية ليتركوا وما يعتقدون وإنما أنت متبع لا مبتدع ، والسلام »[٤٢] . أما إذا طلب الفريقان بأنفسهما أن تقضي المحكمة بينهما بشريعة الإسلام فتفعل المحكمة وتنفذ عليهما حكم الشرع ، أما إن كان أحد الفريقين في قضية تتعلق بقانون الأحوال الشخصية مسلماً قضى بينهما بالشرع الإسلامي .

٧ ـ **الشعائر الدينية :** لأهل الذمة الحرية في إظهار شعائرهم في جوف معابدهم القديمة ، فلا جناح عليهم وليس للدولة الإسلامية أن تتدخل بذلك ، ولهم أن يرمموا هذه المعابد في مواضعها[٤٣] .

٨ ـ التسامح في أخذ الجزية والخَرَاج :

ورد النهي عن التشديد على أهل الذمة في الجزية والخراج والحث على الرفق واللطف معهم في كل حال . وأن لا يكلفوا ما لا يطيقون ، ولا يجوز أن ينادى على أملاكهم للبيع عوضاً عن الجزية . كتب علي كرم الله وجهه إلى بعض عماله : « لا تبيعن لهم في خراجهم حماراً ولا بقرة ولا كسوة ، شتاء ولا صيفاً »[٤٤] .

---

(٤١) البدائع : جـ ٧ ص ١١٣ ، وفتح القدير : جـ ٤ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .

(٤٢) المودودي (حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية) : ص ١٨ .

(٤٣) عن المودودي (حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية) : ص ٢٠ .

(٤٤) فتح البيان : جـ ٤ ص ٩٣ .

وأجاز الفقهاء في أمر المانعين للجزية أو الخَرَاج أن يحبسوا تأديباً دون أشغال ، وقال الإمام أبو يوسف : ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم(٤٥) .

هذا ... ومن يصبح فقيراً أو محتاجاً من أهل الذمة فلا يعفى من الجزية فحسب ، بل يجري له عطاء من بيت المال(٤٦) . وإن مات أحد الذميين وعليه شيء من الجزية فلا يؤخذ من تركته ولا يكلف ورثته بأدائه ، ويقول الإمام أبو يوسف : « إن وجبت عليه الجزية فمات قبل أن تؤخذ منه أو أُخِذَ بعضها وبقي البعض ، لم يؤخذ بذلك ورثته ولم تؤخذ من تركته »(٤٧) .

ويحق للذميين حرية الخطابة والكتابة والتعليم والوظائف (باستثناء المناصب الرئيسة المعدودة) **ويكون للأهلية والكفاءة مقياس واحد للمسلم وغير المسلم**(٤٨) ، وحرية الكسب (صناعة ـ حرف ـ تجارة ـ زراعة) مصونة .

وهكذا نجد أنه عاش غير المسلمين في كنف الإسلام بحرية وعدل وإنصاف ومراعاة للعبادات ، وذلك بسبب النظام الإسلامي الذي جعل أساسه خشية الله في المعاملات ، مع اتباع المبادئ الثابتة الدائمة .



شهادات منصفة :

وإليك سيادة القاضي الحكيم بعض الشهادات المنصفة :

---

(٤٥) كتاب الخراج : ص ٧٠ .

(٤٦) راجع عمل عمر رضي الله عنه مع اليهودي ، وعمله مع من مر بهم في طريقه للشام في بداية هذا البحث .

(٤٧) كتاب الخراج : ص ٧٠ ، المبسوط : جـ ١٠ ص ٨١ .

(٤٨) المودودي (حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية) : ص ٣٤ .

١ ـ « إن المسلمين ماكانوا يتقاضون من مقهوريهم إلا شيئاً ضئيلاً من المال ، لايقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية »[٤٩] .

٢ ـ « إن هذه الأتاوات المفروضة كانت سبباً لهذه السهولة الغريبة التي صادفها المسلمون في فتوحاتهم ، فالشعوب رأت ـ بدل أن تخضع لسلسلة لاتنتهي من المغارم التي تخيلها حرص الأباطرة ـ أن تخضع لأداء جزية خفيفة ، يمكن توفيتها بسهولة ، وتسلمها بسهولة كذلك »[٥٠] .

٣ ـ تكلمت لورافيشيا فاغليري عن المعاهدات التي وقعها المسلمون مع الذميين ، وقالت عن هذه الاتفاقيات : « **منحت تلك الشعوب حرية الاحتفاظ بأديانها القديمة ، وتقاليدها القديمة ، شرط أن يدفع الذين لايرضون الإسلام ديناً ، ضريبة عادلة إلى الحكومة تعرف بالجزية ، لقد كانت هذه الضريبة أخف من الضرائب التي كان المسلمون ملزمين بدفعها إلى حكوماتهم نفسها** ، ومقابل ذلك ، منح أولئك الرعايا « المعرفون بأهل الذمة » حماية لاتختلف في شيء عن تلك التي تمتعت بها الجماعة الإسلامية نفسها ، ولما كانت أعمال الرسل والخلفاء الراشدين قد أصبحت في مابعد قانوناً يتبعه المسلمون ، فليس من الغلو **أن تصرَّ على أن الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى التسامح الديني ، بل تجاوز ذلك ليجعل التسامح جزءاً من شريعته الدينية** »[٥١] .

٤ ـ وقالت فاغليري أيضاً : « ادفعوا جزية يسيرة تُسْبَغُ عليكم حماية كاملة ، أو اتخذوا الإسلام ديناً وادخلوا في ملتنا فتتمتعوا بالحقوق نفسها التي نتمتع بها نحن »[٥٢] .

---

(٤٩) القول للعلامة « دريبر » ، راجع ، روح الدين الإسلامي : ص ٣٩٢ .

(٥٠) القول لمونتسيكو في كتابه « روح الشرائع » .

(٥١) دفاع عن الإسلام : ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٥٢) دفاع عن الإسلام : ص ٣٢ .

٥ ـ ويقول « لوبون »: « جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من ضرائب »[٥٣] .

☆ ☆ ☆

لماذا يُقْتَلُ المُرْتَد ؟

وهنا طرح القاضي الحكيم استفهاماً وسؤالاً ، مفاده :

إذا آمنا بالحرية الدينية التي أمَّنَها الإسلام حيث يقول : « لا إكراه في الدين ... » ، فلماذا يُقْتل المرتد ؟ وكيف نوفق بين الآية وقول النبي ﷺ :

١ ـ « من بَدّل دينَه فاقتلوه »[٥٤] .

٢ ـ « أيما رجل ارتد عن الإسلام ، فادعه ، فإن عاد وإلا فاضرب عنقه » .

٣ ـ « لايحلُّ دم امرئ مسلم إلاّ بإحدى ثلاث : الثّيِّبُ الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[٥٥] .

وأجاب الإسلام : سيادة القاضي الحكيم : أريد أن أبين مايلي :

الارتداد ليس مسألة شخصية وإن بدا ذلك في ظاهر الأمر ، فما معنى الارتداد عن الإيمان ؟ إذا بحثنا في معظم المرتدين الأوائل فإننا نجدهم قد ارتدوا بسبب ترك دفع الزكاة ، فهم إذن يمتنعون عن أداء فريضة يعود خيرها على المجتمع في الوقت

---

(٥٣) حضارة العرب : ص ١٣٤ .

(٥٤) رواه أحمد والبخاري عن ابن عباس بحديث صحيح ، راجع ، فيض القدير : جـ ٦ ص ٩٥ .
وفي « تنوير الحوالك ، شرح على موطأ مالك » جـ ٢ ص ٢١١ : حدثنا يحي عن مالك عن زيد بن أسْلَم أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ غَيّر دينَهُ فاضربوا عنقه » .

(٥٥) رواه البخاري ومسلم

الذي يعيش فيه المرتدون في داخل هذا المجتمع ويستفيدون بمزايا وجودهم فيه . فقد كانت مقاتلتهم باسم هذا المجتمع ، وباسم المصلحة العامة ، ولم تكن قطعاً لمصلحة الحاكم ذاته . إنه ارتداد عن أداء فريضة جماعية ، فالضرر الذي ينتج منه يعود على الجماعة التي يستمتع المرتد بمزايا وجوده بين ظهرانيها ، ونضيف هنا إن خطر الارتداد في هذا المجتمع ، كخطر « الخمر والزنا » فيه العدوى التي لو كانت من غير عقاب لانتشرت .

الارتداد تحلل من الالتزامات ، ولا يمكن أن يتحلل فرد من التزاماته نحو ربه والمجتمع ، لأن ترك الالتزامات نحو الخالق هي في الوقت ذاته التزامات نحو نفس المرتد وجماعته التي يعيش فيها ، فهو بتحلله خطر على بقية المجتمع ، فالارتداد لا يدخل في نطاق الحرية الشخصية لأسباب أضيفها :

ـ إنه يعتبر نفسه أنه هو المهتدي والآخرون ـ المؤمنون ـ مُغَفَّلون ، يقيدون أنفسهم بالتزامات تحد من استمتاعهم بحيوانيتهم المطلقة ، إنه يدعوهم إلى الهدى ، ويبشرهم بالنور الجديد ، والاستجابة لدعوته ، ألا وهي الانطلاق من القيود دون إرهاق أو جهد ، فالإنسان أقرب إلى الهبوط منه إلى الصعود ، فالتسامي والارتفاع هو الذي يحتاج إلى جهد دائب .

ـ المرتد مفسد لجهد طويل ، إنه يعلن شرَّه وإفساده ، ويطلب من الناس التحصن من شروره ، وهذه سفسطة لاتثبت لنقاش فالإفساد يستأصل من أرومته في جميع دول العالم حديثها وقديمها .

وإذا قال المرتد : إنه ارتد ـ فلسفة ـ وأنه يراعي قواعد الأخلاق ، نقول له : إن حبك للانفلات من قيود الأخلاق هو الدافع الأصيل الذي دفعك إلى الهروب من الدين .

ـ الارتداد عن دين الله بعد الإيمان ، معناه إفساد نظام لا مجرد تغيير عقيدة

فردية ، فالإسلام نظام عملي قائم على عقيدة ، ومجتمع قائم على هذا النظام ، وأوامره ـ كما رأينا في بداية البحث ـ مفروضة لصالح الفرد أولاً ، ولصالح المجتمع في الوقت ذاته ، فهي إذن مسألة شخصية ، وإنما يرجع الضرر والنفع فيها على المجتمع .

هذا ...

وإن للأمة الإسلامية ـ كما لكل أمة في العالم ـ حرصاً شديداً على سلامتها الجسدية والعصبية والفكرية والروحية العقائدية ، فلا تبيح لفرد أن يجاهرها العداء ، ومن جاهرها العداء اعتبرته خارجاً عن القانون ، يعاقب بعقوبة تنص عليها قوانين الدول كل بحسبها ، وأكثرها نصت على عقوبة الإعدام .

الإسلام نصّ على قتل المرتد لاالذي احتفظ بفكره لنفسه ، بل الذي بدأ يدعو لخرق مبادئ الإسلام جهرة وفي كل ميدان أو مجلس ، كما أن المرتد يُدعى لنقاش مع كبار العلماء الحكماء لمدة ثلاثة أيام[٥٦] ، ثم إن كابر وفسق يُقتَل ، فلماذا يعاب على الإسلام أن يقتل هذه الجرثومة المُضَلِّلة ، التي لو تركت لأفسدت الناشئة والجيل الفتي الصاعد ، تُضِلُّه لاعن علم وحقيقة وبينة ، بل مراوغة في نفسه وسوء في فهمه وغثاثة في ضميره وانحراف في روحه ، والجيل الصاعد بريء لم يكتمل علمه ولم تتم محاكمته ، فهو واثق من المجتمع الطاهر النقي الذي يعيش فيه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية : فإن التخريب أهون على المرتد من البناء على المؤمنين[٥٧] .

---

(٥٦) قدم على عمر بن الخطاب رجل من قبل أبي موسى الأشعري ، فسأله عن الناس فأخبره ، ثم قال عمر : هل كان فيكم من مُغَرِّ بِهِ خبر فقال : نعم رجل كفر بعد إسلامه ، قال : فما فعلتم به ؟ قال : قرّبناه فضربنا عُنُقَه ، فقال عمر : أفلا حبستموه ثلاثاً وأطعمتموه كلَّ يوم رغيفاً واستتبتموه لعلَّه يَتُوب ويُراجِعُ أمرَ الله ؟! ثم قال عمر : « اللهم إني لم أحضر ، ولم آمر ، ولم أرضَ إذ بلغني » . « تنوير الحوالك : جـ ٢ ص ٢١١ » .

(٥٧) الارتداد لعب بالدين وتضليل للمتدينين ، لذلك اعتبر القرآن الرِّدة من أشد التضليل ، قال تعالى في سورة النساء ، ١٣٧ : ﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُم سَبِيلاً ﴾ .

ويمكن في النهاية أن نجمل أسباب قتل المرتد بما يلي :

١ ـ ليجعل الإسلامَ الفردَ الذي يُقْدِمُ على الدخول فيه ، لايُقْدِمُ إلاَّ بعد اطلاع وإقنـاع ودرايـة وفهم لجميع جوانبـه ، فـإن حصل الاقتنـاع ولو بعـد سنين فـأهـلاً وسهلاً به مسلماً مؤمناً ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وإن لم تحصل قناعة ، فلـه دينه الذي هو عليه ، ويبقى ذمياً في دولة الإسلام تطبق عليه قوانين الذميين[٥٨] ، ولذا فقد تم تعيين الدعاة أيام عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وهشـام الثـاني ليكون الدخول في الإسلام عن مناقشة ودراية ووعي وقناعة .

٢ ـ في الارتداد إساءة إلى الإسلام ، واستهزاء قد يكون مدروساً أو مخططاً لـه من فئـات غير إسلاميـة من الـداخل أو من الخـارج . فكأن المرتـد يقول : دخلت الإسلام وتركت ديني السابق ، ثم اطلعت على الإسلام عملياً وجربتـه مـدة طويلـة فـوجـدتـه لا يرقى إلى مرتبـة الـدين السـابـق ، فـديني الأول أفضـل ، وهـا أنـا ذا ـ ياناس ـ أرتـد عن الإسلام بعـد تجربتـه واقتنـاعي بفسـاده ، فكأن المرتـد لسـان دعاية خطر هائل ، ليمنع دخول الشعوب في دين الإسلام الـذي جرَّبـه هو ـ بعقلـه الخَرِب ـ أو ذكاءً منه ليمنع الناس من الـدخول في دين لو اطلع عليـه أي فرد بتجرد وموضوعية لعشقه .

٣ ـ يُعـدُّ الارتـداد بمختلف صـوره : كالامتنـاع عن تطبيـق قـواعـد الإسـلام ـ كترك الزكاة ـ أو اتباع المتنبئين ، أو ترك الدين جملـة ، ثورة داخليـة مضـادة ، إن تُركت تفشَّت وخرَّبت المجتمع ، وهذا في عرف العصر الحاضر عقوبتـه الإعـدام في دول العالم كله .

وهكذا يُظهِر الارتداد نفوساً خبيثة إما أن تكون مخططة لغاية بعيد مداهـا ، ألا وهي طعن الإسلام إعلامياً ، أو مترددة متذبذبـة غير مستقرة ، مريضـة ، تجعل مصيرها الدنيوي والأُخروي أُلْهِيَة وأُلعوبة .

---

(٥٨) راجع جلسة « الذميون والجزية ».

ونحن بدورنا نسأل : ماهي عقوبة الخارج على قوانين دولة مافي العالم ؟ بم يعاقب المجاهر بالعداء لها والمحطم لنظمها والداعي إلى القيام بثورة داخلية مضادة ؟

أليس القتل هو العقوبة المقررة ؟ فلِمَ يعاب على الإسلام إن قرر ذلك ؟ ومن ذا يحمل عليه إلا أن يكون حاقداً مفترياً ؟!...





(الجلسة الحادية عشرة)

الإسلام والاستعمار

☆ ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . [التوبة : ١٠٩]

النائب العام : دخول الإسلام إلى فلسطين إنما كان مصادفة كمصادفات الضرورات السياسية أو العسكرية على يد « الخليفة عمر المستعمر العربي »[١] .. « لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع باللذات . وبعد قليل أصبحت آسية الصغرى وأفريقية وإسبانية فريسة له »[٢] ، فالعرب المسلمون مستعمرون كغيرهم ، دفعهم الخصب في الشمال إلى الغزوات ، فهم كالفاتحين الذين شهدتهم البشرية من فترة إلى فترة على مسرحها .

القاضي : ما دفاعك أيها الإسلام ؟

الإسلام : ـ أيها القاضي الحكيم ـ إن شبهة : الإسلام حركة استعمارية كغيره من الحركات الاستعمارية ، يلحق بها : أن العرب المسلمين نجحوا في فتوحاتهم بسبب بداواتهم التي صقلت قوتهم في صحرائهم ، وأن « الجَمَلَ » هو نقطة القوة في

(١) القول لساندرز Saunders . في مجلة : History Today الصادرة باللغة الإنجليزية .

(٢) كتاب : « البحث عن الدين الحقيقي » تأليف المنسنيور كولي وقد صدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحي في باريز ، طبعة ١٩٢٨ .

الفتوحات ، إذ أمَّن التموين والاتصال بين الجبهات والحجاز مركز الدولة الناشئة .

ونحن نقول ليس للبداوة والصحراء قيمة : إن العرب في الجزيرة حاربوا عرباً أكثر منهم عدداً ، وهم مثلهم عاشوا في بيئة واحدة ، وتحت شمس واحدة . فَلِمَ كُتب النصر للعرب المسلمين على قلتهم ؟ وهُزِم العرب الوثنيون على كثرتهم ؟ .

أما الدليل الثاني : فإنه في معركة اليرموك ـ معجزة الإسلام الخالدة ـ كان مع الروم مائة ألف عربي من الغساسنة بالإضافة إلى مائة وأربعين ألف رومي ، وكان جيش العرب المسلمين أربعين ألفاً . فلمَ كتب النصر للمسلمين ؟

وقد نسي المُتَّهِمَ : أن « الجمل » لم يكن ضرورياً ـ إن سلَّمنا بأهميته ـ لدولة الفرس أو دولة الروم ، فقد كانت ساحة المعارك في أراضيهما ، فهما لم تكونا بحاجة لمثل هذه الصلة التي يؤمنها الجَمَل. .

وهذا الجمل ماذا سينقل من الحجاز ؟ هل سينقل التمور ؟ فمن يسمع كلمة تموين يظن آلاف القوافل ، في كل قافلة مائة جَمَل ، تسير رائحة غادية بين الشام والحجاز ، وبين العراق والحجاز ، تنقل الطعام وأفاخر المؤونة واللباس ، وأعنف الأسلحة وأمضاها ... فهل هذا صحيح ؟

وهل الانتصارات التي تمت في أرمينية وإيران وشمال أفريقية والأندلس سببها « الجَمَل » ؟ فأين الجَمَل في معارك ما وراء النهر على حدود الهند والصين ؟ .

☆ ☆ ☆

أما أن الإسلام حركة استعمارية كما يدَّعي « ساندرز » فهو بذلك غافل أو متغافل عن شيئين مهمين يتوضحان :

١ ـ بمقارنة الفتوحات التي شهدها التاريخ بفتوح الإسلام حيث تظهر أوجه الخلاف .

٢ ـ وبتعريف الاستعمار ومعرفـة آثـاره ، حيث يتبين فيما إذا ترك الإسـلام مثل هذه الآثار ! .

☆ ☆ ☆

ـ التاريخ والفاتحون :

عرف التاريخُ بُدَاةً فاتحين أشهرهم وأبرزهم :

ـ **الهيكسوس « الملوك الرعاة »**[٣] : زحفوا على مصر فاحتلوها ، ولكنهم عادوا منها منهزمين ، يحملون حضارة وادي النيل في ديانتها وطرق حياتها وأنماط معيشتها .

ـ **الاسكندر المكدوني** : قام بفتوحاته ، وحاول أن يقيم حضارة عالمية بلُغَة إغريقية وتفكير واحد ، ولكنه خاب وفشل ، وانقسمت ممتلكاته بعد موته إلى دولتين متناحرتين ، وقامت حضارة جديدة ، سميت بالحضارة « الهلنستية » ، وهي مزيج من حضارة يونانية وحضارات البلاد المفتوحة .

ـ **الهون والجرمان والفندال** : هذه القبائل التي جاءت من أواسط آسية وشواطئ بحر الخزر إلى أوربة ، فاستطاعت تغيير وجه أوربة السياسي . وقد سميت غزوات هذه القبائل « بالحروب البربرية » لما رافقها من وحشية وسفك دماء وتهديم وتحريق مدن ... واستطاعت هذه القبائل البدوية إقامة صروح سياسية وممالك قوية من إسبانية حتى ألمانية ، ولكن السيف أكله الصدأ ، واستطاعت حضارة الرومان أن تبتلع هؤلاء البداة الرعاة ، وتصهرهم كلياً ، وأنهت طرائق تفكيرهم التي جاؤوا بها .

---

(٣) أو « هيك سوس » بمعنى ملوك الخيل . وهيك : معناها الملوك . وسوس : معناها الخيل . وهذا المعنى أقرب ، لأن هجماتهم على مصر وسبب انتصاراتهم كان اعتماداً على العربات التي تجرها الخيل بالإضافة إلى الفرسان المرافقين للجيش .

ـ **قبائل المغول** : غيرت وجه آسية كلـه من الصين حتى فلسطين ، وعَظُمَت إمبراطورية جنكيز خان ، واستطاع هولاكو فتح حاضرة العالم آنذاك « بغـداد » . ولكن هل استطـاع المغول إقـامـة حضـارة تبتلع الحضـارات الموجودة في البلاد التي فُتِحَت ؟ كلنـا نعرف أنهم مـا استطـاعـوا ، بـل انصهروا في حضـارة البـلاد التي فتحوها ، وعادوا وهم يعتنقون ديانـة البلاد المغلوبـة ، فغيرت فتوحـاتهم في طرائق تفكيرهم وأسلموا .

وبعد ما سبق :

لماذا لم تستطع الحضارة البيزنطية من طرف والحضارة الفارسية من طرف آخر أن تبتلع إسلام العرب البداة ؟

الجواب واضح بسيـط : فـإن هؤلاء الـذين انطلقوا من جـزيرتهم ، حملـوا إلى العالم حضارة متكاملة .

انطلقوا يحملون رسالة السماء مندفعين بهدي وتزكية رسول الله ﷺ ، فصهروا ولم ينصهروا ، صبغـوا ولم ينصبِغُـوا ، انطلقـوا بمحبـة وإخـاء ومسـاواة وإنقـاذ ، فرحبت بهم الشعوب[٤] .

لم تبتلع الحضارات السابقة البدو العرب لأنهم لم ينتصروا في المعارك فقط ، بل انتصروا في ميـدان الإخـاء الإنسـاني ، وفي ميـدان العلـوم والفكر والفلسفـة ، وفي ميدان القضاء على الطبقيّة والفوقيّة التي تمتع بها الحكام قبلهم .

إن الفتـح الإسـلامي لم ينحسر عن غـالب ومغلـوب ، عن عـزيـز وذليل ، بل انحسر عن تحرير وسلام بين الفـاتحين والشعوب ، انحسر عن وحدة في العقيدة والفكر .

---

(٤) كما مرَّ معنا في جلسة الذميين .

إن من سر انتصار الإسلام وبقائه ، تلك الروح المعنوية التي تحلّى بها أفراد الجيش العربي ، والتي سماها المستشرقون (القوة الخفية) جهلاً أو هضماً لحق الإسلام ، إنها قوة الإيمان في قلوب المؤمنين ، فقد كان المجاهد يفعل الفعلة التي تكسبه مجداً أبد الدهر ، ثم يُخفي اسمه ولا يعلنه ويقنع بثواب الله عز وجل ، وإليك هذا البرهان :

لقي المسلمون في إحدى المعارك شدة وكيداً من أحد رجال الأعداء ، فنادى قائدهم : إن من يقتل هذا الرجل فله ألف دينار ، فلا يصبحون إلا ورأسه ملقى في خيمة القائد ، ولا يُعرف من قتله ، ويسألون فلا مجيب ، فيقوم القائد فيقول : أنشدكم الله من قتل هذا ؟! إن كان يسمع كلامي إلا خرج إليّ ، فيخرج رجل لا يعرفونه ـ مُلَثَّم ـ فيسأله : أأنت فعلت هذا ؟ فيقول : نعم والله ، فيقول له القائد : خذ الجائزة ، فيأبى ويقول : إنما فعلت ذلك لله وحده ، فيقول : ما اسمك ؟ فيقول : وما لكم ولاسمي ؟ أتريدون أن تنشروه في الناس فتضيعوا علي ثوابي وتفسدوا علي نفسي ؟ دعوني .

وحادثة أخرى (وما أكثر أشباهها) :

يذكر عن قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح ما وراء النهر ، أنه وقع بين حجري الرحى عندما كَمَنَ له الترك يوماً ، فقال وهو في هذا الموقف الحرج ، في هذا المأزق الكبير : انظروا إلى محمد بن واسع ماذا يصنع ؟ فأجابوه هو قائم هناك يشير بإصبعه نحو السماء فيشرق وجهه ويقول : والله لهذا الإصْبَع أحب إليّ من عشرة آلاف سيف تشهر ، أقدموا على بركة الله .

كم من فتى فتحت بلاده فقام يخدم الإسلام وعلومه ؟ كم من رجل فتحت بلاده ثم صار قائداً أو بطلاً يحمل راية الفاتحين ، ويسير معهم لنشر الرسالة مُخْلِصاً لها ؟

فقد كان والي المسلمين على البلاد التي فتحت أباً لهم ، بل أجيراً خادماً ، أما قال سيدنا عمر ؟ : « دلوني على رجل استعمله على أمر قد أهمني من أمر المسلمين ،

قالوا : عبد الرحمن بن عوف ، قال : ضعيف ، قالوا : فلان ، قال : لا حاجة لي به ، قالوا : من تريد ؟ قال : أريد رجلاً إذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم وإذا لم يكن أميرهم كان كأنه أميرهم ، قالوا : ما نعلمه إلا الربيع الحارثي ، قال : صدقتم ، فولاه . فهذا التَّخَيُّر للإدارة كان من أسباب محبة الشعوب للفاتحين » .

وكان الحديث عن الإسلام والإيمان حديث المسلم أينما حلَّ فهو داعية كما يقول داوتي[5] في حصافة ودقة ملاحظة عن المسلمين : « حديثهم دائماً عن الدين ، وفي هذا الحديث ما يذكرهم بما ترتاح إليه نفوسهم من التقوى والورع » . فقد كان حديث المسلم عن عقيدة بسيطة ، أساسها وهدفها : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ويذكر « مراتشي[6] : Marrcci » الذي عاش في القرن السابع عشر : « لو قارن كافر بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التي فاقت الذكاء البشري أو التي هي على الأقل من الصعوبة بمكان إن لم تكن مستحيلة وبين عقيدة القرآن ، لانصرف عن الأولى في الحال وأسرع إلى الثانية في ترحيب وقبول » .

والإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع معاني هذه الكلمة مع البساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين ، وهذا ما يفسر نجاح جهد الدعاة المسلمين ، فكانت العقيدة الإسلامية تمتلك ـ ولم تزل ـ قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس .

ويرى الأُسقف « لفروي[7] : Lefroy » أن سر القوة الخارقة التي أظهرها الإسلام في أزهر عصوره في فتوحاته وتقدمه كان في إدراك هذا الدين وجود الله ـ بمعنى أن وجوده هو حقيقة الكون المطلقة ـ وهذا هو الذي أمدّ جحافل المسلمين

---

(٥) راجع الدعوة إلى الإسلام : ص ٤٥٤ .

(٦) راجع الدعوة إلى الإسلام : ص ٤٥٤ .

(٧) انظر الدعوة إلى الإسلام : ص ٤٥٦

بوسائل الفتح التي لا تقهر ، فبعث فيهم إزدراء الموت ، ذلك الأمر الذي ربما لم نعرفه قط في أي نظام سابق ، وكان العمود القوي لأخلاقهم : الثبات في العزيمة ، والقوة في الإرادة وذلك الصبر الذي لا يعرف إلى الشكوى سبيلاً ، كل ما سبق خيَّر أصحاب العقيدة وجمَّلهم .

وجملة القول :

إن الروح الإيمانية العالية التي حملها الفاتحون ، وما حواه الدين من أفكار ومبادئ سهلة توافق العقل البشري ، وأخلاق الفاتحين ، ـ الذين حملوا الرسالة ـ في مختلف المجالات : العسكرية منها والإدارية ... هذه المعاني جعلت المسلم ينفرد بالمثالية ، فانطلق فرداً في أمة استودعت فيها قوة عجيبة ، فصار (صاحب القافلة وحامي الظعينة) يعتقد في نفسه أنه مدار الكون ومحوره .

لقد انفرد جيش الفاتحين المسلمين بصفة قلما وجدت في أمة أخرى ، أو كأنها معدومة في الأمم الأخرى ، وهي : أن المسلم ما كان لينهزم حين كان يستشهد قائده ، بل ينتخب القائد الجديد فوراً كما حدث في مؤتة والبويب ونهوند ، بينما كان بدو التاريخ أمثال الهون والجرمان والمغول قطيعاً يتبع راعياً يقودهم نحو المرعى ، فكان جمع هذا القطيع ينفض عندما تنقضي حياة راعيهم ، كما حدث بعد مقتل أتيلا وجنكيزخان . وقد تنقضي فترة طويلة من الزمن حتى يتهيأ لهذا القطيع راعٍ يجمع شتاته من جديد . أما العربي المسلم فكل واحد في قافلة حُدّد اتجاهها وعرف هدفها ، فلئن قتل القائد ، فإن القافلة تسير ، ويبرز أحد أفرادها ليقودها في الطريق المحدد نفسه ، ويتمّ ما بدأه من سبقه .

والآن : زال سلطان الفاتحين الذين عرفهم التاريخ بزوال سلطانهم السياسي ، أما حضارة الإسلام فهي ـ رغم التبشير ـ لا تزال باقية في كل بقعة كانت تحت السلطان السياسي .

ورغم انحسار السلطان السياسي للفاتحين المسلمين فإن مئات الملايين لا تزال تهفو بقلوبها إلى قبلة الإسلام « مكة المكرمة » فتتوجه نحوها خمس مرات كل يوم . أو تتطلع إليها بشوق لحج أو عمرة . وإذا ذُكِرَ نَبِيُّها صلوا عليه وسلموا حباً واحتراماً ، فأين العامل السياسي والضغط العسكري ؟

لقد بقي الإسلام ، لأن المسلمين الأولين ليسوا كغيرهم من الفاتحين ، إنهم لم ينقلوا الإسلام إلى الأُمم ، ولكن نقلوا الأمم إلى الإسلام .

والإسلام فريد من نوعه في فتحه لجبهات ثلاث في آن واحد : جبهة بيزنطة في الشام ، وجبهة فارس في العراق ، وجبهة أفريقية التي بدأت بعد اليرموك ... ومع ذلك تحقق النصر في الجبهات الثلاث لأنه يملك قوة لا تقهر .

« والإسلام اليوم ما تزال فيه هذه القوة التي لا تقهر ، ولكنه لن ينجح إلا بالعرب ، فقد اختارهم الله تعالى لهذا ، والعالم ينتظر منهم رجوعاً إليه ليحتلوا مركز القيادة ، فلو أن فرنسة مثلاً صار لها أن تقود العالم لأنفقت نصف ميزانيتها لخمسين سنة أو يزيد لتنال هذه المكانة ، وهو مركز مهيَّأ للعرب عن طريق الإيمان ، وبالإيمان وحده . وعرب بلا إيمان لا يجتمعون ، فما اجتمعوا قبله ، ولن يجتمعوا إلا به .

فالعرب والإيمان والقرآن معهم لا انهزام لهم ، بل لا بد وأن ينهزم أعداؤهم ولو طبقت عليهم أمم الأرض . ولكن أين القرآن والإيمان بمعناهما الحي الذي شجع العلم بأنواعه كلها دونما تمييز ؟ »[٨] .



(٨) من محاضرة لسماحة المفتي العام ، الجمعة : ٤ / ٩ / ١٩٧٠ .

الاستعمار :

والآن ـ سيادة القاضي الحكيم ـ لنتحدث عن الاستعمار ليتوضح فرق ما بينه وبين الفتح الإسلامي .

تعريفه : الاستعمار سيطرة فرد على فرد ، أو جماعة على جماعة ، أو دولة على دولة بغية الاستغلال .

وبعد الكشوف الجغرافية في العصر الحديث عرف العالم تنافساً استعمارياً محموماً ، انحسر عن أنواع من الاستعمار أهمها :

١ ـ **الاستعمار الاستيطاني :** وهو أن تقوم دولة بإبادة السكان الأصليين أو إجلائهم لتملأ البلاد بأبنائها . كما حدث في أمريكة عند إبادة الهنود الحمر ، وفي أسترالية عند إبادة السكان الأستراليين الأصليين ، وفي فلسطين عندما أجلي السكان الأصليون عنها وشردوا .

٢ ـ **الاستعمار العسكري :** وهو سيطرة أجنبية بجيوش مقيمة تتصرف بشؤون البلاد تصرفاً مطلقاً ، وتستغلها أبشع استغلال ، كما حدث في الهند أيام الاستعمار البريطاني لها .

٣ ـ **الحماية :** السيطرة على الشؤون الخارجية والأمن والدفاع والاقتصاد ... مع بقاء مظهر من مظاهر الحكم المحلّي .

٤ ـ **الانتداب :** ابتكرته عصبة الأُمم المتحدة بعد الحرب العالمية الأولى (حسب المادة ٢٢ من ميثاقها) ، وهو صيغة متقدمة للاستعمار ، وضع لتأهيل البلاد للاستقلال فإذا به استغلال تام لمقدرات البلاد .

وتطور الاستعمار إلى نوع جديد منه ، هو الاستعمار الحديث ، وهو استعمار اقتصادي يسيطر على مصادر ثروة البلاد ، مع السماح للبلاد المستعمرة اقتصادياً بالتمثيل خارجياً ، وبإنشاء جيش ، وبالانضمام للأمم المتحدة .

☆ ☆ ☆

ومن صور الاستعمار التي حدثت في العالم : « إلى جانب القوة العسكرية والاقتصادية » :

١ ـ استيراد وشراء الزنوج من أفريقية ، بل اختطافهم بأعداد هائلة (٢٠ مليوناً) وترحيلهم إلى أمريكة وأُوربة للعمل في الأَعمال القاسية : كالمناجم .

٢ ـ إبادة السكان الأصليين في بعض المناطق : كأمريكة وأسترالية ، أو تشريدهم كما فعل اليهود في فلسطين .

٣ ـ سيطرة العنصرية والتفريق العنصري في : أمريكة وروديسية وجنوب أفريقية ، أو التمييز الديني كما في فلسطين المُحتَلَّة .

٤ ـ تطاحن الدول المستعمرة فيما بينها طمعاً على خيرات الأمم ، كما حدث بين إسبانية والبرتغال ، والإنكليز والفرنسيين ، والإنكليز والبرتغاليين ، والإنكليز والهولنديين ...

٥ ـ ابتزاز خيرات الشعوب وخاصة المواد الأولية ، وإقامة صرح الصناعة في أوربة وأمريكة بفضل خيرات المستعمرات .

٦ ـ تطور الاستعمار ووصوله إلى « الامبريالية » التي هي استعمار اقتصادي يتجلى في الاحتكارات ، وتوظيف رؤوس الأموال ، والضغط الاقتصادي ...

٧ ـ افقار البلاد الزراعية وابقاؤها زراعية وربطها بقروض مشروطة وبأحلاف وقواعد ...

☆ ☆ ☆

أما آثار ونتائج الاستعمار فهي :

١ ـ التجزئة واغتصاب الأَراضي .

٢ ـ التخلف الاقتصادي في البلاد المُسْتَعْمَرَة .

٣ ـ إبقاء البلدان المستعمَرة معتمدة على وسائل الإنتاج البدائية ، الزراعة فقط .

٤ ـ التدخل في العلاقات الاقتصادية ، وإقامة الحواجز الاقتصادية كالاحتكارات والمضاربة .

٥ ـ انخفاض مستوى المعيشة في البلاد المستَعْمَرَة ، والرفاهية في البلاد المستعمِرَة .

٦ ـ تأخر الصحة وعجز الخدمات الصحية في البلاد المُسْتَعْمَرَة .

٧ ـ انتشار الجهل والأمية وقصور التعليم في البلاد المُسْتَعْمَرَة .

٨ ـ افتقار البلاد المُسْتَعْمَرَة إلى الفنيين والاقتصاديين والعلماء لإعاقة النمو الاقتصادي .

٩ ـ انتشار الرقيق في أوربة وأمريكة .

١٠ ـ بقاء دول عنصرية إلى يومنا هذا ، يسيطر فيها العنصر الأبيض القليل عدداً على الكثرة الساحقة من السود ، كما في دولتي روديسية وجنوب افريقية .

فهل نستطيع استناداً لتعريف الاستعمار العلمي ونتائج وآثار هذا الاستعمار أن نُسَمِّيَ الفتح الإسلامي استعماراً ؟

يمكن القول بكل تأكيد ـ بعد النظر إلى نتائج الاستعمار التي مرت معنا ـ إن الإسلام لم يكن استعماراً لما يلي :

١ ـ الإسلام جاء فحرر الرقيق(٩) .

---

(٩) كما سيمر في الجلسة القادمة .

٢ ـ لم يعرف الإسلام إبادة الشعوب ، فوصيَّة الصدِّيق . شاهد يمكن الرجوع إليها في آداب الجهاد .

٣ ـ السيطرة العنصرية والتميز العنصري ، حدد الإسلام موقفه منها بقول رسوله ﷺ : « **لا فرق بين عربي وأعجمي ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى » . فلقد رفع الإسلام بلالاً ـ وهو عبد أسود ـ فوق الكعبة ليقول : الله أكبر ... وجعل سلمان الفارسي من آل البيت .**

٤ ـ أما ابتزاز خيرات الشعوب ، فيمكن الرجوع إلى الجلسة التي تحدثنا فيها عن الذميين والجزية ، لنرى أن الإسلام خلَّص سكان البلاد المفتوحة من الضرائب الباهظة التي كانت مفروضة من قبل الفرس أو الروم ، ولنعلم أن الجزية مبلغ لا يُذكر مقابل الخدمات التي يستفيد منها الذمي ، **ويدفع المسلم أضعاف ما يدفع الذمي .**

٥ ـ عمَّ الرفاه البلاد التي فتحت ، لاستتباب الأمن فيها ، كما حدث في وادي النيل وسواد العراق . وأصبح الفاتح المسلم أحب إلى الشعوب من الحاكم السابق ، لأنهم رأوا عملياً خير وفائدة الإسلام .

كما عمت نهضة علمية وطبية وكثرت « البيمارستانات » والترجمات وإحياء الكتب القديمة على يد المسلمين ويد سكان البلاد المفتوحة معاً ، فقد كان العلم للجميع ، حتى أن أشهر العلماء في كل الميادين كانوا من سكان البلاد المفتوحة مثل : ابن سينا الذي ولد في « أفشنة » قرب بخارى ، وأبي بكر الرازي المولود في « الريّ » والإمام البخاري المنسوب إلى « بخارى » ، وأبي ريحان البيروني في « خوارزم » . ومحمد بن موسى الخوارزمي المولود في « خوارزم » وأبي الوفاء البوزنجاني المولود في فارس ، وكلهم علماء خلَّدهم التاريخ أرهاطاً في ميادين العلوم بأنواعها .

تساءل د . لوبون : لو انتصر العرب في بواتيه ، فماذا كان يصيب أوروبة ؟ ويجيب : « كان يصيب أوربة النصرانية المتبربرة ، مثل ما أصاب اسبانية من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي ، وكان لا يحدث في أوربة التي تكون قد هُذّبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية ، وملحمة سان بارتيمي ومظالم محاكم التفتيش ، وكل مالم يعرفه المسلمون من الوقائع التي ضَرَّجت أوربة بالدماء عدة قرون »[١٠] .

فهل نَشَرَ الإسلامُ مع الإيمان بالله عز وجل علماً أم جهلاً ؟ نوراً أم ظلاماً ؟ الاستعمار جهل ، والإسلام علم ، فكيف يجتمعان ؟ الاستعمار خراب ، والإسلام إعمار وبناء فكيف يلتقيان ؟

كان النشيد الذي ردده الجيش الإيطالي الذي غزا ليبية سنة ١٩١١ م :

« يا أماه أتمي صلاتك ولا تبكي ، بل اضحكي وتأملي ، ألا تعلمين أن إيطالية تدعوني ، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأُمة الملعونة ، ولأحارب الديانة الإسلامية ، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن ، وإن لم أرجع فلا تبك على ولدك ، وإن سألك أخي عن عدم حزنك عليَّ فأجيبيه إنه مات في محاربة الإسلام » .

١ - سحق الأُمة الملعونة : المسلم لا يسحق حتى حكام الشعوب عند الفتح ، بل أراد هداية ، هنا في النشيد سحق ، والإسلام حياة للشعوب التي فتحت بلادها .

٢ - « محو القرآن والإسلام » ، بينما نجد في القرآن : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إِلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ، أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

---

(١٠) حضارة العرب ، ص : ٣١٧ .

فالإسلام دعوة ، والاستعمار سحق ومحو ، ولن يلتقيا .

وهـذه شهـادة منصفـة من مبشر في افريقيـة ذكرهـا في كتـابـه « الإسـلام في افريقية الشرقية » وصاحب الكتاب هو المبشر « ليندن هاديس » فقـد قرر المؤلف بعد النظر إلى الفـارق الكبير بين أثر العرب وأثر الأوربيين في افريقيـة الشماليـة ، أن البرتغـاليين قضوا فيهـا نحو مـائتي سنـة لم يتركوا بعـدهـا أثراً من آثـار الحضـارة النافعة ، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرى الخراب الذي حل على أيديهم بالمعاهد والمعابـد الإسلامية ، ولم يزالوا حيثـما نزلوا يخربون وينهبون . أمـا العرب الـذين انتقلوا إلى السواحل ، فإنهم نقلوا إليها الكتابة والعمارة وأدوات الحضارة ، وطبعوهـا بطـابعهم في كثير من أحوال المعيشة .

وليس ما حدث من الدمار إنما حلّ في افريقية فحسب ، بل لننظر في مناظر مؤسفة اخرى .

ـ فماذا فعل رعاة البقر بشعب أمريكة الأصلي ـ الهنود الحمر ـ ؟

الجواب : إبادة كاملة .

ـ وماذا فعلت فرنسة في الجزائر مثلاً ؟

الجـواب : مليـون شهيـد ، وقبلهـا اتبـاع سيـاسـة الأرض المحروقـة على يـد « بوجو » .

ـ وماذا عملت انجلترة في استرالية ؟

الجواب : إبادة واستعمار استيطاني ، وفي افريقية تمييز عنصري .

ـ ماذا عملت اسبانية والبرتغال في سكان أمريكا الجنوبية ؟

الجـواب : انتهـاء حضـارة الإنكا والمـايـا والأزتيـك ، وإبـادة كاملـة ، وسفن أسبوعية في قوافل مستمرة لنقل الذهب والفضة إلى اسبانية والبرتغال .

ـ ماذا عملت هولندة في أندونيسية ؟

الجواب : امتصاص خيرات وارهاق الشعب وإذلاله حتى إذا أراد الجندي الهولندي أن يعلو جواده أشار إلى أندونيسي فيركع أمام الهولندي بإزاء جواده ، فيدوس الهولندي بحذائه العسكري على ظهر الاندنوسي ليعلو جواده .

ـ ماذا عملت امريكة المتحضرة في فييتنام ؟

الجواب : ملايين القنابل على الشعب الآمن .

ناهيك عن الجهل والتأخر والسيطرة الاقتصادية على الشعوب .

أما الإسلام :

١ ـ فكثيراً ما مرّ معنا قول المسلم لابن البلاد المفتوحة : لكم مالنا وعليكم ما علينا فما أجمل هذه **المساواة** ؟!.

٢ ـ أهل حمص : لو كان الإسلام استعماراً فلماذا بكوا عند انسحاب المسلمين ؟ بكوا : لأنهم رأوهم مخلصين قولاً وعملاً . مخلصين مادياً وروحياً .

٣ ـ ألم يُسَاوي الإسلام بين ابن فاتح مصر والقبطي وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للقبطي : اضرب ابن الأكرمين ؟ فهذه القصة تدل على نفسية الخليفة ، التي سوّى فيها بين المسلم والقبطي كمواطن له حق الحماية ورفع الظلم عنه .

٤ ـ ألم يذكر الفاتحون لسكان البلاد أسلموا و« نرجع عنكم » ، أي ادخلوا النور والهداية التي أمرنا الله بنشرها ، ونرجع عنكم ولا سلطان لنا عليكم ، أهكذا الاستعمار ؟ وهل عمر مُسْتَعْمِر ؟ وهو الذي أعلن حقوق الإنسان منذ مئات السنين « **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟!** » ، هذا القول الذي ضجت به الدنيا عندما سمعته شعاراً بعد الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ للميلاد . وقد سبق عمر إليه قولا وفعلا بألف عام .

فهل بعد هذا من إيمان راسخ بالحرية ؟

فتح المسلمون مدينة سَمَرْقَنْد التي اشتهرت في الإسلام بعد ذلك بأنها من مواطن الثقافة والحضارة الإسلامية ، فتحها سعيد بن عثمان في عهد الأُمويين ، ثم فتحها عنوة بعد ذلك قتيبة بن مسلم في عهد الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة ٩٦ هـ ، ٧١٥ م . وهناك روايتان في سبب غزو قتيبة لها .

الرواية الأُولى تقول إن أهل سمرقند غدروا بالمسلمين وأجلوهم عنها ، فرد قتيبة على صنعهم هذا بالتوجه إليهم بجيش كبير فتح به بلدهم ، وترك بها حاميَّة كبيرة منه حتى لا يعاودوا الغدر بالمسلمين .

والرواية الثانية تقول إن سعيد بن عثمان فتحها صلحاً على مال يؤدونه للخليفة ـ مقابل حمايتهم كما مر في جلسة « الذميون والجزية » ، فلما مات وتولى بعده قتيبة بن مسلم قيادة الجيوش الفاتحة لأرض خراسان ، استقل هذا المال الذي يدفعونه ، وفتح بلادهم عنوة دون أن يخطرهم بنقض العهد السابق وإيذانهم بالحرب .

هاتان الروايتان رواهما أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، ولم يُرجِّح واحدة منهما على الأخرى ، إلاّ أن منطق الحوادث يؤكد رجحان الثانية على الأُولى .

ومعنى ذلك أن قتيبة قد فتح سمرقند غدراً ، وهذا أمر تأباه تعاليم الإسلام الكريم في شؤون الحرب والمعاهدات .

قبل أهل سمرقند الأمر على مضض . ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ ، وبلغ أهل سمرقند عنه ما ملأ أطراف الدولة وجوانبها من الحديث عن عدله ونصرته للحق ووفائه وبغضه للظلم ، أنابوا عنهم وفداً يَلْقَى الخليفة يشكو له ما كان من قتيبة معهم .

ولقي الخليفة وفدهم ، فعرضوا الأمر عليه ، وقالوا فيا قالوه إن قتيبة غدر بنا ظلماً ، وأخذ بلادنا ، والأمر إليك لترفع عنا ما نزل بنا على يديه .

وتناول الخليفة قرطاساً وقلماً وكتب إلى سليمان بن أبي السرح عامله على سمرقند كتاباً قال فيه : إن أهل سمرقند شكوا ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فاجلس لهم قاضياً يقضي بالحق في هذه الظلامة .

وعاد وفدهم بكتاب الخليفة إلى عامله ، فأحال قضيتهم إلى القاضي جُمَيْع بن حاضر النّاجي قاضي سمرقند ، فاستمع إلى ظلامتهم . واستدعى شهودهم عليها ، ثم استدعى شهوداً من الجيش الذي حضر الموقعة مع قتيبة فشهدوا بالحق ، شهدوا أن قتيبة لم ينبذ إليهم عهدهم ، بل فاجأهم بفتح بلادهم عنوة .

وعندما وضح هذا أمام القاضي أصدر حكمه في هذه القضية صريحاً لا غموض فيه ، قوياً مجلجلاً ناطقاً بعدالة الإسلام وسماحته . قال القاضي : على الجيش الإسلامي الذي فتح سمرقند بقيادة قتيبة أن يتأهب للخروج منها فوراً ، وكذلك يخرج منها المسلمون الذين دخلوها بعد الفتح .

لقد كان لهذا الحكم رجة في أنحاء سمرقند ، إذ ما كان يتصور أحد أن تعاليم الإسلام تمضي على هذا النحو ، وتعطي الحق للقاضي أن يأمر الجيش بالخروج من بلد فتحه واستقر فيه .

وأسرع الوالي يخطر الخليفة بالحكم ويطلب مشورته ، فجاء الردّ بتنفيذ حكم القاضي بحذافيره ، وعندئذ أصدر أمره إلى الجيش بالتأهب للرحيل ، وإلى المسلمين المدنيين بمغادرة سمرقند .

وبينما هذا يجري على قدم وساق ، والجيش يجمع أسلحته وأمتعته ويفك مخياته ، وبينما المسلمون المقيمون بالمدينة يودعون أهل سمرقند ويحزمون أمتعتهم ، ويعلنون بيع أملاكهم فيها ، وإذا بمفاجأة تجدّ لم تكن في الحسبان . فقد جاء وفد

يمثل أهل سمرقنـد إلى الوالي ، وأبلغوه أنهم تشـاوروا فيا بينهم بعـد هـذا الحكم الـذي مـادار بخلـدهم لحظـة واحـدة أن تعـاليم الإسـلام لا تضيـق بمثلـه ، وأنهم مـا كانـوا يتوقعون أن هناك قاضياً يجرؤ على مطالبة الجيش الفاتح بـالجلاء عن بلـد فتحـه ، وأنهم مـا كانـوا يتصـورون أن القـاضي سيهمـل في هـذه القضيـة عصبيتـه لقـومـه ولا يعيرها اعتباراً ولا وزناً ، وأنهم استبعدوا أن يأمر الخليفة بتنفيـذ الحكم كما صـدر مع انصياع الجميع له ، دون أن يكون هناك اعتبار لما يترتب على تنفيـذه من عنت لمن صدر في شأنهم .

أمـام هـذا ، وأمـام حسن المعـاملـة التي وجـدوهـا من إخوانهم المسلمين المقيمين بالبلد حال اقـامتهم بهـا لا يسعهم إلا بـأن يعلنوا عن تنـازلهم عن حقهم والمطـالبـة ببقاء الحال على ما هي عليه ، لأنهم لن يخشوا بعد اليوم ضراً ينالهم .

وإزاء هـذه الرغبـة الصـادقـة من أهـل سمرقنـد ، أُمِرَ الجيشُ بـالبقـاء ، وأُمِرَ المسلمونَ بعدم الخروج ، وكانت فرحة مزدوجة من الجانبين .

وكانت هـذه القضيـة سبباً في إسلام كثير من أهل سمرقنـد ، وانضـوائهم تحت راية الإسلام ، والإخلاص لتعاليه والعمل على نشرها ، والاستمساك بما أمرت بـه ، والاعتصـام بحبل الله المتين ، حتى غـدت سمرقنـد بعـد مركزاً من المراكز الإسلاميـة المرموقة ، يأتيها الداني والقاصي للتزود بزاد المعرفة من علمائها .

هذه قضية خالدة في تاريخ الإسلام بلا جدال ، ونوع فريد في قضـايـا العـالم بلا خلاف ، وإنها لصفحة مجيدة يفخر بها كل مسلم في كل جيل وعصر[١١] .

ـ فهل يقول عاقل استناداً لما سبق : إن الفتح الإسلامي استعمار ؟!

ـ لـو كان الإسـلام استعماراً ، لمـاذا الاحتكام لعمر بن عبـد العـزيـز ؟ ولمـاذا الانسحاب ؟ ثم لماذا القبول ببقاء الجيش في سمرقند ؟!

---

(١١) عن مقال في (العربي) بتصرف . العـدد ٨٦ ينـاير (كانون الثـاني) ١٩٦٦ ، صفحـة ١٠٧ / ١٠٩ قضية في القضاء الإسلامي خالدة بقلم الدكتور أحمد عبد المنعم البهي .

وأخيراً نعرض نقطتين باختصار :

لنر شهادة المؤرخ والمفكر الإسباني « سانسيت أولبورنوت » في الفتح العربي الإسلامي لإسبانية حيث قال : « **إن الفتح العربي لإسبانية جلب إليها كل الخير** » . فهل جلب الاستعمار الأوربي أو الأمريكي الخير للبلاد التي فُتِحَت ؟

صار ابن البلاد التي فتحت يحمد الله عز وجل ويشكره لكونه مسلماً ، ولأنه صار على دين وحضارة الفاتحين ، فهل حمد الله إنسان في مستعمرة إيطالية أو برتغالية أو إنجليزية ... لأنه استعمر وتفرنس أو تطلين ؟.. لا قطعاً ، **فلماذا** ؟؟ !! ..





(الجلسة الثانية عشرة)

الإسلام والرقيق

☆ « شرع الإسلامُ العِتْقَ ولم يشرع الرِّق » .

العقاد

النائب العام : « ولم يتعرض محمد لنظام الرِّقيق بأكثر مما تعرضت الكنيسة المسيحية الأُولى لهذا الأساس الذي قامت عليه الحياة الاقتصادية عند القدماء »[1] . و « لم يبطل محمد الرِّق حالاً ... »[2] . فالرِّق « معضلة إسلامية » .

انتهى النائب العام من شبهته ، فأشار القاضي الحكيم للإسلام أن يتلو مرافعته ، ويظهر الحقيقة ، فوقف الإسلام وقال :

الإسلام : أيها السيد القاضي : إن مسألة الرق في الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يروج لها ويشيعها كثيرون ، لا يتفقون على شيء فيما عدا هذه الحملات ، منهم منكرو الأديان وجماعات المبشرين والمستشرقين الذين يحترفون صناعة الطعن والدس على الإسلام .

ويهدف هؤلاء إلى نشر الدعوة بين شبان المسلمين التائهين في معرض أزياء الأفكار ، وإلى من جهلوا دينهم ، فصدَّقوا ما قيل لهم عنه ، خاصة في مسألة الرِّق ، وكأنهم لا يعلمون أنه الدين الوحيد **الذي شَرَّع للأرقاء شرعة لم يسبقه**

---

(١) كارل بروكلمان في كتابه « تاريخ الشعوب الإسلامية » : ص ٨١ .

(٢) وليم مور ، قال ما سبق معيباً على سيدنا محمد ﷺ أنه لم يلغ الرق (راجع حقوق الإنسان للغزالي ص ١٢٤) .

إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شَأوَ الإسلام في إنصافه لجميع الأرقاء .

ولا شك أن هؤلاء المشيعين هم أول من يعلم تاريخ النخاسة ، وأنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين ، ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا في مدارس المبشرين .

علماً ... أنه ليس في القرآن آية واحدة تحث أو تحض على الرّق ، وكذلك الحديث الشريف !!

وإليك أيها القاضي الحكيم دفاعي(٣) :

كيف عاملت الأمم الرقيق ؟ :

١ - **في مصر** : بنيت الأهرام على أكتاف الرقيق ، وعلى أكتافهم أُقيمت المعابد ونحتت المسلات .

٢ - **في الصين** : كان الرقيق منتشراً ، وسببه الفقر ، فقد كان يبيع الإنسان نفسه وأولاده تخلصاً من العوز(٤) .

---

(٣) اعتمدنا في هذا البحث ، الكتب التالية :

- مقارنة الأديان جـ ٣ ، للدكتور أحمد شلبي .
- ما يقال عن الإسلام ، للمرحوم العقاد . ط : مكتبة دار العروبة .
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، للمرحوم العقاد . ط : كتاب الهلال .
- حقوق الإنسان ، لمحمد الغزالي . ط : المكتبة التجارية .
- شبهات حول الإسلام ، لمحمد قطب . ط : مكتبة وهبة .
- تاريخ الإسلام ، للدكتور حسن إبراهيم حسن . جـ ١ ص ١٨٦ / ١٩٢ .

(٤) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ٢٠٥ .

٣ ـ **في الهند :** ساد نظام الطبقات ، وكان العبيد يمثلون الغالبية العظمى من الشعب الهندي ، وكان لا يحق لهم امتلاك شيء .

٤ ـ **في فارس :** دم الآلهة يجري في عروق الحكام ، فهم طبقة فوق طبقة البشر ، وإن من سواهم عبيد لهم .

٥ ـ **في اليونان :** كان استعباد البشر للبشر مطلقاً وبكثرة ، وكان قرصانهم يتخطفون أبناء الأمم الأخرى في مختلف السواحل ويبيعونهم في أسواق أثينا وغيرها ، وكانت تقام للعبيد أسواق النخاسة ، فامتلأت بيوت الإغريق بالإماء والعبيد(٥) .

وقسّم الفلاسفة اليونان الجنس البشري إلى قسمين : **حُرٌّ بالطبع ، ورقيق بالطبع** ، وقالوا : إن الثاني ما خُلق إلا لخدمة الأول ، وإن عليه أن يقوم بالأعمال الجسمانية ، ويقوم الجنس اليوناني وهو الحر بالطبع بالأعمال الفكرية والإدارية والمناصب الهامة(٦) .

ويرى أفلاطون في الجمهورية الفاضلة حرمان العبيد من حق المواطنة وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم(٧) . ويوافقه تلميذه أرسطو على ذلك ، فهو يجعل كلمة : (المواطن) مرادفة لكلمة (حُرّ) ، ويرى أن وظيفة العبيد تحصيل الثروة الضرورية للأسرة والقيام على خدمتها(٨) .

٦ ـ **عند الرومان :** أما عند الرومان فإن النخاسين كانوا يتخذون **الحروب**

---

(٥) الشيخ محمد الخضر حسين ، مجلة الأزهر ، صفر سنة ١٢٧٣ هـ .

(٦) النظم الإسلامية للدكتورين حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن : ص ٣٥٩ ، وحقائق الإسلام : ص ٢١٧ .

(٧) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : ص ٢١٦ .

(٨) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ٢٠٦ .

الكثيرة التي اعتاد الرومان أن يشغلوها مواسم لتجارتهم ... حتى لقد كان الغنيُّ من النخاسين يشتري ألف إنسان صفقة واحدة عقب نصر كبير تعده الإنسانية خزياً ، ويعده تاريخ الاستعمار الروماني عظمة ومجداً ، وفي روما كانت للرقيق سوق تعرض فيها هذه البضائع للمزاد العلني على رابية مرتفعة : فيكون الرقيق عرياناً من كل ما يستره ذكراً أو أنثى ، كبيراً أو حدثاً ، ولمن شاء من الناس أن يدنو من هذا اللحم الحي المعروض للبيع فيجسّه بيده ، ويقلبه كيف يشاء ولو لم يشتره في النهاية ، **والقانون الروماني لم يكن يعتبر الرقيق إنساناً** له شخصية ذات حقوق على الإنسانية ، بل كان يعتبر شيئاً من الأشياء كسائر السلع التي يباح الاتجار بها[٩] .

ومن وسائل الاسترقاق عند الرومان أنهم **كانوا يسترقون المَدِين الذي لم يتيسر له الوفاء بِدَيْنِهِ ، فيصبح المَدِين رقيقاً للدّائن**[١٠] .

٧ ـ عند اليهود : أباحت التوراة الاسترقاق بطريق الشراء أو السبي في الحرب ، وجعلت للعبري أن يستعبد العبري إذا افتقر ، فيبيع الفقير نفسه لغني ، أو يقدم المَدِين نفسه للدائن حتى يوفى له الثمن .

ففي سفر الخروج : « إذا اشتريت عبداً عبرياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً[١١] ، وأباحت التوراة أن يبيع بنته فتكون أمة للعبري الذي يشتريها »[١٢] .

أما في الحروب فهو طريق أيسر : « حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود

---

(٩) مجلة الأزهر ، صفر سنة ١٣٨٣ هـ ، مقال الشيخ محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر السابق) .
(١٠) الرّق في الإسلام لشفيق باشا : ص ٢٣ .
(١١) سفر الخروج : ١٧ : ١ .
(١٢) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ٢٠٨ .

فيها يكون لك للتسخير وتُستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الربُّ إليك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافي المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأُمم هنا ، أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقي منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً ... »[13] .

٨ ـ **عند المسيحية** : نقل الدكتور جورج برست[14] : **أن المسيحية لم تعترض على العبودية** لامن وجهها السياسي ، ولامن وجهها الاقتصادي ، ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم في آدابهم جهة العبودية ، حتى ولا على المباحثة فيها ، ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد ، **ولاحركت العبيد إلى طلب الاستقلال** ، ولا بحثت عن مضار العبودية ولا عن قساوتها ، **ولم تأمر بإطلاق العبيد أصلاً**[15] .

وأمر بولس الرسول العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح ، فقال في رسالته إلى أهل (أفسس) : « أيها العبيد ! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدعة العين كمن يرضي الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً ... »[16] .

وأوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية ، **وأوجبها آباء الكنيسة لأن**

---

(١٣) سفر التثنية ، الإصحاح العشرون (والنص في حقائق الإسلام ... ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤) .

(١٤) أحد رجال الجامعة الأمريكية الأولين في بيروت .

(١٥) قاموس الكتاب المقدس ، المجلد الثاني : ٦٠ / ٦١ طبع المطبعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٠١ .

(١٦) انظر : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص ٢١٦ .

الرق كفارة من ذنوب البشر ، **يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم** ، وأضاف القديس الفيلسوف توما الإكويني **رأي الفلسفة** إلى رأي الرؤساء الدينيين ، **فلم يعترض على الرق بل زَكَّاه** ، لأنه على رأي أُستاذه أرسطو حالة من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع الناس من الدنيا بأهون نصيب(١٧) ...

وفي المعجم الكبير للقرن التاسع عشر « لاروس » : لا يعجب الإنسان من بقاء الرق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم ، **فإن نواب الدين الرسميين يقرون صحته ، ويسلمون بمشروعيته** ... ـ وجاء فيه ـ ... الخلاصة **أن الدين المسيحي ارتضى الاسترقاق** تماماً إلى يومنا هذا ويتعذر على الإنسان أن يثبت أنه سعى في إبطاله(١٨) ...

٩ ـ الرِّق في أوربة : ليس لأوربة تاريخ قديم يذكر سوى تاريخ الجرمان ، ويقول الأُستاذ شفيق « باشا » عن موقف الجرمان من الرِّق ما يلي : « وكانت **المقامرة** تخرج بالمولعين بها إلى حد أنهم يقامرون على نسائهم وأولادهم ، بل على حرياتهم الشخصية ، فكان ذلك عند الجرمان مصدراً من مصادر الرِّق »(١٩) .

أما في العصور الوسطى ، فقد ساد نظام الإقطاع في أوربة ، فكان المزارعون عبيد الملاك ، يباعون مع الأرض إذا بيعت الأرض ، وليس لواحد منهم الحق في الخروج من أرض إلى أرض أُخرى لأنه كان كالآلة تابعاً للأرض مملوكاً لصاحبها . **ولم يُلْغَ الرِّق في أوربة إلا في القرن التاسع عشر** . وكان في الحقيقة إلغاء لاسترقاق الأُوربيين فقط ، وتحويلاً لنشاط التسلط تجاه آسية

---

(١٧) حقائق الإسلام : ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(١٨) حقوق الإنسان : ص ١٢٥ .

(١٩) الرق في الإسلام : ص ٣١ .

وأفريقيـة ، وقـد كان الاسترقـاق في آسيـة منتشراً بـاسم **الاستعمار** ، **أمـا في أفريقية فكان استرقاقاً سافراً** ، وكانت أسواق النخاسين التي فتحها الأُوربيون تتمتع برواج عظيم وتفيض بربح وافر على تجارها . وفي القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتـاسع عشر **تحـالف تجـار الرقيـق الأبيض** مع بعض زعمـاء القبائل الأفريقيـة ، **وأخـذوا يهجمون على مسـاكن الأفريقيين ويخطفون** أطفالهم ويعرضونهم للبيع في أسواق العبيد[٢٠] .

وجـاء في دائرة المعـارف البريطـانيـة ، الجـزء الثـاني صفحـة ٧٧٩ مـادة SLAVERY .

« إن اصطياد الرقيق من قراهم المحاطة بالأدغال كان يتم بإيقـاد النـار في الهشيم الذي صنعت منه الحظـائر المحيطـة بـالقرى ، حتى إذا نَفَرَ أَهْلُ القريـة إلى الخلاء ، تصيدهم الإنجليز بما أعدوا لهم من الوسائل » .

وكان قسم منهم يموت **أثنـاء التنص الآدمي** في الرحلـة إلى الشـاطئ الـذي ترسو عليـه مراكب الشركـة الإنجليزيـة وغيرهـا ، وكان ثلث البـاقين يموت بسبب تَغَيُّر الطقس ، ويموت في أثناء الشحن حوالي ٤,٥ ٪ و ١٢ ٪ أثناء الرحلة ، أما مَنْ كانوا يموتون في المستعمرات فلا حصر لهم ، فإن مستعمرة « جامايكا » البريطـانيـة وحدها قد دخلها سنة ١٨٢٠ م ما لا يقل عن ثمانمـائـة ألف رقيق ، ولم يبق في تلـك السنة منهم سوى ثلثمائة وأربعين ألفاً[٢١] .

وكانت الملكة « اليزابيت الأُولى »[٢٢] تشـارك في الاتجـار بـالرقيـق ، وكانت شريكة « لجون هوكنز » أعظم نخـاس في التـاريخ ، وقـد رفعتـه إلى مرتبـة

---

(٢٠) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ٢١٠ .

(٢١) انظر : حقوق الإنسان ، ص ١٢٦ . وكانت نسبـة القنص الآدمي واحـد إلى ثمـانيـة ، أي : كي يتمكن الأوربي من استرقاق عبد يقتل ثمانية لكونهم يدافعون عن أنفسهم في مهدهم الأول .

(٢٢) من ١٥٥٨ إلى ١٦٠٣ ميلادية .

النبلاء ، إعجاباً ببطولته ، وجعلت شعاره رقيقاً يرفل في السلاسل والقيود[٢٣] .

ومن المفارقات الطريفة : أن السفينة التي أعدَّتها لجون هوكنز ، كانت تسمى « **يسوع** » ، وكان عدد السفن المخصصة للاتجار بالرقيق **١٩٢ سفينة** تتسع حمولتها في الرحلة الواحدة ٤٧,١٤٦ رقيقاً ، **وقد طلبت انجلترا من رجال الدين مبرراً لهذه التجارة ، فأسعفوها بنصوص التوراة التي تقدمت في الكلام على الرّق عند اليهود**[٢٤] .

١٠ ـ **الرّق عند العرب :** انتشر الرّق عند العرب قبل الإسلام انتشاراً كبيراً ، وكانت وسيلته الحروب التي لاتنقطع في الجزيرة العربية ، وكان الغالب يأسر من المغلوبين من يستطيع ليصبحوا عبيداً له ، حتى استرقت قبائلُ قبائلَ أُخرى ، وكان من وسائل الرق عند العرب اختطاف الشخص أو الجماعة التي لاحماية لها في طريقها .

وفي كل ماسبق ، فقد كان الرق يشمل **الجسم والفكر** ، أي على الرقيق أن يتبع سيده في دينه وتفكيره ، ولاحق للرقيق أن يفكر أو أن يتبع تفكيراً آخر غير تفكير سيده ، وللسيد أن ينزل برقيقه من العقاب مايشاء لأنه يملكه ملكاً كاملاً .

☆ ☆ ☆

الإسلام والرقيق :

« ونحن نحب أن نُلَخِّصَ ماصنعه الإسلام في هذه المسألة قبل أربعة عشر قرناً في بضع كلمات : **إنه حرّم الرّق جميعاً** ولم يبح منه إلا ماهو مباح إلى يومنا هذا ، وفحوى ذلك أنه قد صنع خير مايطلب منه أن يصنع ، **وأن الأُمم**

---

(٢٣) حقوق الإنسان : ص ١٢٧ .

(٢٤) حقوق الإنسان : ص ١٢٧ .

الإنسانية لم تأت بجديد في هذه المسألة بعد الذي تقدم به الإسلام قبل ألف ونيف وأربعمائة عام »[٢٥] .

ولم يلغ الإسلام الرِّق بطريق مباشر ، إلا أنه **ألغاه بخطى ثابتة مدروسة وعملية** ، أما لماذا لم يلغِ الإسلام الرِّق بطريق مباشرة ؟ فالأسباب نوجزها :

١ ـ **التكافؤ في المعاملة « أو المعاملة بالمثل » :** فقد كانت هناك حروب بين المسلمين وغير المسلمين ، وكان غير المسلمين يستحلون استرقاق المسلمين ، فكان لابد أن يعاملهم المسلمون بالمثل[٢٦] ولنسأل أدعياء التحرير في العصور الحديثة : ماذا يحدث في هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقاً عليها بين المتقاتلين[٢٧] ؟..

٢ ـ للإسلام فلسفة في معالجة الشؤون التي ليست أساساً من أسسه ، ففي معالجة هذه الشؤون **تقضي فلسفة الإسلام أن تعالج برفق وأناة حتى يصل الإسلام إلى هدفه بدون أن يحدث اضطراباً بين معتنقيه** ، فشرب الخمر والرِّق وتعدد الزوجات ، للإسلام تجاهها هدف ، ولكنه يصل إلى هدفه بيسر وعلى خطوات أحياناً ، أما الأمور الرئيسة في الإسلام : كتوحيد الله وترك عبادة الأصنام ، فإنه يواجهها مواجهة صريحة مباشرة ليقطع دابرها من أول شوط .

والآن ... ما النظام الذي وضعه الإسلام ليلغي الرِّق بطريق غير مباشرة ؟

وضح الإسلام مبدأين مهمين وهما : « **تضييق المدخل ، وتوسيع المخرج »** ، أو ضَيَّق موارده وأفْسح مصارفَه ، ويمكن القول أنه سدَّ منابع الرِّق ووسَّع مصارف العتق ...

---

(٢٥) حقائق الإسلام : ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

(٢٦) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ٢١١ .

(٢٧) مايقال عن الإسلام : ص ١٩١ .

أ - تضييق المدخل[٢٨] :

« أو سد الموارد والمنابع » :

جاء الإسلام وللرّق وسائل أو مداخل كثيرة - سبق أن ذكرناها - ومنها : البيع والمقامرة والنهب والسطو ووفاء الدّيْن والحروب والقرصنة والطبقية .. - **فألغى الإسلام جميع هذه المداخل ، ولم يبق منها إلا مدخلاً واحداً ، وقد ضيقه حتى لم يعد ينفذ منه إلى الرّق إلا القليل النادر أشد الندرة** ، وذلك المدخل هو الجهاد في سبيل الله لرد اعتداء يقوم به غير المسلمين بشرط ألا يكون الأسير وقت أسره مسلماً ولو كان من جيش الأعداء .

فلا استرقاق إلا في حرب شرعية ، مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم ، « فالذي أباحه الإسلام من الرّق مباح في أمم الحضارة التي تعاهدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر إلى الآن ... لأن هذه الأمم التي اتفقت على معاهدات الرق ، تبيح الأسر واستبقاء الأسرى أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة ...

وهذا هو كل ما أباحه الإسلام من الرّق أو من الأسر على التعبير الصحيح ... »[٢٩] .

ومن الأدلة الواضحة على **أن الإسلام يُضَيِّقُ مدخل الرّق ، ويميل للحرية** ، ماذكره الفقهاء من أنه إذا وجد طفل ادعى نصراني أنه « ابنه » وادعى مسلم أنه « عبده » ، فإنه يقضى به للنصراني حتى لا يدخل الطفل باب الرّق ولو كان في ذلك إسلامه[٣٠] .

---

(٢٨) انظر مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ٢١٢ .

(٢٩) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : ص ٢١٩ .

(٣٠) د . محمد يوسف موسى : مجلة « المسلمون » العدد الأول ، ص ٨ .

ومن تضييق المدخل أن الإسلام وضع تنظيماً لأسرى الحرب لم يكن معروفاً قبل الإسلام ، فقد اشترط الإسلام على الأسرى ليعتبروا أرقاء : أن يضرب الإمام عليهم الرِّق ، أما قبل أن يضرب الإمام الرق على الأسرى فيمكن أن تتم نحوهم التصرفات الآتية :

١ ـ **تبادل الأسرى** بين المسلمين والأعداء ، كما كان يحدث مثلاً بين المسلمين والروم على ضفتي نهر « اللامس » ، فكان التبادل يتم ، حتى إذا بقيت لأحد الجانبين بقية من الأسرى افتديت بالمال .

٢ ـ **المن على الأسرى** من غير مقابل ، تنفيذاً لقول رسول الله ﷺ : « **عودوا المريض ، وأطعموا الجائع ، وفكوا العاني** »[٣١] .

٣ ـ توسيع المخرج[٣٢] :

« أو فسح وتوسيع المصارف » :

اعتبر الإسلام الرق عارضاً ، وعمل على إزالته ، ففتح الأبواب ليعيد الحرية إلى الرقيق ، وهذه الأبواب هي :

١ ـ **العتق** : (تحرير الرقبة) حض عليه ووعد بالثواب العظيم لمن يعتق الرقاب : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَين ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ، فَلا اقتَحَمَ العَقَبَة ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد : ٨ ـ ١٣] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار** » .

٢ ـ **جعل الإسلام العتق وسيلة للتكفير** عن يمين حنث فيها الإنسان ،

---

(٣١) رواه البخاري .

(٣٢) انظر مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ٢١٤ .

أو التكفير عن بعض الذنوب ، ﴿ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ في أَيْمَانِكُمْ ولكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَاتُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [المائدة : ٨٩] .

﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء : ٩٢] .

﴿ وإنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء : ٩٢] .

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِم ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ [المجادلة : ٣] .

« **فالعتق إذن هو الذي شرعه الإسلام في أمر الرّق ، وأما نظام الرّق بأنواعه فقد وجده مشروعاً فحرمه جميعاً** ، ولم يبح منه إلا ما هو مباح إلى اليوم في نظام الأسرى وتسخيرهم في أعمال من يأسرونهم من المقاتلين ، **وسبق القوانين الدولية بتقريره إلزام الدولة واجب السعي في إطلاق أسراها وإعتاقهم بالفداء ، وشجع ذلك بالوسائل الفردية فيما تنتقل به الذمة إلى الأفراد من مالكي الأرقاء بعد وفاء الدولة بذمتها .**

ولا يقال هنا إنه عمل كثير أو قليل ، بل يقال إنه العمل الوحيد الذي استطيع في محاربة نظام الرّق ، ولم تستطع أمم الإنسانية ما هو خير منه في علاج هذه المسائل إلى الآن ... »[٣٣].

٣ ـ **المكاتبة** : وهي عقد بين السيد والعبد لإعادة الحرية نظير دفعه مالاً لسيده . ويرى بعض الفقهاء أن المكاتبة واجبة[٣٤] إذا طلبها العبد استناداً لقول الله

---

(٣٣) حقائق الإسلام ص ٢٢٢ .

(٣٤) عند الإمام أحمد بن حنبل المكاتبة واجبة متى دعا العبد سيده إليها . وإذا امتنع المكاتب على الأداء ومعه ما بقي من المال المتفق عليه ، فالحنفية تجبره على الأداء حرصاً على تحريره . وإذا لم يكن معه مال وهو قادر على الكسب فالمالكية تجبره على الكسب .

عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُم فِيهِمْ خَيْراً ﴾ [النور : ٣٣] .

وبعد المكاتبة يُعطى العبد حق التجارة والعمل وحق التملك ، وحق العمل لنفسه ، فلا يعمل لسيده ، بل يتحرر لكسب سداد الأقساط ـ التي سُميت في المكاتبة نُجُوماً ـ .

كما جعل الإسلام من الزكاة حقاً للعبد مساعدة له على سداد مكاتبته : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [التوبة : ٦٠] . كما يحض الإسلام ويلزم السيد أن يحط عن العبد بعض الأقساط : ﴿ وَآتُوهُم مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [النور : ٣٣] .

٤ ـ **التدبير**[٣٥]: وهو أن يوصي السيد بأن يكون عبده حراً بعد موته ، وسمي كذلك لأن السيد تَدَبَّر أمر دنياه فأبقى العبد ليعاونه في الدنيا ، وتَدَبَّر أمر آخرته فأوصى بعتق العبد بعد موته ليساعده ذلك في الآخرة بتكثير حسناته ، والتَّدبير موصى به ويحث الشرع عليه .

٥ ـ إذا أصاب السيد « أَمَتَهُ » فحملت منه ووضعت ، حرم بيعها وهبتها وعتقت بموته وكان ولده منها حراً ، وهذا بخلاف النظام الذي كان متبعاً عند العرب قبل الإسلام والذي كان يقضي بأن تظل الأَمَةُ وإن ولدت لسيدها وأن يكون ابنها منه عبداً .

« كان عنترة العبسي عبداً لأبيه ، ولما هوجمت عبس لم يدافع عنترة عنها . فقال له أبوه : كرّ يا عنترة ، فأجاب : إن العبد لا يعرف الكر ، وإنما يعرف الحلاب والصرّ (الشد على الناقة) فقال له أبوه : كرّ وأنت حر . فلم ينل عنترة

---

(٣٥) ويقال معنى التدبير ـ على الأصح ـ من قال له سيده « أنت دبر حياتي حر » .

الحرية إلا عندما احتاجت القبيلة إلى كفاحه ونضاله ، وقبل ذلك كان عبداً لأبيه » .

وفي غزوة بني المصطلق رأى النبي ﷺ أن يتزوج أسيرة من هذا الحي المغلوب ، ليرفع مكانته ، وتم له ما أراد وتحرج الناس من استرقاق الأصهار الجدد فأطلقوهم[٣٦] .

٦ ـ **إن من أعتق بعض عبد يملكه ، عتق كله** ، فإن كان يملك بعض العبد وله شريك يملك باقيه فأعتق نصيبه عُتِقَ العبدُ كلُّه ، وقُوِّم عليه ما يملكه الشركاء إن كان موسراً ودفع لهم ثمنه لقوله ﷺ : « **من أعتق شركاً له في عبد وكان موسراً قُوِّم عليه ثم يُعْتَق كُلُّه** » . وإن كان مُعْسِراً سعى العبد في قيمة الباقي لأنه هو الذي انتفع بالحرية .

٧ ـ **إن مَلَكَ واحداً من ولده أو والديه عُتق عليه في الحال** : كأن كان لرجل أب وابن عبدين عنده ، فأعتق الابن مثلاً فنال الابن حريته ، ولسبب من الأسباب ملك الابن أباه ، فَيُعْتَق فوراً والعكس صحيح . ومن الأسباب الداعية لامتلاك أحدهما الآخر : هبة سيده له ، أو عمله وشرائه أو مكاتبة أو كفارة يمين ...

وقبل الانتقال إلى « معاملة الرقيق في الإسلام » قد يعرض سؤال وهو : **لماذا لا يوهب الأسير الحرية إذا أسلم ؟!**

والجواب : خشي الإسلام ألاعيب المنافقين ، فقد يظهر أحدهم الإيمان حتى إذا نجا بنفسه عاد إلى قومه يحمل السلاح ليسيء إلى من أحسنوا إليه ، وإذا كان الرجل

---

(٣٦) حقوق الإنسان ص ١١٣ .

صادقاً في الإسلام فلن تضره مهلة يسترد بعدها حريته في منفذ من المنافذ السابقة[٣٧] .

وكما سبق يتضح عملياً أن **الإسلام أنهى الرّق من الناحية العملية ، فالمرأة ينتهي رقها إذا أصابها سيدها وحملت منه ، وهذا يجعل عنصر النساء قريباً جداً من الحرية . أما الرجال فقد فتحت لهم الأبواب المتعددة التي ذكرناها وأبرزها الدعوة إلى تحرير الرقاب وباب المكاتبة الذي يلتزم السيد فيه أن يقبله وأن يساعد عبده على الوفاء بما التزم .**

☆ ☆ ☆

معاملة الرّقيق في الإسلام :

كفل الإسلام زوال أثر الرّق عملياً ، وذلك بمحو الفوارق والتوصية بالأرقاء . وأبرز ألوان المعاملة التي أتاحها الإسلام للأرقاء هي **الرّق يتصل بالعمل الجسماني ولا يتصل بالعقل والفكر** ، فالرقيق يعمل لسيده ويطيعه في حدود هذا العمل ، ولكنه حرّ في تفكيره يعتنق الدين الذي يرضيه ، فلا يجوز منه أن يرتكب إثماً أو يقتل نفساً بغير حق ، وقد عدّ العرب في مطلع الإسلام هذا التفكير الذي يقضي بتحرير عقل الأرقاء ثورة عارمة ، وقتلوا عبيدهم وعذبوهم حينما صاح هؤلاء العبيد في وجوه سادتهم قائلين :

لقد اعتنقنا الإسلام وليس لكم سلطان على عقولنا ، سلطانكم محدود بالأعمال الجسمانية التي لا تنافي الدين أو الخُلُق . وفي ذلك يقول ابن القيم : والسيد لا حق له في ذمة العبد ولا في إنسانيته . وإنما حقه في بدنه[٣٨] .

---

(٣٧) انظر : حقوق الإنسان ص ١١٦ .

(٣٨) أعلام الموقعين : ج ١ ص ٣٥١ .

وخطوة أخرى خطاها الإسلام في معاملة الرقيق ، هي **مساواته بالأحرار ، في أكثر الشؤون . وقد روى الشيخان قوله عليه الصلاة والسلام : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جوع عبده جوعناه »** . ونقل الإسلام التفاضل إلى مقياس جديد هو التقوى ، وبناء على هذا المقياس الجديد **زوج الرسول ﷺ ابنة عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد** ، وولى زيداً هذا قيادة جيش المسلمين الذاهب لمحاربة الروم في موقعة مُؤْتَة وبين جنوده كثير من عظماء الإسلام ، وولى بعد ذلك أسامة بن زيد قيادة جيش المسلمين لحرب الروم أيضاً وبين جنوده شيوخ المسلمين وعظماؤهم . وكان من خيرة صحابة الرسول : بلال ، وسلمان الفارسي ، وصهيب رضي الله عنهم .[٣٩]

كما قرّر الإسلام ألا يطلب من الأرقاء أن يعملوا ما فوق طاقتهم ، وأن يكون من حقهم أن يأكلوا مما يأكل سادتهم منه ، بل أن يلبسوا من لباسهم ولعل هذا أرقى درجات المساواة .

روى أبو داود عن المعرور بن سويد قال : دخلنا على أبي ذر بالربذة فإذا عليه برد وعلى غلامه مثله ، فقلنا : يا أبا ذر ، لو أخذت برد غلامك إلى بردك فكانت حُلَّة وكسوته ثوباً غيره ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليكسه مما يكتسي ، ولا يكلفه ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه** »[٤٠].

---

(٣٩) وقامت للرقيق دولة لها نصيبها في تغيير مجرى التاريخ ، عندما هَزَمَتْ على يد قُطُز وبيبرس التتار في عين جالوت عام : ١٢٥٩ م ، إنها « دولة المماليك » ، والتي قامت بعد الأيوبيين وحتى دخول العثمانيين بقيادة سليم الأول إلى بلاد الشام عام ١٥١٦ م بعد معركة مرج دابق ومقتل قانصوه الغوري ، وإلى مصر عام ١٥١٧ م بعد معركة الريدانية .

(٤٠) البخاري .

كما أكرم الإسلام الرَّقيق بصفة جعلته يشعر بكيانه وذاتيته ورفعة روحه وذلك بتقديمه إماماً في الصلاة ، فيقدم العبد على الحر فيما يفضله فيه في شؤون الدين والدنيا . وكان للسيدة عائشة أم المؤمنين عبد يؤمها في الصلاة[٤١] .

قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَالجَارِ ذِي القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ وَابنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ﴾ [النساء : ٣٦] . فقرنَ عز وجل المعاملة بالإحسان للوالدين مع ملك اليمين .

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال : « **ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى ، قال : من أكل وَحْدَه ، ومنع رِفْدَهُ ، وضرب عَبْدَه** » . ورأى عليه أفضل الصلاة والتسليم رجلاً يركب دابته وخلفه عبده يجري فصاح به : « **يا عبد الله ، احمله خلفك إنما هو أخوك وروحه مثل روحك** » .

ومن نتائج التعليمات ما حصل لأبي عزيز بن عمير ـ أخي مصعب بن عمير رضي الله عنه ـ فقد روى أبو عزيز قائلاً : « كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر[٤٢] . فكانوا إذا قدَّموا غذاءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله إياهم بنا » . ووصية رسول الله ﷺ كانت عند توزيع الأسرى : « **استوصوا بالأسرى خيراً** » .

وأعطى النبي ﷺ أبا الهيثم أسيراً وأوصاه بإحسان معاملته ، فلما أخبر زوجته بذلك قالت له : لن نستطيع أن ننفذ وصية الرسول إلا بإعتاقه ، فأعتقه .

وذكر ابن هشام أن النبي ﷺ أمر بإكرام ثمامة بن أثال الحنفي حين أسر . فقال : أحسنوا إساره . ورجع رسول الله إلى أهله فقال : « اجمعوا ما كان عندكم من

---

(٤١)انظر : حقوق الإنسان ... ص ١١٦ .

(٤٢)أعتق النبي ﷺ من أسرى بدر من علم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة .

طعـام فـابعثوا بـه إليـه » . وأمر بلقحتـه ـ النـاقـة الحلوب ـ أن يغـدى عليـه بهـا ويراح .

وكان مما قاله النبي ﷺ قبل وفاته بخمس ليـال : « **الله ، الله ، فيما ملكت أيمانكم** » .

وقال علي كرم الله وجهه : « **أني لأستحي أن أستعبد إنسـانـاً يقول إن ربي الله** » . وأعطى مرة رضي الله عنـه غلامـه دراهم ليشتري بهـا ثـوبين متفـاوتي القيمة ، فلما أحضرهما أعطاه أرقهما نسيجاً وأغلاهما قيمة ، وحفظ لنفسه الآخر وقـال له : أنت أحق مني بأجودهما لأنك شاب وتميل للتجمل ، أما أنا فقد كبرت[٤٣] .

ويروي التاريخ لنا **أجمل صور المساواة ، وذلك عنـدمـا قـدم سيـدنـا عمر بن الخطاب إلى القدس ومعه غلامه**[٤٤] ولم يكن معهما إلا ناقـة واحـدة ، فكانا يركبانها على التناوب إلى أن اقتربا من تلـك المـدينـة ، وكانت النوبـة للغلام فأركبه عمر وسعى خلفه ماشياً حتى وصلا ، فلامه أبو عبيدة على ذلـك قـائلاً : إني أراك تصنع أمراً لا يليق ، فالأنظار متجهة إليـك ، فـأجـاب ابن الخطـاب في قوة وإيمان بالله قائلاً : « **قد كنا أذل الناس وأقل الناس ، فأعزنا الله بـالإسلام ومهما نطلب العزة بغيره يذلنا الله** » .

وقد أعتق عمر بن الخطاب أَمَةً عندما ضربهـا سيـدهـا ، تطبيقـاً لقولـه عليـه الصلاة والسلام : « **من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه** » .

ورفع عبدٌ لزين العابدين شاةً وقد كسر رجلها ، فسألـه سيـده : لمـاذا فعلت هكذا ؟ فقال : لأثير غضبك ، فرد عليه : وأنا سَأُغْضِبُ من علَّمـك وهو إبليس ، اذهب فأنت حرّ لوجه الله .

---

(٤٣) تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٩١ .

(٤٤) من آداب الإسلام أن النبي ﷺ أمر عدم القول للعبد الرقيق عبدي ، بل كرمه بقوله : فتاي .

ودخل رجل على سلمان الفارسي[٤٥] رضي الله عنه فوجده يعجن فقال له : يا أبا عبد الله ما هذا ؟ قال : بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجمع عليه عَمَلَيْن .

ويذكر أن باي تونس سنة : (١٢٦٢ هـ / ١٨٤٥ م) رأى أغلب المالكين لا يحسنون معاملة الأرقاء فاتخذ قراراً بتحرير الأرقاء جميعاً ، ووافق رئيس الفتوى في تونس على ذلك[٤٦].

وأخيراً ... قال يحيى بن سعيد : « بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية فجمعتها ثم طلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً ، ولم نجد من يأخذها منا فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها عبيداً فأعتقتهم » .

هذه المعالجة العملية التي مرت بنا ، وهذه المعاملة الرائعة التي استعرضنا بعض حوادثها كانت حلاً دولياً ناجعاً للمسألة سبق إليه الإسلام ، فالإسلام أمسك بالرقيق فترة من الوقت حتى يتهيأ له عقد ميثاق دولي عام .

وختاماً نقول :

جاء الإسلام ، فرأى وضعاً راهناً للرق والرقيق ، وضع خطة لإلغائه ، إذ لم يجعل له مصدراً إلا الحرب المشروعة . وما لبث أن حدّد الشرع الدائم لمصير الأسرى بأحد أمرين اثنين : « **ألمَنُّ أو الفداء** » . فنبه بذلك على أن الاسترقاق في وضعه الضيّق الآنف ، لم يكن إلا تشريعاً عملياً مؤقتاً لا عموم له . جاء في ظروف خاصة ، لغرض خاص ، إذ كان الاسترقاق أمراً عالمياً دولياً ، يجري به التعامل والعرف الحربي . فمن أبلغ الفساد ، وأبين الضّرر ، ومجافاة الحكمة والرحمة جميعاً : أن

---

(٤٥) كان سلمان عبداً ثم أصبح حراً ثم جعله النبي رغم كل شيء من آل البيت تكريماً له .

(٤٦) الشيخ الخضر حسين ، مجلة الأزهر ، صفر سنة : ١٣٧٣ هـ .

يطلق المسلمون الأسرى من عدوهم في الوقت الذي يسترقّ فيه عدوُّهم الأسرى منهم[٤٧] .

إن صنيع الإسلام الذي أوجبه قبل خمسة عشر قرناً هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم في إنصاف أسراها وأسرى أعدائها فأما أن يكون لها صنيع أكرم منه فلا ندري كيف يكون ، ولا كيف يأتي لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه[٤٨] .

في أقل من خمسين سنة نقل النخاسون الغربيون جموعاً من العبيد السود يبلغ عدد الباقين من ذريتهم ـ بعد القتل والاضطهاد ـ نحو خمسة عشر مليوناً في الأمريكتين[٤٩] ، وهذا عدد يضارع خمسة أضعاف ضحايا النخاسة في القارات الثلاث منذ أكثر من ألف سنة ، وهو فارق جسيم بحساب الأرقاء يكفي للإبانة عن الهاوية السحيقة في التجربة العملية بين النخاستين ، ولكنه فارق هيّن إلى جانب الفارق في حظوظ أولئك الضحايا بين العالم القديم والعالم الجديد ، فإن في الأمريكتين إلى اليوم أُمّة من السود معزولة بأنسابها وحظوظها وحقوقها العملية ، وليس في بلد من بلاد الشرق أُمّة من هذا القبيل ، لأن الأسود الذي ينتقل إليها يحسب من أهلها بعد جيل واحد ، له ما لهم وعليه ما عليهم بغير حاجة إلى حماية من التشريع أو نصوص الدساتير[٥٠] .

وما خلا التاريخ من أوربي منصف متحرر جريء ليصف معاملة الإسلام للرقيق فقال : « لقد وُضعت للرقيق في الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان

---

(٤٧) عن موجز القانون الدولي في الإسلام مقارناً بالقانون الدولي الحديث ، للدكتور إبراهيم عبد الحميد . ط. جامعة الأزهر ، ص ١٩٠ ـ ١٩٥ بتصرف .

(٤٨) حقائق الإسلام : ص ٢٢٢ .

(٤٩) عدد الزنوج العبيد في أمريكا اليوم ٢٠ مليوناً أو أكثر .

(٥٠) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : ص ٢٢٦ .

ينطوي عليه محمد ﷺ وأتباعه نحوهم من الشعور الإنساني النبيل ، ففيها نجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعي أنها تسير في طليعة الحضارة »(٥١) .

« إن مسألة الرّق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية والأمم الأفريقية التي تتحرر من قيودها وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للإسلام وليست بالدعاية التي يحارب بها الإسلام ... فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام ، بمسمع ومشهد المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين »(٥٢) .

« لقد ظل صوت الإسلام يزمجر حتى استجاب له العالم بعد عدة قرون من تشريعه الحكيم ، **وإن زوال الرّق هو أحد الهدايا التي قدمها الإسلام للإنسانية** »(٥٣) .





(٥١) القول لـ « فان دنبرغ » انظر : تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٩١ .

(٥٢) ما يقال عن الإسلام : ص ١٩٤ .

(٥٣) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ٢٢٣ .. لو عرف المسلم الأفريقي أن الإسلام يشجع الرّق وينميه ويتجر فيه . وأنه من مبادئه وقوانينه لما دخل في الإسلام طواعية ، ولما أصبح داعية له بين ذويه وأبناء قارّته !..

(الجلسة الثالثة عشرة)

الغنيمة هي الهدف

☆ ﴿ وَعَدَ اللهُ المُؤْمِنِينَ والمُؤمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ . [التوبة : ٧٢]

☆ « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ » .

حديث شريف

النائب العام : إن الحالة الاقتصادية المتردية للعرب ، وحبهم للغنائم ، كانت الدافع الرئيس لفتوحاتهم . « إن العرب شعب نشيط فعال ، دفعته يد الجوع والحاجة إلى ترك صحاريه القاحلة ، واجتياح الأراضي الغنية المجاورة المترفهة »[1] .

« ونشك في الحقيقة فيما إذا كان الحماس الديني وحده كافياً لحملهم على القيام بهذه الغزوات الواسعة على البلاد المجاورة ، ويبدو أنهم واصلوا اندفاعهم بسبب الحاجة الاقتصادية الشديدة »[2] .

« إننا لا نستطيع أن ننكر أن ثروة الأكاسرة والقياصرة ، والأراضي الخصبة ،

---

(١) توماس أرنولد في كتابه Preaching of Islam, p. 40

(٢) دوايت دونلدش : (عقيدة الشيعة : ص ١٨) .

والمدن العامرة ، في الممالك المجاورة كانت عاملاً كبيراً في تحمس المسلمين لنشر الإسلام »[٣] .

« إن الحاجة المادية هي التي دفعت معاشر البدو - وأكثر جيوش المسلمين منهم - إلى ما وراء تخوم البادية القفراء ، إلى مواطن الخصب في بلدان الشمال . ولئن كانت الآخرة ، أو شوق البعض إلى بلوغ جنة النعيم قد حَبَّبَ لهم الوغى ، فإن ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ في أحضان المدنية التي ازدهر بها الهلال الخصيب كان الدافع الذي حبب لهم القتال »[٤] .

انتهى النائب العام من توجيهه تهمته هذه ، وجلس مزهواً فكأنه طعن الإسلام طعنة أوهنته ، وأمر القاضي الحكيم أن يقف الإسلام فيدافع عن نفسه أمام هذه التهمة .

الإسلام : هذه الشبهة - التي ربطت الدعوة الإسلامية بالرغبة في الحصول على المال - وجهت أول ما وجهت إلى محمد بن عبد الله ﷺ من قريش ، لقد اعتبرته طالب مال ، وهادف ثروة ، فعرضت عليه أعز ثرواتها ولكنه صاح فيهم : « **والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه** »[٥] .

ولم يكن من العسير على محمد ﷺ - وقد دانت له جزيرة العرب كلها - أن يبني أفخر قصر ، ويجمع إليه أجمل بنات العرب ، وأفتن جواري الفرس والروم .

---

(٣) ستانلي لان - بول في كتابه Arabs in Spain, p. 43

(٤) فيليب حتي في كتابه History of The Arabs, vol. 1, p. 195-199

ويشترك في هذا الرأي « نورمان بينز » في كتابه : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب : د . حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد . الطبعة الثانية ، ص ٥٥ ، الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر .

(٥) ابن هشام : جـ ١ ص ١٧٠ .

« ولم يكن عسيراً عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ، ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه ، فهل فعل محمد ﷺ ذلك بعد نجاحه ؟ هل فعل محمد ﷺ ذلك في مطلع حياته ؟ كلا ، لم يفعله قط . بل فعل نقيضه وكاد أن يفقد زوجاته لشكايتهن من شظف العيش في داره »[٦] .

« وافتقر محمد ﷺ بعد غنى ، وافتقر أبو بكر بعد غنى ، وافتقر عمر الذي آلَ إليه السلطان على الامبراطوريتين العظيمتين ، وظل يعيش في تقشف ظاهر ، وافتقر عثمان بعد غنى عظيم ، ومع هذا بقيت التهمة بأن المسلمين حاربوا لأنهم كانوا طلاب مال وثراء »[٧] .

والمعذبون المستضعفون كبلال[٨] وسُمَيَّة وعمار وخُبَيْب ... هل تحملوا العذاب الذي لا يطاق لمعرفتهم أن المستقبل يحمل إليهم أموال كسرى وقيصر ، أم للإيمان الذي في قلوبهم ؟ هذا الإيمان الذي كان في قلوب الصحابة ، وهو الذي جعل رستم يخسأ عندما عرض الذهب والكساء على المسلمين قبيل القادسية .

وبِمَ أجاب زُهرة بن الحويّة رستم الذي قال : « انصرف وقومك ولكم منا جُعلاً » ؟ . أما قال زُهرة : « إنا لم نأتكم بطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة »[٩] .

وما كان جواب المغيرة بن شعبة لرستم حين قال : « قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم عليه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ، ونصرفكم ببعض ما تحبون »[١٠] . أما سخر منه ومن رأيه ومن ماله ، حيث صاح به بألا

---

(٦) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : ص ١٩٢ .

(٧) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٨٠ .

(٨) مع أن بلالاً أدرك الفتوح ومات بعد فتح دمشق ، لكنه مات فقيراً لا يملك إلا سيفاً وترساً .

(٩) راجع كتابنا « القادسية » ص ٤٧ .

(١٠) راجع قصة المغيرة في ص ٤٩ إلى ص ٥٩ في « القادسية » .

مناص من واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال ؟

فلو أراد الفاتحون مالاً دون نشر الدعوة والعقيدة ، لرضوا بالمال دون دماء ، ولحفظوا أرواحهم وعادوا بأموال تكفيهم بلا تعب ولا إرهاق أو تيتيم أو ترمل .

ولقد ظن ملك الصين ما ظنه رستم من قبل ، ففي عام (٩٦ هـ) ، أناب قتيبة بن مسلم الباهلي هبيرة بن المشمرج الكلابي لمقابلة ذلك الملك بناء على طلبه ، فقال الملك لهبيرة : انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، أو أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه ...

فقال هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أوّل خيله في بلادك وآخرها في منابع الزيتون ؟ **وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك** ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه[11] .

وإن ما يهمنا من إجابة هبيرة هو تلك الكلمة الصريحة التي حملت معنى العقيدة : **(وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك)** . وكيف لا يكون نشر العقيدة هو العامل الرئيس والهدف الأول للفتوحات الإسلامية وقد سمعنا هذه الكلمة الصريحة تنبع بالإيمان الداخلي ، الذي هو الدافع الأول الذي حث المجاهدين على الجهاد لتحقيق هدف الرسالة الذي أراده الله منهم ، كيف لا نقبل ذلك وقد أطلعنا على سخرية المغيرة من رستم ، وجواب زهرة لرستم أيضاً .

فلينصف العقل الحكيم ، وليعترف المتحاملون أن ما جاء من المال لم يكن سوى تحصيل حاصل ، وأنه ما كان أبداً هدفاً مقصوداً لذاته .

---

(١١) راجع القصة في تاريخ الطبري : جـ ٦ ص ٥٠١ وما بعدها .

ولقد أورد الدكتور شلبي من الأدلة على ذلك ما يكفي ، أُلخصها هنا :

١ ـ صارع المسلمون الشرك في قلب جزيرتهم أكثر من عشرين عاماً ، سقط خلالها القتلى من خيرة المسلمين خاصة في حروب المرتدين والمتنبئين ومانعي الزكاة . وكانت هذه الحروب تدور في صحراء ، في البادية القفراء كما سماها الدكتور حتّي ، بعيدة عن الأطماع في الأرض التي سماها مواطن الخصب بالشمال ، فما الدافع لكل هذه الضحايا ؟

أضف إلى ذلك أن المسلمين طالما حاولوا الانتصار دون حروب ، ودون غنائم ، كما حصل في فتح مكة ، وطالما حصلوا على غنائم ثم ردوها لأصحابها بعد إسلامهم ، كما حدث في غزوة حنين والطائف .

٢ ـ لقد عاش العرب في باديتهم المقفرة آلاف السنين ، وهم يعرفون الخيرات في الشمال ، فلماذا لم ينطلق أهل الحجاز إلى هذه المواقع الخصبة قبلاً ؟ وإذا قيل أنهم كانوا يخشون الفرس والروم ثم ضعف هؤلاء فخرجوا ، فإن هذا مردود . فقد بقي العرب يخافون الروم والفرس حتى كتب الله لهم النصر بالقادسية واليرموك .

لقد تهيب المسلمون من الخروج إلى جبهة الفرس أيام عمر(١٢) ، وتهيبوا من الروم في الشام ، فقد قال عبد الرحمن بن عوف : إنهم الروم وبنو الأصفر ، عزم حديد ، وبأس شديد ... ولكن الإيمان الذي غرسه رسول الله ﷺ أقوى من الحديد ، وبأسه أشد من شديد ، وعظمة الله في القلب وحافز العقيدة في النفس ، أعظم من الفرس والروم .

٣ ـ قالت رسل المقوقس إليه عندما عادوا من عند عمرو بن العاص وجيشه ، أثناء حصار حصن بابليون :

---

(١٢) راجع كتابنا « القادسية » فصل قبيل القادسية ص ٢٩ ، وص ٣٧ بالذات .

« رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، **ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة** ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف كبيرهم من صغيرهم ولا السيد فيهم من العبد .. » .

فماذا بعد هذا الوصف لنفسية الفاتح العربي المسلم ؟

٤ ـ حروب المسلمين مع البربر في شمال أفريقية ، سقط فيها كثير من الشهداء وكانت الصحراء القاحلة آنذاك مسرح المعارك ، فأين مواطن الخصب ؟ .

وأضيف أيضاً :

« مَنْ ذا الذي يحمل رأسه على يده ويقاتل بها أقوى جيوش الدمار والفتك لينال من بذخ العيش في أحضان الهلال الخصيب ؟ »[١٣] ، أم تلك افتراءات وأباطيل أرادوا بها تشويه الحقيقة ؟ وكيف يبغي الموت من يسعى إلى هناءة الحياة الدنيا ؟ ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] .

والتاريخ الإسلامي مملوء بقصص البطولة التي لا يمكن أن يسطرها إلا صاحب عقيدة مُثلى ، رسخت في فكره وقلبه ، وملأت حياته ، ولا تصدر هذه البطولات إلا من إنسان صار كالمَلَك ، وصار يعلم لماذا يبذل الروح وماذا يطلب بها . وهيهات أن تجد في أمة من أمم الأرض مثل هذه البطولات ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : ٢١] .

في القادسية : خرج رجل فارسي من أهل فارس ينادي من يبارز ، فبرز له عِلْباء بن جحش العجلي ، فضربه علباء فأصاب رئته ، وضرب الفارسي علباء فأصاب أمعاءه ، مات الفارسي لساعته ، أما علباء فخرَّ على الأرض فلم يستطع القيام ، فعالج إدخال أمعائه فلم يتأتَّ له ، حتى مرّ به رجل من المسلمين فقال :

---

(١٣) مقارنة الأديان ، ج ٣ ، ص : ١٨٣ .

يا هذا ، أعني على بطني ، فأدخله له ، فأخذ علباء جلد بطنه ثم زحف باتجاه عدوه ، باتجاه الفرس ما يلتفت إلى المسلمين ، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعاً من مصرعه إلى صف الفرس .

وفي اليرموك(١٤) : كم منادٍ صاح يقول : « من يبايع على الموت ؟ » لا على الغنيمة ، فتفكّر .

قال ورقة بن مهلهل التنوخي ـ وكان صاحب راية أبي عبيدة في اليرموك ـ : كان من أوائل من افتتحوا الحرب غلام من الأزد ، وكان حدثاً كيّساً قال لأبي عبيدة : « أيها الأمير إني أردت أن أشفي قلبي ، وأجاهد عدوي وعدو الإسلام ، وأبذل نفسي في سبيل الله تعالى لعلي أرزق الشهادة ، فهل تأذن لي في ذلك ، وإن كان لك حاجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرني بها » .

هذا يمثل فتية الإسلام فكيف رجالاته ؟ إنهم يبتغون نشر دعوة أوشهادة .

وفي نهاوند « فتح الفتوح » : لنر ماذا قال النعمان بن مقرّن المُزَني قبل بدء المعركة ، قال :

« اللهم أعزز دينك ، وانصر عبادك ، **واجعل النعمان أول شهيد اليوم** ... اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام ، أمِّنُوا يرحمكم الله »(١٥) .

في جبهة الشمال ـ في آسية الصغرى ـ أخبر القائد المسلم حبيب بن مسلمة زوجته أم يزيد الكلابية أنه سيقتل هذه الليلة « الموريان » القائد الرومي ، وحقاً فقد دخل حبيب معسكر الموريان ودخل خيمته ، فوجده مقتولاً بيد فارس عربي

---

(١٤) كتابنا « اليرموك » الجزء الثاني من المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام ص : ٥٢ .

(١٥) تم تأليف وطبع كتابنا « نهاوند : فتح الفتوح » ، وفيه قصة بطولة هذا الصحابي الجليل « النعمان بن مقرّن المزني » .

مسلم موجود داخل الخيمة . فأخذ بيده وانطلق إلى معسكر المسلمين ، وما كان هذا الفارس بعد أن رآه وعرف هويته إلا زوجته المؤمنة قد سبقته إلى قتل الموريان .

هذه البطولة هل يسجلها قوم يبتغون مالاً[١٦] ، أم تراهم كانوا يبتغون ثواباً وشهادة ؟ !.

عمرو بن الجموح :

صحابي أعرج عرجاً شديداً ، حارب في أُحُد - وهو معذور إن لم يجاهد - وهو يقول : سأدخل الجنة بعرجتي هذه . فما الذي دفعه إلى الجهاد ؟

☆ ☆ ☆

والحق أقول ... التاريخ الأوربي لم يخل من منصف ، فهذا « ستانلي لان بول »[١٧] يقول : « إن تحمس العرب للفتوح كان يؤججه عنصر قوي من الرغبة في نشر الدين ، فقد حاربوا لأنهم يقاتلون أعداء الله ورسوله ، وحاربوا لأن مثوبة الشهداء ، وكؤوس السعادة والنعيم ، كانت تنتظر من يُقْتَلون في سبيل الله » .

وملاحظات أخرى ما أجدر المنصفين أن ينظروا فيها :

١ - لقد استمرت الحروب بين الفرس والروم أربعمائة سنة لأطماع ودنيا ، فلم يحرز أحد منهما نصراً مؤزراً لسبب واحد هو فَقْدُ العقيدة وانعدامها . فلما هاجمهم البدو بسلاح العقيدة ، فلّ ذلك السلاح كل سلاح ، وتهاوت جيوش الفرس والروم تحت أقدام الفاتحين .

٢ - أرسل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء رسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام على أن يبقى لهم مُلْكَهُم وما بين أيديهم . فأين المطمع المالي هنا ؟

---

(١٦) في أُحُد وبواتييه « بلاط الشهداء » لما صارت الغنيمة هدفاً ، جاءت الهزيمة !!! ...

(١٧) في كتابه : Arabs in Spain

٣ ـ كان المسلمون يُخَيِّرون الشعوب بين ثلاث : **الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب** . فمن أسلم فليس للفاتحين عليه من سبيل « **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** » . أو الجزية : وهي بسيطة مرَّ مقدارها بالتفصيل ، وذكرنا أنها مقابل الحماية واستعمالهم للمرافق العامة في الدولة ، وقلنا يدفع المسلمون أضعافها في الزكاة ، وأخيراً الحرب : لإيصال العقيدة كحل أخير .

٤ ـ مات أعظم قائد في تاريخ الإسلام ـ خالد بن الوليد رضي الله عنه ـ وهو لا يملك من حطام الدنيا غير فرسه وغلامه وحسامه فقط ، فأين الغنائم ؟ .

٥ ـ لم يكن المسلمون الذين خرجوا للفتوحات أكثر من مائة ألف ـ لو ضاعفنا العدد ـ فكان يكفيهم سواد العراق وحده ، أو فلسطين وحدها ، أو الشام وحدها ، أو دلتا مصر وحدها ... ويصبحون أهل رغد وثروة ، فيمكثون لينعموا بما فتحوا ، لكنهم انطلقوا إلى الصين وإلى إسبانية وفرنسة ... فأين الطمع بالدنيا ؟ !.

٦ ـ حالات كثيرة وردت عن أسير مسلم أصبح داعية إيمان وإسلام ، حتى وهو يساق إلى الموت ، بعد أن صمد لمختلف الاغراءات المالية والمعنوية :

فقد روى توماس أرنولد في تاريخ « الدعوة إلى الإسلام » : أن البلجيكيين حكموا على زعيم مسلم بالإعدام ، فقضى هذا ساعاته الأخيرة وهو يحاول أن يُدْخِلَ الإسلام إلى قلب المبشر المسيحي الذي كان قد أُرْسِلَ إليه ليزجي إليه التعزيات الدينية .

وذكر أرنولد أيضاً : أن الإسلام تسرب إلى أوروبة الشرقية على يد أسير مسلم أثناء الحرب البيزنطية ـ الإسلامية . وقال : إن الشيخ أحمد المجدد أدخل وهو في السجن عدة مئات من عبدة الأوثان الذين كانوا معه في السجن في الإسلام .

وقال : إن أحد (المَوْلَويَّة) نفته بريطانية عام ١٨٦٤ م إلى جزائر « أندمان »

نفياً مؤبداً ، فأدخل هذا المسلم في الإسلام الكثير من المحكومين قبل وفاته[١٨] .

فلم تناسيتم هذا الدافع الذاتي للدعوة إلى دين الله أيها المستشرقون ، فجعلتم مواطن الخصب في الشمال هي الدافع للفتوح ؟ ألا كفاكم حقداً وتحاملاً ، كفاكم تغافلاً فإن الشمس ساطعة .

☆ ☆ ☆



---

(١٨) راجع ص : ٤٥٣ / ٤٥٤ الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد .

(الجلسة الرابعة عشرة)

الإسلام والعلم

﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١١]

النائب العام : « حارب الإسلامُ العِلْمَ والفلسفةَ »[١] . فهو بذلك ليس دين حياة يصلح للبقاء .

القاضي : هلاّ أظهرت الحقيقة أيها الإسلام ؟!

الإسلام : إنه لمن تكرار البحث والكلام أن نبحث مطوّلاً بأن الإسلام هو دين العلم والمعرفة والعقل ، فما أسهل الأدلة على ذلك حيث كتبت كتب عديدة في هذا البحث[٢] ، والذي نبتغيه في دفاعنا الآن رد تهمة « رينان » بأسطر وجزة ، ثم التركيز على شبهة تمتُّ إلى موضوعنا بصلة وثيقة ، ألا وهي تهمة إحراق المسلمين

---

(١) القول للعالم الفرنسي « أرنست رينان » في كتابه : « الإسلام والعلم » .

(٢) يمكن الرجوع إلى الكتب التالية لمعرفة حث الإسلام على العلم بكل أنواعه النافعة .

- روح الدين الإسلامي : عفيف طبارة .
- التفكير فريضة إسلامية : للمرحوم العقاد .
- شمس العرب تسطع على الغرب : دكتورة : زيغريد هونكه .
- تاريخ العلوم عند العرب : رفاعي - خيمي - شلبي الشام .
- عبقرية العرب في العلم والفلسفة : د . عمر فروخ .
- دراسات في الفلسفة الإسلامية : د . محمود قاسم .
- وكتابنا : الإنسان بين العلم والدين « الطبعة الخامسة ١٩٨٠ » .

« مكتبة الاسكندرية » بعد فتح مصر وذلك بادعاء : جبون ، وبتلر ، وسديو وغيرهم .

إن الحضارة العربية الإسلامية التي قدمت للعالم ماقدمت من تقدم علمي في مختلف مجالات البحث ، كان الدافع والحافز في تكوينها كتاب الله عز وجل ، وحثه على طلب العلم الدنيوي مع الديني :

فمن الآيات الكريمة :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] . ففي الآية يشرف الله تعالى العلم وأهله ويميزهم عن سواهم ، ثم يحصر عز وجل التذكير في أولي الألباب ، أصحاب العقول ولا مقوم للألباب غير العلم .

﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] فقد ساوى الله عز وجل شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة ، وفي هذا من رفع قدر أهل العلم ما فيه .

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمَاً ﴾ [طه : ١١٤] . علماً يصلح أمر الفرد في دينه ودنياه .

وجعل الإسلام الأصل في العلم تحكيم العقل في كل مايعرض للإنسان من أمر ، والمراد بالعقل : العقل الذي استوفى شروط الفهم التي تؤهله لإدراك مايُلقى إليه ، ووردت آيات عديدة فيها ذكر « **أولوا الألباب** » وعددها إحدى عشرة آية ، وآية فيها ذكر « **أُولِي النُّهَى** » ، ومواضع عديدة ذكر فيها القرآن الكريم آيات يخاطب بها « **قَوْم يَعْقِلون** » :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤ . و ١٢/١٦ ، و ٢٤/٣٠] .

﴿ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٣] .

والعلم الذي يدعو إليه الإسلام ، هو كل علم يدفع الجهل دينياً أو دنيوياً[٤] .

فها هو القرآن يدعو إلى العلوم الطبيعية : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[٥] سُودٌ ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٧ ـ ٢٨] . فالعلماء هنا هم العالمون بالآيات وأسرار الخلق التي أودعها الله فيما أشارت إليه هاتان الآيتان ، فلا يعرف تفسير نزول الماء من السحاب إلا بمعرفة الفيزياء والكيمياء ، ولا يعرف الإنبات والإثمار إلا بعلم النبات ، ولا يعرف ما الجبال ولا طرائقها البيض والحمر والسود إلا بعلم طبقات الأرض « الجيولوجيا » ، ولا يعرف اختلاف أجناس البشر والدواب والأنعام إلا بعلمي أصل الشعوب والحيوان ، ثم ذكر عز وجل : ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ ، فقد حصر جل شأنه الخشية الكاملة منه في العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية ، لأن العلماء إذا كانوا مؤمنين حملهم علمهم بأسرار الطبيعة على خشية الله خالقها ومبدعها وواضع قوانينها .

وفي القرآن دعوة إلى علم الحياة « البيولوجيا » : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق : ٥/٦/٧] فأطوار خلق الجنين هي من علم الحياة والتشريح والطب .

---

(٣) سورة الروم : ٢٨ ، قال « لوبون » : « إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

(٤) وردت كلمة « علم » ومشتقاتها وكل أنواع تصريفاتها في أكثر من (٥٠٠) موضعا في القرآن الكريم .

(٥) غرابيب سود ، شديدة السواد ، و « جدد » طرائق وأنواع .

وفيه دعوة إلى علم التاريخ والاجتماع : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُم ، وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم : ٩] . وقال عزَّ من قائل : ﴿ وَكَم أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هُم أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي البِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ [ق : ٣٦] .

ودعوة إلى علم الفلك : عناوين السور : الرعد ـ النور ـ الدخان ـ النجم ـ القمر ـ المعارج ـ التكوير ـ الانفطار ـ الانشقاق ـ البروج ـ الطارق ـ الفجر ـ الشمس ـ الليل ـ الضحى ـ الزلزلة[٦] ... كلها تدعو إلى النظر العلمي في السماء والأرض .

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا في السَّمَواتِ والأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآياتُ وَالنُّذُرُ عِنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ؟ ﴾ [يونس : ١٠١] ، ﴿ إِنَّ في خَلْقِ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولي الأَلْبَابِ ﴾ ، [آل عمران : ١٩٠] .

وهناك أحاديث شريفة تحض على التطبُّب وقد سُمِّيت الأُمور التي عالجها رسول الله ﷺ من حيث : حفظ الصحة وقواعد الشرب والمأكل ... « **الطب النبوي** » .

ولو أردنا أن نعدد كل شيء عن دعوة الإسلام إلى العلم بأنواعه لطال بنا الحديث . وحسب الإسلام فخراً في مجال طلب العلم أنه يعتبر الأمة كلها آثمة ، إذا لم يتوفر فيها العلماء في شتى الاختصاصات حتى أن الفقهاء قالوا : إذا احتاجت الأمة إلى عدد من العلماء في مجال ما عددهم مائة ، وَوُجِدَ بينها تسعون فقط ، **فالأُمَّةُ كُلُّها آثمة حتى تحقق حاجتها وكفايتها من العلماء .**

---

(٦) انظر مقدمة كتابنا « الإنسان بين العلم والدين » ص : ٧ .

وشهد عدد كبير من علماء الغرب بنهضة الإسلام العلمية في الطب والكيمياء والطبيعيات والرياضيات والفلسفة والاجتماع والجغرافية والفلك والتاريخ ...

فكتاب الدكتورة زيغريد هونكه : « شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة العربية في أوربة »[7] كله إقرار بفضل الحضارة العربية الإسلامية وعلومها .

ـ يقول « لوبون » : « الإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم »[8] .

وقال « دريبر »[9] : (ولما آلت الخلافة إلى المأمون في سنة ٨١٣ م ، صارت **بغداد العاصمة العلمية** العظمى في الأرض ، فجمع الخليفة إليها كتباً لاتحصى ، وقرّب إليه العلماء وبالغ في الحفاوة بهم) . وبعد أن عدّد مآثر المسلمين **في العلوم الطبيعية** قال : « **فإنهم قد رَقُّوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً وأوجدوا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم ... إن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك أوربة وأمراؤها يغدون على بلاد المسلمين لِيُعَالَجُوا فيها** » .

وقال « سيديلوت »[10] : (كان المسلمون في القرون الوسطى **متفردين في العلم والفلسفة والفنون** ، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت عنهم إلى أوربة . فكانوا سبباً لنهضتها وارتقائها)

---

(٧) نقل الكتاب عن الألمانية : فاروق بيضون ـ كمال دسوقي . نشر المكتب التجاري ـ بيروت .

(٨) حضارة العرب . ص : ١٢٦ .

(٩) مدرس في جامعة نيويورك وكتابه : « المنازعة بين العلم والدين »

(١٠) Sédillot في كتابه : « تاريخ العرب » .

« لما قال المسلمون بكروية الأرض أحدث ذلك اضطراباً شديداً في عالم النصرانية ، ولقد قضت الكنيسة على كريستوفر كولمبس في سفره إلى المحيط الاطلانطيقي لعله يكشف أرضاً جديدة بأن عمله هذا مخالف لأصول الدين ! حكم بهذا مجتمع « سلامونك » ولم يفده ، ولم ينقذه إلا معاونة بعض الملوك برغم الكنيسة التي عرضت أمره على أقوال الآباء ورسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة » .

ومن المضحكات أن الكنيسة ثارت ثائرتها عندما نقلت امرأة تسمى ماري مونتاجه سنة ١٧٢١ م إلى أوروبة طريقة الحقن تحت الجلد بمادة المرض ، هذه الطريقة الطبية التي اكتشفها المسلمون »[١١] .

ويقول غوستاف لوبون أيضا[١٢] : (ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب المسلمين ، فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب المسلمين اعتنقت حضارتهم ، ولو حينا من الزمن) وفي موضع آخر : (ولم يتجلّ تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها ، **بل كان لهم الأثر البالغ في ثقافته العلمية أيضا)** . ونقل عن الأستاذ « ليبري » قوله : « **لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربة قرون** » .



مكتبة الاسكندرية :

ـ كل ما سبق لا بدّ أن يقنعنا أن الإسلام قد حض على العلم والمعرفة ، فهو دين العقل والفكر . ولكن قد يأتي مستشرق آخر فيقول : لماذا إذن أحرق عمرو بن العاص مكتبة الاسكندرية العامرة الزاخرة بأمر من عمر بن الخطاب ؟

---

(١١) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، ص : ٤٨٦ .

(١٢) في كتابه : « حضارة العرب » ص : ٥٨٥ / ٥٩١ .

إن هذا العمل حرم البشرية من ذخر كبير في العلوم ، لقد أُحْرِقَت المكتبة على يد الفاتحين العرب لخوفهم أن تكون علومها وآدابها تخالف الآراء والتقاليد الإسلامية .

فبماذا يبرر دين العلم إحراقه لمكتبة الاسكندرية ؟

في الحقيقة خاض بعض المتأخرين من المؤرخين في مسألة إحراق مكتبة الاسكندرية ، وناقش هذه القضية كثير من المستشرقين مثل جبون(١٣) وبتلر(١٤) وسديولوت(١٥) وغيرهم ، ولكنهم لم يجزموا فيها برأي ، وارتاب بعضهم في صحة تهمة إحراق هذه المكتبة التي وجهت إلى عمرو بن العاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب .

ويجزم الدكتور غوستاف لوبون في « حضارة العرب » ص ٢١٣ ، بخرافة القصة : « وأما إحراق مكتبة الاسكندرية المزعوم ، فمن الأعمال الهمجية التي تأباها عادات العرب المسلمين ، والتي تجعل المرء يسأل : كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً ؟! وهذه القصة دُحضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها ، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الاسكندرية قبل الفتح العربي الإسلامي » .

وكذلك جاك . س . ريسلر في ص ١٠٠ / ١٠١ من الحضارة العربية حيث اعتبر : حريق الاسكندرية أسطورة .

وإذا رجعنا إلى المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامي لمصر مثل « أوتيخا »

---

(١٣) Gibbon , Vol . Lx . pp . 274 - 278 .

(١٤) Butler : The Arab conguest of Egypt , 401 - 426 .

(١٥) Sedillot : Histoire general des Arabes , Vol . pp . 155 - 156 .

الذي وصف فتح مصر بإسهاب فلن نجد ذكراً لهذه التهمة[١٦] .

كما أنها لم ترد في كتب الأقدمين : كاليعقوبي ، والبلاذري ، وابن عبد الحكم ، والطبري ، والكندي ، ولا في تاريخ من جاء بعدهم وأخذ منهم : كالمقريزي ، وأبي المحاسن ، والسيوطي وغيرهم .

وأول من نسب الحريق إلى عمرو بن العاص هو عبد اللطيف البغدادي[١٧] (٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) ومن بعده ابن القِفطي (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) ثم أوردها أبو الفرج غريغوريوس الملطي « وهو ابن العبري »[١٨] دون ذكر السند ، ودلل المؤرخون الذين أخذوا عن هؤلاء حديثاً للأمر بما يلي :

١ ـ بأن المسلمين كانت لهم رغبة عظيمة في محو كل كتاب غير القرآن والسُّنَّة .

٢ ـ إن رواية الحريق لم يروها أبو الفرج فقط ، بل رواها أيضاً مؤرخان مسلمان : البغدادي وابن القفطي .

٣ ـ أحرق الفاتحون كتب الفرس ، كما ذكر حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون .

٤ ـ إن إحراق الكتب كان أمراً معروفاً وشائعاً يتشفى به كل مخالف ممن خالفه في رأيه ، كما عمل هولاكو التتاري سنة ٦٥٦ هـ بإلقاء خزائن الكتب في دجلة .

ونحن نجيب بأن الدليل الأول : غير مُسَلَّم به ، لأن المعروف من أخلاق

---

(١٦) انظر تاريخ الإسلام ج ١ ، ص ٢٤١ ، وقد اعتمدنا مع هذا الكتاب في البحث ، عدد الهلال آب « أغسطس » ١٩٧٢ . وبحث لستفين بيترو بعنوان : Did the Conguering Muslims Destroy the Library of Alexandria ? في مجلة : The Islammic Review عدد Februaey 1955 صفحة : 29 , 30

(١٧) الإفادة والاعتبار : ص ٢٧ .

(١٨) المتوفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م ، « وعمّر أبو الفرج ستين سنة » .

المسلمين أنهم كانوا يشجعون العلم ، بدليل ماذكره أبو الفرج من أن عمرو بن العاص كان يصغي إلى أقوال يوحنا النحوي .

والدليل الثاني : وهو أن أبا الفرج لم يرو هذه الرواية وحده ، بل رواها أيضاً البغدادي وابن القفطي ، وهما مؤرخان إسلاميان عظيمان ، فيمكن دحضه بما سنورده بعد قليل في مناقشة ماذكره أبو الفرج لأنهم عاشوا في عصر واحد ، وروايتهم واحدة تقريباً ، ولا يبعد أن يكونوا قد أخذوا عن مصدر ضائع معاد للعرب والإسلام .

والدليل الثالث : لم نَرَ من المؤرخين من ذكره إلا حاجي خليفة ، ومثل هذا المؤرخ لا يؤخذ بكلامه ولا يعوّل عليه في المسائل التاريخية المتقدمة ، لأنه توفي سنة (١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) . فلو أن المسلمين أحرقوا هذه المكاتب لذكر ذلك المؤرخون الذين تقدموا حاجي خليفة .

والدليل الرابع : لا يثبت دعواهم لأنه لا يقاس هولاكو بعمر بن الخطاب ، لا يقاس من جاء ليحصد الحضارات عامة ، بمن قام بنشر الحضارة في العالم[١٩] .

وقد أسهب بعض المؤرخين المحدثين في تفنيد رواية الإحراق لاسيما رواية أبي الفرج ، وذكروا مايدل على أن عَمْراً وعمر بريئان مما نُسِبَ إليهما . وهذه هي رواية أبي الفرج عن كيفية الحريق على يد عمرو بن العاص قال :

« كان في وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى يوحنا النحوي ، كان قسيساً قبطياً من أهل الاسكندرية ، وفي هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين بيحيى المعروف عندنا « بغرماطيقوس » أي النحوي وكان اسكندرياً

---

(١٩) أحرق الكردينال اكسمينس في غرناطة وحدها ثمانية آلاف كتاب « الدعوة الإسلامية » ص ٤٨٧ . كما يؤكد لوبون أن رئيس الأساقفة الاسباني هذا الكردينال اكسمينس أحرق مخطوطات أعداء دينه العرب ، ص ٢٧٤ حضارة العرب .

يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة (ساوري) ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث ، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه . فلم يرجع فأسقطوه من منزلته ، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم ، فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية ، التي لم تكن للعرب بها أنسة ، ماهاله ففتن به .

وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر ، فلازمه وكان لا يفارقه ، ثم قال له يحي يوماً : إنك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الأشياء الموجودة بها . فمالك به انتفاع فلا أعارضك فيه ، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به ، فقال له عمرو : وما الذي تحتاج إليه ؟ قال : كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية ، فقال له عمرو : لا يمكنني أن آمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحي ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التي ذكرتها ، فإن كان فيها مايوافق كتاب الله ، ففي كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها مايخالف كتاب الله ، فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها ، فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية وإحراقها في مواقدها ، فاستنفدت في ستة أشهر ، فاسمع ماجرى واعجب ! » .

وتفنيد ماسبق :

١ ـ هذه الرواية أشبه بالخرافة ، فقد ذكر فيها ابن العبري أن كتب المكتبة كفت أربعة آلاف حمام ـ وهي عدد حمامات الاسكندرية كما ذكرها ابن العبري ـ لمدة ستة أشهر[٢٠] ، وهذا غير معقول ، فضلاً عن أن عَمْراً لو قصد تدمير المكتبة

(٢٠) إن المخطوطات التي ادعى أنها أحرقت ٧٠٠ ألف مخطوط ، أحرقت في ٤٠٠٠ حمام « عام » ، فيكون نصيب كل حمام ١٧٥ مخطوطة ، وهذا يكفي لعدة أيام لا لستة شهور كما تدعي .

علماً أن المخطوطات تلك ، كتبت على ورق البردي والرق ، وهاتان المادتان تعطيان حرارة منخفضة جداً لاتكفي لتسخين الماء ولا لأيام ، فضلاً عن ستة شهور ، يقول البروفسور =

لأحرقها في الحال ولم يتركها تحت رحمة أصحاب الحمامات ، وإلا لتمكن يوحنا النحوي الذي بنى ابن العبري روايته عليه من أخذ مايلزم من هذه الكتب بثمن بخس ، ولَتَسَرَّب قسم كبير من الكتب ، ليظهر فيما بعد ، وهذا مالم يحدث .

٢ ـ كما ذكر « بتلر » أن يوحنا هذا مات قبل الفتح الإسلامي لمصر بثلاثين أو أربعين سنة .

٣ ـ ولو كانت هذه الرواية صحيحة لتعرض لها المتقدمون من قريب أو بعيد ولو تلميحاً .

٤ ـ إن هذه المكتبة أصابها الحريق مرتين : الأولى سنة ٤٨ ق . م على أثر إحراق أسطول يوليوس قيصر ، والثانية في عهد القيصر تيودوسيس (٣٧٨ ـ ٣٩٥ م) وذلك عام ٣٩١ م .

فنسجت هذه الحكاية على منوال الحريقين السابقين .

٥ ـ زار « أورازيوس Orazius » الاسكندرية في أوائل القرن الخامس الميلادي ، فذكر أن رفوف المكتبة خالية من الكتب عند زيارته ، وعلى ذلك فإن الكتب التي كانت بالمكتبة من عهد البطالسة لم يبقَ لها أثر منذ أواخر القرن الرابع الميلادي ، أي منذ عهد الإمبراطور تيودوسيس ـ أي الحريق الثاني ـ كما أنه لم يرد لها ذكر في الآداب في القرنين السادس والسابع ، ومن المعلوم أن حالة مصر قبيل الفتح الإسلامي ـ أي منذ أيام « دقلديانوس » ـ كانت حالة تأخر الزراعة

= الفرد تبلر : « لايمكن الشك بهذه المسألة أكثر من هذا » .

وتدعي القصة ـ من ناحية ثانية ـ أنه كان في المكتبة ٧٠٠ ألف مجلد ومخطوطة ، إن هذا العدد من المجلدات لو فرضنا أن لكل مؤلف عشرين عملاً فيكون عدد المؤلفين ٣٥,٠٠٠ مؤلف . إن هذا الرقم يمثل عدد المؤلفين الذين كتبوا إنتاجاً تألفت منه مكتبة الإسكندرية ، ويحق لنا أن نتساءل بكل ثقة فيما إذا كان العالم القديم يحتوي هذا العدد الخيالي من المؤلفين ، عدا المؤلفين الآخرين في اليونان والرومان ...! فتصور !

والصناعة والعلوم والمعارف والآداب ، فمن البعيد إذاً أن يهتم الناس بإعادة هذه المكتبة إلى عهدها الأول .

٦ ـ إن التعاليم الإسلامية تخالف رواية القصة لأنها تحترم الكتب الدينية ـ اليهودية والمسيحية ـ وكذا غيرها لأنه يجوز أن ينتفع المسلمون بها ، فالرواية مخالفة لعادات المسلمين الذين عرف عنهم عدم التعرض لما فيه ذكر الله .

٧ ـ ولو فرضنا أن هذه المكتبة بقيت إلى الفتح الإسلامي ، لم يكن هناك مايمنع من نقلها إلى القسطنطينية على أيدي الروم في أثناء الهدنة التي عقدت مع المسلمين ، وقد أجاز لهم عمرو في عهد الصلح أن يحملوا كل مايقدرون عليه ، وكان لديهم من الوقت مايمكنهم من نقل مكتبات لامكتبة واحدة .

فالحكاية محض افتراء .

٨ ـ أنهى أبو الفرج روايته بقوله : « **فاسمع ماجرى واعجب** » وهذا يعني أن الخبر مدسوس ، وإنما أراد من روايته تأكيده وجعله واقعاً بالتعجب من الافتراء على عمر وعمرو ، أو أنه أراد أن يدعونا إلى إحكام العقل بأنه ليس من الممكن أن يفعل عمر وعمرو هذا « اسمع واعجب » وهذا ما لا يريده !

فكأنما يوحي لنا بكذب الخبر وإن لم يكن كذلك فلِمَ يقول اسمع واعجب ؟!..

هذه فكرة ، وفكرة أخرى يحملها المعنى ، وهي أن يكون في نفس المؤلف ضغينة على عمر وعمرو فنسب إليهما هذه الفرية وهو يدعونا إلى التعجب من شدة هذا الأمر .

وعلى كلا الأمرين فإن إثارة العجب والدعوة إلى الاستماع فيهما شيء من الإيحاء وعدم النزاهة ، يجعل ماسبق من الخبر فرية لاصحة لها .

☆ ☆ ☆

(الجلسة الخامسة عشرة)

الإسلام والمرأة

☆ ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . [البقرة : ٢٢٨]

النائب العام[١] : « هضم الإسلام حق المرأة ، حيث أعطاها نصف نصيب الرجل في الميراث ، وجعل الرجل يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ، وجعل الطلاق بيد الرجل ، ومنح الرجل سلطة ليست للمرأة فحرمها كثيراً من الحقوق التي تمتع بها الرجل » .

أمر القاضي الإسلام أن يدافع عن نفسه أمام هذه الشبهة[٢] .

---

(١) صاحب الشبهة المستشرق « كارادي فو » الفرنسي ، وكتابه عن الغزالي . ترجمة المرحوم عادل زعيتر .

(٢) اعتمدنا في هذا البحث كتاب الدكتور أحمد شلبي « مقارنة الأديان ـ الإسلام » بشكلٍ رئيس . إلى جانب :

☆ تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٧٩ / ١٨٢ ، د . حسن إبراهيم حسن .

☆ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، للمرحوم العقاد .

☆ المرأة في الإسلام ، للأستاذ كمال أحمد عون .

☆ مجلة « العربي » الأعداد التالية :

ـ ١٤٤ : حق المرأة في المجتمع الإسلامي ، الشيخ زكريا البري .

ـ ١٤٢ : المرأة في المجتمع الإسلامي ، الشيخ زكريا البري .

ـ ٣٣ : الحضانة ، الشيخ محمد أبو زهرة .

ـ ٣١ : تعدد الزوجات ، الشيخ محمد أبو زهرة .

ـ ٢٣ : الطلاق في الإسلام ، الشيخ محمد أبو زهرة .

الإسلام : كان يجب أن لا يكون موضوع « المرأة في الإسلام » موضوعاً يحتاج إلى دفاع أو شرح كما تعد كروية الأرض موضوعاً يجهد الجغرافيون أنفسهم لإثباته . كما كانوا يفعلون منذ جيل واحد . فالإسلام منح المرأة ما لم تَمنحه المرأة الغربية إلا بعد ذلك بعدة قرون ، أو مالم تَمنحه هذه المرأة إلا في هذا القرن الذي نعيش فيه . أو مالا تزال المرأة الغربية تصارع الآن للحصول عليه[٣].

ولن نتكلم في هـذا الرد على المستشرق الفرنسي « كارادي فـو » عن كل شيء يخص المرأة في شرعة الإسلام كحق المرأة في التَّعَلُّم وفي التصرف بأموالها وتجارتها وميراثها ، وفي اختيار زوجها ... لن نطرق هذا كله ، فقد تكلم عنه الكثيرون ووفوه حقه ، ويهمنا هنا رد شبهة المستشرق بالحديث حسب التسلسل التالي :

☆ حالة المرأة قبل الإسلام .
☆ موقف الإسلام من المرأة .
☆ مسألة : تعدد الزوجات .
☆ مسألة الطلاق .
☆ مسألة القوامة .
☆ مسألة التأديب .
☆ مسألة الميراث .
☆ مشكلة الاختلاط .

☆ ☆ ☆

المرأة في الماضي :

قضت الحضارة الرومانية أن تكون المرأة رقيقاً تابعاً للرجل ، لها حقوق

---

(٣) مقارنة الأديان ـ الإسلام : ص ١٨٥ .

القاصر ، أو لا حقوق لها على الإطلاق[٤].

وقضت شرائع الهند القديمة : « إن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار خير من المرأة » . وحقها في الحياة ينتهي بانتهاء أجل زوجها الذي هو سيدها ومالكها ، فإذا رأت جثمانه يُحرق ألقت بنفسها في نيرانه ، وإلا حاقت عليها اللعنة الأبدية .

وجاء في **شرائع « منودهر ما ساسترا »** عن المرأة ما يلي : تعيش المرأة وليس لها خيار ، سواء كانت بنتاً صغيرة ، أو شابة ، أو عجوزاً ، فالبنت في خيار أبيها ، والمتزوجة في خيار بعلها ، والأرملة في خيار أبنائها ، وليس لها أن تستقل أبداً ، ولا تتزوج بعد وفاة زوجها ، بل تهجر ما تشتهيه من الأكل واللبس والزينة حتى الموت ، ولا تملك الزوجة شيئاً ، وكل ما تحرزه يذهب تواً لزوجها[٥].

والمرأة عند اليونانيين من سقط المتاع ، لقد كانت تباع وتشترى ، وكانت تُعد رجساً من عمل الشيطان[٦].

أما في التوراة فالمرأة وصفت في « سفر الجامعة » بالكلمات الآتية : « درت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلاً ، ولأعرف الشر أنه جهالة والحماقة أنها جنون ، **فوجدت أمَرَّ من الموت المرأة** التي هي شباك ، وقلبها شراك ، ويداها قيود »[٧].

وفي الكنيسة الكاثوليكية وضح الكاتب الدانماركي Wieth Knudesen مكانة المرأة في العصور الوسطى فقال : كانت العناية بها محدودة جداً تبعاً لاتجاه

---

(٤) مقارنة الأديان ـ الإسلام : ص ١٨٦ .

(٥) مقارنة الأديان : جـ ٤ ص ٧٢ / ٧٤ .

(٦) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٨٦ .

(٧) الاصحاح السابع : الفقرتان : ٢٥ / ٢٦ .

المذهب الكاثوليكي الذي كان يَعُدُّ المرأة مخلوقاً في المرتبة الثانية[٨].

وفي الجزيرة العربية لا يخفى علينا : « وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً وهُوَ كَظِيمٌ ، يَتَوارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ في التُّرابِ ، أَلا سَاءَ ما يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ - ٥٩] . فإن نجت الوليدة العربية من الوأد ، وجدت غالباً في انتظارها حياة ظالمة ، ليس لها فيها نصيب من الميراث وقد تُكره فيها على البغاء . وقد تبقى بعد وفاة زوجها متاعاً يورث .

وفي « **رومية** » اجتمع مجمع كبير بحث في شؤون المرأة . فقرر : **المرأة كائن لا نفس له** ، وأنها لهذا لن ترث الحياة الأخروية ، وأنها رجس يجب ألا تأكل اللحم وألا تضحك . ومنعوها من الكلام حتى وضعوا على فمها قفلاً من الحديد ، فكانت المرأة من أعلى الأُسَر وأدناها تروح وتغدو في الطريق أو في دارها وعلى فمها قفل[٩].

ولخص قاسم أمين حالة المرأة في العصور القديمة بقوله : « ترتب على دخول المرأة في العائلة حرمانها من استقلالها ، لذلك كان رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكاً لزوجته . وكان يملكها كما يملك الرقيق ، بطريق البيع والشراء ، بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، فكان الرجل يشتري زوجته من أبيها فتنتقل إليه جميع حقوق الأب ، ويجوز للزوج أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر »[١٠].

تلك هي المرأة في العصور القديمة ، **أما في العصور الحديثة :**

---

(٨) Feminism: Translated to the English by Arthur Chater.

(٩) راجع مقارنة الأديان : جـ ٢ ص ١٨٧ ، وروح الدين الإسلامي : ص ٢٧١ .

(١٠) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٨٨ ، عن كتاب (المرأة الجديدة : ص ١٧) .

فقد عقد في فرنسة اجتماع سنة ١٥٨٦ م ليبحث شأن المرأة ، وما إذا كانت تعدُّ إنساناً أو لا تعد إنساناً . وبعد النقاش قرر المجتمعون **أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل .** فأثبت الفرنسيون « إنسانية المرأة » تلك الإنسانية التي كان مشكوكاً فيها من قبل ، ولم يثبتوها كاملة بل جعلوها تابعة خادمة للرجل . وفي شباط عام ١٩٣٨ م ، صدر قانون يلغي القوانين التي كانت تمنع المرأة الفرنسية من بعض التصرفات المالية ، وجاز لها ولأول مرة - في تاريخ المرأة الفرنسية - أن تفتح حساباً جارياً باسمها في المصارف[١١] .

وينقل الدكتور علي عبد الواحد في هذا الشأن المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون الفرنسي وهو كالآتي : « المرأة المتزوجة حتى لو كان زواجها قائماً على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها لا يجوز لها أن تهب ، ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن ، ولا أن تملك بعوَضٍ أو من غير عِوَض ، بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » ويقول الدكتور معلقاً : « ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فإن كثيراً من آثارها لا يزال ملازماً لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر[١٢] » .

وفي إنكلترة بقيت النساء حتى السنة ١٨٥٠ م **غير معدودات من المواطنين** ، وظلت المرأة حتى سنة ١٨٨٢ وليس لها حقوق شخصية ، فلا حق لها بالتملك . وإنما كانت المرأة ذائبة في أبيها وزوجها ، **ولم تُسَوِّ جامعة أكسفورد بين الطالبات والطلاب في الحقوق (في الأندية واتحاد الطلبة) إلا بقرار صدر في ٢٦ تموز ١٩٦٤[١٣].**

☆ ☆ ☆

(١١) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٨٨ .

(١٢) حقوق الإنسان في الإسلام ، ص : ٦٠ ، والنص عن مقارنة الأديان : جـ ٣ .

(١٣) صحيفة الأهرام : ٢٧ / ٦ / ١٩٦٤ .

موقف الإسلام من المرأة :

قرر الإسـلام المسـاواة بين الرجـل والمرأة في كل شيء إلا فيا دعت الحاجة الواضحة إلى استثنائه ، فقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾[التوبة : ٧١] .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدانِ وَالأَقْرَبُونَ وللنِّسَاء نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ ﴾[النساء : ٧] .

فالآيات تجمع الذكر والأنثى تحت حكم واحد ، ولكن بقيت مسائل ظنها مثيروها سوءات تمس الإسلام ، فراحوا ينشرونها في نحيب وولولة وعويل ، من أجل حقوق المرأة التي زعموا أن الإسلام هضمها ، وفي قمة هذه المسائل : **تعدد الزوجات والطلاق ، والقوامة وتأديب الزوجة .**

وإننا سنوضح هذه النقاط ، ولكن لا بد من التأكيد على أن الإسلام دين الفطرة والواقع ، فالرجل يَفْضُلُ المرأة في بعض الأمور من حيث القوة ، وتحمل الصعاب ، والكد والإرهاق . وعضلاته أصلب ، أما المرأة فيعتريها الحيض في كل شهر أياماً فيهز جسمها . وهي تنجب فتحمل عوارض الحمل والولادة . وكما يقول العقاد : « ولا تساوي المرأة الرجل في أي عمل اشتركا فيه ، ولو كان من الأعمال التي انقطعت لها المرأة منذ عاش الجنسان في معيشة واحدة ، لا تطبخ كما يطبخ ، ولا تتقن حتى الأزياء كما يتقنها ، ولا تبدع في صناعة التجميل كما يبدع فيها »[١٤] .

فالإسلام يشرع تشريعاً مثالياً للخاصّة ، ويحث أتباعه على اتباع هذا النهج

---

(١٤) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : ص ١٧٤ .

المثالي ، وهناك أناس لا يقوون على الوصول لهذه الغاية المثلى ، فلا يدعهم يهيمون في الضلال بل يشرع لهم ما يوفق به بين **طباعهم الشاردة وبين القيم الصحيحة**[١٥].

تعدد الزوجات :

﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُم أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾[النساء : ٣] .

﴿ وَلَنْ تستطيعوا أن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[النساء : ١٢٩] .

والقول الحق : **الزوجة الواحدة هي الأصل في الإسلام ، وسار على ذلك أكثر من ٩٨ ٪ من المسلمين . لكن عوامل متعددة تدفع الرجل - مسلماً كان أو غير مسلم - إلى التزوج بزوجة أخرى ، من هذه العوامل :**

عدم الإنجاب .
مرض الزوجة المزمن .
عدم الصبر أيام الحيض والنفاس ...
ومهما كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة[١٦] .

وتعدد الزوجات حل لزيادة عدد النساء على الرجال وبخاصة بعد الحروب ، ولا نزاع أنه أكرم للمرأة حينئذ أن تتزوج متزوجاً من الرضا بعلاقة الخليلة[١٧] التي لا حقوق لها . ولا لأولادها قِبَلَ الرجل ، وأكرم لها كذلك من حياة

---

(١٥) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٩٢ .

(١٦) يقول العالم الجليل الشيخ محمد أبو زهرة : (تعدد الحلائل خير من تعدد الخلائل ... والخيانة الزوجية في أوربة مقابلة التعدد في الإسلام ، ولننتظر كثرة الخيانة الزوجية التي لا ضابط لها إن منعنا التعدد أو قيدناه) . (مجلة العربي) العدد : ٣١ ، ص ٨٦ / ٨٧ .

(١٧) إحياء علوم الدين : جـ ٢ ص ٩٧ .

العانس لما في هذه الحياة من حرمان وفقر .

هذا ... وإن تعدد الزوجات خير طريق لإكثار النسل في البيئات التي تحتاج إلى كثرة الأيدي للحرب أو العمل كالبلاد الزراعية . فالمسلمون مكلفون بالجهاد في سبيل الدعوة . **فالتعدد كفيل بتعويض ما يفقد في الجهاد** ويعوض الكثير من النساء عن أزواجهن الذين فُقدوا في الحرب ، وهو سبيل لتلافي زيادة عدد البنات اللاتي بلغن سنّ الزواج ولم يتزوجن .

وتعدد الزوجات ليس من صنع الإسلام فحسب ، وإنما هو تشريع قديم عرفته كل الحضارات ، وفي مقدمتها التوارة وأقرّه الإنجيل ، إلا في حالة واحدة هي حالة الأسقف حيث لا يستطيع الرهبنة مع تعدد الزوجات ، فليكتف بزوجة واحدة ، **والقوانين الوضعية هي التي حرّمت التعدد في العالم المسيحي** ، يقول الأُستاذ محمد فؤاد الهاشمي (العالم الذي كان مسيحياً ثم أسلم) : « **إن اعتراف المسيحية بتعدد الزوجات بقي إلى القرن السابع عشر** »[١٨] . « وظل آباء الكنيسة في الغرب يبيحون تعدد الزوجات ويعترفون بأبناء الملوك الشرعيين من أزواج متعددات باعتراف (وستر مارك Wester Mark ، وبعرض من العالم القانوني جروتيوس Grotius)[١٩] .

والإسلام مع هذا لم يقبل بتعدد الزوجات كما عرفته الحضارات الماضية ، **بل حدّه وقيّده** وكان من قبل مطلقاً[٢٠] . وللسراري نظام كالتعدد ، وكل مافعله الإسلام أنه سمح بعد حرب أو زيادة عظيمة في عدد النساء ، أن يدخل المسلم في عصمته عدداً من النساء يعولهن ، ويحفظ شرفهن ، ويهب اسمه لأبنائهن فلا ينصرفن إلى التزين لجميع أنواع الرجال ، وامتهان عرضهن في سبيل سد حاجتهن

---

(١٨) الأديان في كفة الميزان : ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(١٩) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد : ص ١٧٨ .

(٢٠) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٩٤ .

الاقتصادية والنفسانيـة ، فـإن ملء العـالم بنسل غير شرعي يُلقي على عـاتق المجتمع أعباءً كثاراً .

ومما يجدر ذكره : أنه في الجمهوريـة العربيـة المتحـدة سنـة ١٩٦٣ أُعـدَّ مشروع للحد من تعدد الزوجات « ومن الطلاق أيضاً » بعد إبـاحـة هـذا وذاك ، إلا أمـام القاضي مع تقديم أسباب . ولكن المشروع رُفِضَ من قبل اللجنـة المشكلـة لـدراسـة هذا المشروع ، وسبب الرفض ، أن تعدد الزوجات بنسبة ضئيلـة لاتتجـاوز ٢ ٪ ، وأن نصف حالات التعدد هذه بدوافع مقبولـة ، وحـالات الطلاق كحـالات تعـدد الزوجات من ناحية النسبة والظروف ، وتقل النسبة من تلقاء نفسها في هذا وذاك على مرّ الأيام ، فلا داعي لإصدار قانون لاموضوع لـه تقريبـاً ، خـاصـة وإن ذكر الأسباب في حالة الطلاق قد يسيء إلى المرأة والأُسرة على العموم[٢١] .

وأخيراً وقع بيـدي عـدد من صحيفـة « صوت الإسلام » فكان العنوان الرئيس فيها نقلاً عن صحيفة الأهرام (**ألمانيا تبيح تعدد الزوجات**)[٢٢] . فما حمل بـه على الإسلام زوراً وبهتانـاً أخـذت بـه دولـة أوروبيـة مسيحيـة في هـذا العصر . فلِمَ ذلك ؟!..

إنها الحاجة الملحة التي فرضت نفسها !!



---

(٢١) تعدد الزوجات في القطر العربي السوري ٢ بالألف حسب إحصاء ١٩٧١ ، وهـذه النسبـة ضئيلـة جـداً معظم من عـدد فيهـا لـه عـذر مقبول أو طلب لـه مـايبرره . وليس كل من يُطَلِّق طلاقـه محسوب على الإسلام ، فمن الذين يطلّقون أنـاس لايعترفون على الإسلام وأحكامـه إلا بمـا ينـاسب هواهم ، ولو اتبعوا أحكامه سلوكاً في حياتهم لما وصلوا إلى الطلاق .

(٢٢) صوت الإسلام : العدد ٩٠ ، ١٤ شعبان ١٣٧٩ هـ .

الطلاق :

يبغض الإسلام الطلاق وينفر منه ، ويحث على علاقة زوجية دائمة من صورها :

ـ ﴿ وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها ، وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ [الروم : ٢١] .

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ، وَأَنْتُم لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

كما استهجن الإسلام الطلاق **ورسم السبل لحل الخلافات** دون اللجوء إليه ماأمكن ذلك :

ـ ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [النساء : ١٩] .

ـ ﴿ واللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ في المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾ [النساء : ٣٤] .

ـ ﴿ وَإِنْ خِفْتُم شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾ [النساء : ٣٥] .

ـ ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء : ١٢٨] .

ومن الأحاديث النبوية الصحيحة :

ـ **« لعن الله كل مزواج مطلاق »** .

ـ **« تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له العرش »** .

ـ **« أبغض الحلال إلى الله الطلاق »** .

هـذا موقف الإسلام من الطلاق ، ولكن قـد يعقب الحب كراهيـة ، والوفـاق خلاف ، والتفـاهم نزاع ، فيعترف الإسـلام بـالأمر الـواقـع ، ويضـع الطـلاق حـلاً أخيراً : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

إن الطـلاق دواء مرُّ المـذاق ، ولكن مرض الشقـاق أكثر مرارة وقسـوة ، وطالما بتر الأطباء عضو إنسان حرصاً على الإنسـان كلـه . والطلاق خير من الموقف الـذي يحصل كثيراً في الغرب عنـدمـا تسوء العلاقـة بين الزوج وزوجتـه ولاطريق للتوفيق بينهما ، فيأخذ كل منهما خديناً له ، تتخذ الزوجـة خـدينـا غير زوجهـا ، ويتخذ هو خدينة غيرها ، لأن الزواج غير مباح لأي منهما قبل الطلاق ، والطلاق يصعب الحصول عليه ، فلتكن الخدانـة الاثيمـة هي الحل ، وأدركت **بعض الـدول الغربية الأمر ، فيسّرت الحصول على الطلاق**[٢٣] ، وكانت آخر هـذه الـدول **إيطالية حيث أباحته عام ١٩٧١**[٢٤] ، فـأخـذت أوروبـة اليوم مـاعـابتـه على الإسلام بالأمس !.. ويكفي أن نعلم أنه ما إن أُقر الطلاق في إيطالية حتى قـدّم إلى المحاكم أكثر من مليون طلب طلاق . وعلينا هنا أن نتصور حيـاة مليون أسرة كانت تعيش حياة الشقـاء والنكـد داخل البيت ، يفر منهـا الزوجـان إلى العلاقـات غير الشرعية ليقوم بذلـك نظـام غير شرعي هو نظـام الخليلات ، وهو : مـاتعـاني منـه المجتمعات الأوربية .

---

(٢٣) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٩٦ .

(٢٤) نشرت الأسبوع العربي ، العدد ٦٨١ ، ص ٦٥ : « بدأت صناعة التهنئة المختلفة ، تتجه إلى قضايـا الطلاق باعتبارها أمراً واقعاً ، فظهرت في بعض أسواق الدول الغربية بطاقات مخصصة للأشخـاص الـذين أنهوا علاقـاتهم الزوجيـة ، وللأشخـاص الـذين يـودون تهنئتهم بـذلـك ، فقـد حـوت بعض البطاقات عبارات مثل : « تهانينا لطلاقكم » و « نحسدكم على حريتكم » و « مـاأجمل مـاصنعتم ... حظاً سعيداً » كما أن في الأسواق أيضاً بطاقات مزدوجـة متوجـة بكلمـة « انقسـام » وهي خـاصـة بـالأزواج المطلقين ، بحيث يكتب الـزوج المطلـق اسمـه وعنـوانـه ورقم هـاتفـه على جهـة وتكتب الزوجـة المطلقـة كل ذلـك على الجهـة الأخرى . والسوق الأمريكيـة هي التي يجري فيهـا حـاليـاً =

وكذلك علينـا أن نتصور أنـه لو استعمل كل من الزوجين حق الطلاق (بعـد استنفاد وسائل الوفاق كلها) لوجد الطرفـان سعـادتها ولتمتعـا معـاً بحيـاة زوجيـة جديدة سعيدة فيبنيان بذلك الأُسرة السعيدة التي تدعم المجتمع .

لماذا جعل الإسلام الطلاق بيد الرجل ؟

ـ لأنـه هـو المسـؤول عن الأُسرة وتـدبير شـؤون معيشتهـا ، وتربيـة الأبنـاء ، وربـاط الـزوجيـة هـو أسـاس هـذا كلـه ، **فمن الخطر أن يـوضـع بيـدٍ غير مسؤولة** ، ذلك إلى مايعرف في طبيعة النساء من سرعة الانفعال والتـأثر بـأوهى الأسبـاب . فلـو وضعت العصمـة في يـدهـا لتعرضت للخطر عنـد حـدوث أقـل المؤثرات(٢٥) ، كما جعل الإسلام الرجل يدفع للمرأة صَدَاقها كاملاً عنـد الفراق ، حتى يكون في هذه الخسارة المالية وماسوف يحتاج إلى بذله للزوجة الجديدة مايحول بينه وبين الطلاق إن كانت له مندوحة .

ومن ناحية ثـانيـة ، **جعل الإسلام للمرأة الحق في المطـالبـة بـالتفرقـة بينها وبين زوجها** ، إذا وجدت ضرورة تدعو إلى ذلك ، إنها تستطيع أن تتفق مع الزوج على التفريق ، بشرط أن تعوض له عن خسائره : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، فَلَا جُنَـاحَ عَلَيْهِمَـا فِيمَـا افْتَـدَتْ بِـهِ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] وحـذر القرآن الكريم الرجل من مساومة المرأة وإساءة معاملتها لكي يبتز مالها : ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَـا آتَيْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئـاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيـهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء : ١٩] .

وهذه قصة نعرضها لنتفكر بمغزاها فحسب :

= تصريف بطاقات الطلاق أكثر من الأسواق الأخرى إذ أن معدل الطلاق في أمريكة قـد ارتفع ٣٣ في المئة خلال الأعوام العشرة الماضية » .

(٢٥) تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٨١ .

ـ أراد أحد المسلمين العقلاء يوماً أن يطلق زوجته لعدم حصول التفاهم والوئام ـ فعسى ذلك يحدث له مع غيرها ، ويحدث لها مع غيره ـ فقال له الناس يسألونه : ماالذي يسوؤك منها ؟

قال : العاقل لا يهتك ستر زوجته ، فلما طلقها عاد الناس يسألونه : الآن قد طلقتها فحدثنا لِمَ طلقتها ؟ قال : مالي وللكلام فيمن صارت أجنبية عني ؟!

☆ ☆ ☆

القوامة :

أثبت الواقع **وتجارب البشرية أن الرياسة ضرورية لكل مجتمع صغير أو كبير** ، فقد يحدث خلاف في الأُسرة ، ولابد أن يكون من يبت في الأمر ويتخذ فيه قراراً ويكون مسؤولاً عنه . ومن هنا كانت « القوامة » .

ومن الطبيعي أن **تكون القوامة للرجل لأنه أكثر مسؤولية عن أسرته :** كالإنفاق والتفوُّق الطبيعي في جسده ... ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ ، وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِم ﴾ [النساء : ٣٤] . وهذه القوامة يجب أن تكون رحيمة ، فيها تعاون وعدل : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

ومن الدلائل الفطرية الطبيعية لقوامة الرجل ، شعور المرأة بالحرمان والنقص والقلق وفقدان السعادة عندما تعيش مع رجل لا يزاول مهام القوامة ، وتنقصه صفاتها اللازمة .

فالقوامة للرجل وظيفة داخل كيان الأُسرة لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة ، وصيانتها وحمايتها ، ووجود القيِّم في مؤسسة ما ، لا يلغي وجود حقوق الشركاء فيها ، والعاملين في وظائفها ، ولقد حدد الإسلام صفة قوامة الرجل ،

ومايصاحبها من لطف ورعاية وصيانة وحماية ، مع تكاليف في نفسه وماله ، وآداب في سلوكه مع زوجه وعياله .

والقوامة مسؤولية على عاتق الرجل ينظّم بموجبها أسرته « مؤسسته الصغيرة » فهي ضبط دقيق لأمورها ، وهي توزيع للاختصاصات ، وتحديد للواجبات ، ضمن بيت ترفرف عليه المحبة والعطف والإلفة[٢٦] .

وناحية مهمة : **أعطى الإسلام للمرأة حق التدخل في اختيار زوجها** ، وبهذا فهي تختار القيّم عليها ، ولها أن تلاحظ فيه المقدرة على القوامة الرشيدة .

« وإذا اعتبرنا مسألة القوامة من جهة « إدارية » بحتة واعتبرنا أن الأسرة هيئة لاغنى لها عن قيّم يتولاها ، فمن يكون هذا القيم من الزوجين ؟ أتكون القوامة للمرأة أم تكون للرجل ؟ أتكون حقوق الأبناء في ذمتها أم في ذمته »[٢٧] ؟؟!

☆ ☆ ☆

التأديب :

وضع الإسلام أساليب للتغلب على الخلافات التي قد تنشب بين الزوج وزوجته ، ووضع أساليب للتغلب على الوصول إلى السلاح البتار القاسي : « الطلاق » وضع مراحل أربع موضحة في الآية الكريمة حسب التسلسل : ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ، واهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ، وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ

---

(٢٦) راجع كتابنا : « عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي » ، بحث « المنهزمون أمام المبادئ الدخيلة » ص ١٢٠ .

(٢٧) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد : ص ١٧٥ .

بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾ [النساء : ٣٤ - ٣٥] .

فالوعظ وهو علاج رقيق هادئ يدعو لإزالة الجفوة في حب وقرب ، فإن لم ينفع هذا السلاح **فالهجر** وهو سلاح يجمع بين اللين والشدة ، فيه يسر وفيه زجر ، فإن لم ينفع هذا السلاح **فالضرب** (إذا سمحت الظروف به) وقبل اللجوء إلى الحكمين حيث انكشاف أسرار الزوجين وتعريض حياتها لألسن الناس[٢٨] .

وانتهز أعداء الإسلام - مستشرقين ومبشّرين - فكرة وجود الضرب في تشريع التأديب في الإسلام ، فراحوا يولولون ويتباكون ، لالقسوة في التشريع ولكن لمرض في نفوسهم .

فلنر أحاديث رسول الله ﷺ :

- **« ماأكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم » .**
- **« خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .**
- **« لن يضرب خياركم » .**
- **« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم » .**
- **« استوصوا بالنساء خيراً » .**
- **« أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب البعير ؟ » .**

وهذا السلاح - الضرب - لايستعمل إلا في ظروف تخضع للزمان والمكان ، فهو لايستعمل مع امرأة تفضل التحكيم عليه ، أو تفضل الطلاق عليه ، ولانزاع إنه سلاح فعال مع بعض النساء ، يقول العقاد : « وإنه لمن السخف الرخيص أن يقال إن جنس النساء قد برئ من المرأة التي يصلحها الضرب ولا يصلحها غيره ، ونقول

(٢٨) مقارنة الأديان : جـ ٣ ص ١٩٨ .

إنه سخف رخيص وخيم لأنه ذلك السخف الذي يضر كثيراً ولا يفيد أحداً »[٢٩] .

وهذا المستشرق الذي نرد عليه وعلى أمثاله - كبروكلمان في تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٨٠ - من الذين أطلقوا ألسنتهم وأقلامهم للنيل من الإسلام والمسلمين عن طريق المرأة المسلمة ، فإننا ندعوهم ليتجهوا بعنايتهم إلى **مشكلة المرأة الغربية التي تمر بمأساة قاسية تهدد كيانها وكيان الأسرة الغربية** وتهدد مستقبل الجيل الجديد .

إن ما يسمونه (**الأم الآنسة**) في الغرب وآلاف المواليد الذين لا يعرفون لهم آباء لمشكلة تحتاج إلى حل يرمي إلى ضمان نوع من الحضانة[٣٠] لهؤلاء المشردات ولأولادهن ، وذكرت الإحصائيات الرسمية أنه من بين **كل تسعة أطفال ولدوا في لندن خلال عام ١٩٦٠ واحد لم تتزوج أُمُّهُ** ، وهذا التسع من المواليد عدد كبير جداً . فقد أثبتت هذه الإحصائيات أن عدد المواليد في لندن خلال ذلك العام بلغ (٥٧٣٦٨) طفلاً[٣١] .

فأين حل المشكلة ؟ أليس في الإسلام حلها ؟!

---

(٢٩) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : ص ١٨٦ ط كتاب الهلال ، العدد ١٦٩ .

وهناك رأي لعالم أوروبي من علماء النفس تجاه إحساس النساء بالضرب ، وصاحب الرأي هو : **G.A. Hodfield** في كتابه علم النفس والأخلاق ، نعرضه ولا ندعو لاستعماله ولكن للتفكير به : « غريزة الخضوع تقوى أحياناً ، فيجد صاحبها لذة في أن يكون مُتَسَلَّطاً عليه ، ويحتمل لذلك الألم بغبطة ، وهذه الغريزة شائعة بين النساء وإن لم يعرفنها ، ومن أجلها اشتهرن بالقدرة على احتمال الألم أكثر من الرجل ، والزوجة من هذا النوع تزداد إعجاباً بزوجها كلما ضربها وقسا عليها ... ولاشيء يحزن بعض النساء مثل الزوج الذي يكون رقيق الحاشية دائماً ، لا يثور أبداً على الرغم من تحديه ... » .

(٣٠) راجع مقال « الحضانة » للشيخ محمد أبي زهرة في « العربي » العدد ٣٣ لترى أن الأم خير حاضن .

(٣١) سمحت بعض الدول الأوربية « بالإجهاض » رسمياً « كبريطانيا » لتخفيض عدد اللقطاء ولكن ستزداد الرذيلة ؟!.

الميراث :

☆ ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ في أَولادِكُم للذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء : ١١] ، فلماذا ؟

الجواب لا يحتاج إلى تعقيد في بنود عدة ، **إن المرأة معفاة من التكاليف المالية قبل الزواج وبعده** . فقبل الزواج يلتزم أبوها بالإنفاق عليها وبعد الزواج يصير الإنفاق عليها وعلى أولادها مسؤولية الزوج ، حتى ليرى بعض الباحثين **أن المرأة أوفر حظاً في الميراث من الرجل** ، فلئن تأخذ المرأة خمسة وتدخرها ، خير من أن يأخذ الرجل عشرة لينفق منها أو ينفقها كلها .

« فإذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف ، فإن تقرير الشارع لها حَظّاً من المواريث غاية في الرأفة ومراعاة جانبها والعناية بشأنها »[٣٢] .

☆ ☆ ☆

وبعد ...

فماذا جاءت به القرون بعد القرون من زيادة لها على نصيبها من عدل الإسلام ؟

ويمكن أن نسوق هذه الأخبار في سطور لزيادة الفائدة وللاطلاع :

عام ١٩٦٠ جرى استفتاء في ألمانية بين الرجال عن المرأة المثالية ، فتبين من نتيجة الاستفتاء أن الرجل الألماني لا يؤيد فكرة اشتغال المرأة ولا يتحمس للزواج منها ، والمرأة المثالية في رأيه هي : « سيدة البيت » التي تهتم بشؤون أسرتها وتقوم

---

(٣٢) الإسلام دين الفطرة : ص ٨٦ . عبد العزيز جاويش .

بتربية أطفالها بدون أي مساعدة من أمها ، وهي التي تطهو جيداً وتوفر لزوجها الراحة الكاملة[٣٣] .

كان مكتب التعداد في الولايات المتحدة الأمريكية قد قرر في عام ١٩٥٧ بأن عدد النساء يزيد على الرجال بـ ٣,٦٠٠,٠٠٠ امرأة بسبب فتك الأمراض بالرجال أكثر من النساء . كما كان قد قرر بأن عدد الأرامل يزيد بمعدل مليونين كل عشر سنوات ، أي أنه سيبلغ أكثر من أحد عشر مليوناً امرأة أرمل عام ١٩٧٥ . ولدى الدكتورة « ماريون لانجر » العالمة الاجتماعية المتخصصة في استشارات الزواج رأي صريح يقول : **لدينا حلاّن ممكنان لتغطية النقص المتزايد في الرجال : إما تعدد الزوجات ، وإما إيجاد طريقة ما لإطالة أعمار الرجال ، وهذا ما لم يحصل**[٣٤] .

نشرت « الأخبار » : لوحظ أن طالبات كثيرات ممن وقع عليهن الاختيار كملكات للجمال قد رسبن في الامتحان أكثر من مرة ، حتى انقطع بعضهن عن الدراسة في الجامعة[٣٥] .

أذاعت وكالة « رويتر » ظهر ٢٥ ألف طفل غير شرعي في ولاية لويزيانا الأمريكية ، فناشدت اللجنة المشرفة على شؤونهم الشعب الأمريكي مد يد المعونة لهؤلاء الأطفال حتى يجدوا الغذاء والكساء . « وهذا ثمرة من ثمار المدنية الغربية وثمرة يانعة للاختلاط !... »[٣٦] .

عام ١٩٦٠ تجمعت ٧٤ دولة في مؤتمر الجريمة في لندن فقرر أن **من أهم عوامل ازدياد الجرائم بين الأحداث ، خروج المرأة من البيت والفراغ**

(٣٣) العدد : ٩٠ (صوت الإسلام) ١٤ شعبان ١٣٧٩ هـ .

(٣٤) « المختار » ريدر دايجست ، عدد شباط ١٩٥٨ ، عن مجلة (هاربر) .

(٣٥) العدد : ١٠١ (صوت الإسلام) ص ٦ .

(٣٦) و (٣٧) العدد : ١٠٤ (صوت الإسلام) .

الذي تتركه لأبنائها الأحداث[٣٧] .

في استفتاء جرى في الصحافة الأمريكية نشرت بعض فقراته « صوت الإسلام ، العدد ٩٧ ، ص ١٢ » عن رأي الفتيات في تعدد الزوجات . قالت واحدة : ماذا لو طلبت فطيرة وطلب صديقك غيرها ولم يكن بالمطعم سوى فطيرة واحدة ، أفلا تتقاسمانها ؟؟!.

وقالت أخرى : **تعدد الزوجات في رابعة النهار في رعاية الله ، خير من الخليلات في سواد الليل** وفي رعاية الشيطان .

جاء في التقرير السنوي لوزارة الداخلية البريطانية أن ١٠ آلاف فتاة تحت سن العشرين ألقي القبض عليهن بتهمة الدعارة والتسكع والتحريض على الفسق ، كما صرح مدير « سكوتلانديارد » بأن عصابات المراهقات والنساء تهدد أمن لندن[٣٨] .

سَمَحَ المبشرون « الذين وراءهم دول استعمارية أوربية وأمريكية » بالزواج باثنتين بأفريقية فقط ، تفكّر ؟![٣٩] . فكيف يسمح هؤلاء بتعدد الزوجات تارة ويحملون على الإسلام تعددها تارة أخرى ؟ أهي أهواؤهم التي استعبدتهم ؟

رفضت المرأة الفرنسية الاشتراك في مؤتمر لجنة حقوق المرأة التابعة للأمم المتحدة ، **لرفضها المساواة المطلقة على كواهلها** دون قيود وحدود[٤٠] . ونتيجة استفتاء أجرته الجمعية النسائية للمراسلة بنيويورك تبين **أن نصف نساء**

---

(٣٨) صوت الإسلام ١٩٦١ ، العدد : ١٢٥ .

(٣٩) صوت الإسلام : العدد ١١٢ .

(٤٠) الأهرام : العدد ٢٧١٢٦ ، ٢ شوال ١٣٨٠ هـ .

العالم غير راضيات عن المساواة ، ورأى بعضهن أن المساواة أدخلت واجبات قاسية إليهن[٤١] .

تحت عنوان : (أستاذة جامعية تنصح طالباتها بالزواج أولاً) نشرت الأهرام[٤٢] ما يلي :

أستاذة جامعية في انجلترة وقفت هذا الأسبوع أمام مئات من طلبتها وطالباتها تلقي خطبة الوداع بمناسبة تقديم استقالتها من التدريس . قالت الأستاذة : ها أنا قد بلغت الستين من عمري ، وصلت فيها إلى أعلى المراكز ، نجحت وتقدمت في كل سنة من سنوات عمري ، وحققت عملاً كبيراً في المجتمع ، كل دقيقة في يومي كانت تأتي عليّ بالربح ، حصلت على شهرة كبيرة ، وعلى مال كثير ، أتيحت لي الفرصة أن أزور العالم كله .

ولكن هل أنا سعيدة الآن بعد أن حققتُ كل هذه الانتصارات ؟

لقد نسيت ما هو أهم من ذلك كله ... نسيت أن أتزوج وأن أنجب أطفالاً ، وأن أستقر ، إنني لم أتذكر ذلك إلا عندما جئت لأقدم استقالتي شعرت في هذه اللحظة أنني لم أفعل شيئاً في حياتي ، وإن كل الجهد الذي بذلته طوال هذه السنوات قد ضاع هباء ، فسوف أستقيل ، وسيمر عام أو اثنان على استقالتي ، وبعدها ينساني الجميع في غمرة انشغالهم بالحياة ، ولكن لو كنت قد تزوجت وكوّنت أسرة كبيرة لتركت أثراً كبيراً وأحسن في الحياة .

إن وظيفة المرأة الوحيدة هي أن تتزوج وتكوّن أسرة ، وأي مجهود تبذله غير ذلك لا قيمة له في حياتها هي بالذات . إنني أنصح كل طالبة تسمعني أن تضع هذه المهام أولاً في اعتبارها وبعدها تفكر في العمل والشهرة .

---

(٤١) الأهرام : العدد ٢٧١٣١ .

(٤٢) الأهرام : ١٥ ذي الحجة ١٣٨٠ هـ / ٢٩ أيار ١٩٦١ م .

أجل ... سوف تخسر المرأة ما لا يعوضه جاه ولا شهرة ولا مـال ولا منصب ، إنها تخسر عُشاً سعيداً هادئاً حالماً ، فتجربة ستين عاماً نضعها أمام مسامع الجميع . فلنتفكر ؟!.

☆ ☆ ☆

وناحية مهمة عالجها الإسلام بالنسبة للمجتمع : **ألا وهي الاختلاط :**

العمل مسموح به للمرأة ولكن بحدود ودون اختلاط ، في المعارك الإسلامية خرجت المرأة **وشاركت في الجهاد** ولكن بجوٍ ملائكي طاهر من الطرفين ، من جند الإسلام ومن خرجن للتمريض وخدمة الجند .

أما الانطلاق في الاختلاط والتجاوز به فلا يخلو من أحد أمرين[٤٣] :

فهو إما أن يؤدي إلى إثارة الشهوة في الجنسين وزيادة حدتها ، أو :

يؤدي إلى إضعافها وكسر حدتها .

فإذا كان الاختلاط مؤدياً إلى تجاذب الذكر والأنثى على ما ركب في طبيعة كل منهما ، ولم تكن هناك حدود لهذا الاختلاط أو نظام مرسوم ، تحول الأمر إلى فوضى لا ضابط لها . وعند ذلك يشيع الأذى بين الناس بشيوع الأمراض التي قدر الله عز وجل أن يضرب بها الذين يقارفون الفاحشة من الزناة ، ويفسد المجتمع ويضطرب نظامه ويتمزق شمل جماعته ، ويموج بعض الناس في بعض بتكاثر الأحقاد والضغائن بين الآباء الذين أوذوا في بناتهم ، والأزواج الذين أوذوا في نسائهم ، والأولاد الذين أوذوا في أمهاتهم ، وبين المتنازعين

---

(٤٣) اعتمدنا في هذا البحث على كتاب « حصوننا مهددة من داخلها » للدكتور : محمد محمد حسين . الطبعة الثانية ١٣٨٨ / ١٩٦٨ . طبع دار المنار الإسلامية ـ الكويت فسنذكر فقط أرقام الصفحات المقتبس منها .

والمتنازعات والمتنافسين والمتنافسات على العشيق الواحد ، وذلك كله مما لا خير فيه ومما لا تسعى إليه جماعة من الناس تنشد الوحدة والطمأنينة والسلام ولا تسلك سبيلاً تظن أنه يؤدي إليه ، ذلك هو أحد الفرضين(٤٤) .

أما الفرض الآخر فهو أن تجاوز الحد في الاختلاط بين الرجال والنساء ، فكثرة اللقاءات بينهم وبينهن أفراداً وجماعات ، **موجب لإضعاف التجاذب بخفوت صوت الشهوة الجنسية وإضعاف حدتها أو تحويلها عن وجهها وأسلوبها** على ما يزعم الزاعمون من بعض الباحثين في علم النفس ، الداعين إلى تهذيب الغريزة الجنسية ، أو التنفيس عنها ، ومعنى هذا أن يجد كل من الذكور والإناث لذتهم في مجرد الاستمتاع بالحديث والنظر ، وإن كان طول التجاور والتقارب يولد في نفوسهم ونفوسهن شيئاً من الإلفة لا تثور معه الرغبة في استمتاع جسد منهم بجسد الجنس الآخر عند رؤيته ، بل مع قربه منه وملاصقته له ، وذلك كله أمر معقول ومحسوس يؤيده المنطق والتجربة ، لأن إلف النفس للشيء وتكرار اعتبارها إياه ، يضعف أثره فيها . فالذي يطيل المكث في مكان عفن نتن يفقد الإحساس بعفنه ونتنه على مر الزمان ، والذي يدمن شم رائحة زكية يفقد الإحساس بطيبها بعد وقت قصير أو طويل ، والذي يتعود لمس الأجسام الساخنة أو الشديدة البرودة يفقد الإحساس بحرارتها أو ببرودتها مما لا يطيقه غيره من الذين لم يدمنوا ذلك . وكذلك الشأن في الرجال والنساء(٤٥) .

والذي يذهب إليه دعاة تهذيب الشهوة صحيح من بعض نواحيه ، وإن **كان كثير من الشهوات الجامحة الجارفة يستعصي على الترويض** ، وينطلق إلى الفتك والافتراس ويفلت زمامه من المروضين . وأغلب الظن أن إدمان الخضوع للتجربة على تعاقب الأيام ، قد ينتهي إلى ما يريده المروضون من دعاة

---

(٤٤) ص ١١٧ .

(٤٥) ص ١١٩ في « حصوننا مهددة .. » .

التهذيب . ولكن أي شيء يمكن أن يُسَمَّى هذا الذي يسعون إليه ويبذلون الجهود لتحقيقه ؟ أليس هذا **هو البرود الجنسي عينه ؟**

إذا رأى الرجل المرأة فلم يثر فيه هذا اللقاء ما يثور عادة في الرجال عند رؤية النساء ، وإذا رآها بعد ذلك عارية الأذرع والسوق والصدور والظهر ، بارزة النهود والأوراك فكأن قصارى ما يلتذ به هو الحديث والنظر ، ولم يستتبع هذا الحديث والنظر أي اندفاع أو رغبة في ممارسة الصلة الجسدية . وإذا تشابكت الأذرع بالأذرع ، والتفت السوق بالسوق ، ولامست الأجساد الأجساد ، وصدراً لصدر ، وبطناً لبطن ، ثم لم يطرأ على الرجل أي تغيير جنسي جسدي ، وكان قصارى ما يستتبعه ذلك كله هو أن تسري في جسده نشوة لا تدفع به إلى الحالة الإيجابية العضوية . أليس يكون قد بلغ ما يسمى بالبرود الجنسي ؟ وهو عند ذلك برود مزدوج يشمل الطرفين كليهما : الرجل والمرأة . ثم أليس البرود الجنسي مرضاً يسعى المصابون به إلى الأطباء يلتمسون عندهم البرء والشفاء من أعراضه ؟ فكيف نجعل هذا المرض غاية من الغايات نسعى إليها باسم التنفيس عن الكبت أو تهذيب الغريزة الجنسية ؟ وكيف يكون الحال لو تصورنا هذا الناموس - ناموس تجاذب الذكور والإناث - وقد (تهذَّب) في سائر خلق الله ، فبطل تجاذب السالب للموجب ، أو فتر ، فأصبح من غير المؤكد أن يترتب على التقائها الشوق الشديد ، والميل العنيف الذي لا يقاوم إلى الاندماج الكامل ؟ **أليس يفسد الكون كله ؟** ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدتِ السَّمَواتُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِم فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِم مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

إن حدة الشهوة وقوتها سبيل إلى تحسين النسل وداعية إلى إبراز أحسن خصائصه ، وأفضل صفاته ، كما أن فتور الشهوة وبرودتها سبيل إلى ضعف النسل وداعية إلى تدهور خصائصه وانحطاط صفاته[٤٦] .

---

(٤٦) حصوننا مهددة ... ص ١٢١ / ١٢٥ .

أدرك الإمام الجليل أبو حامد الغزالي خطر ضعف الدافع الجنسي في كتابه « إحياء علوم الدين » من بين ما سرده في الخصال المطيبة لعيش الزوجين[٤٧] : عندما وضح عدم الزواج من القرابة القريبة ، مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : « **لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يُخْلَق ضاوياً** » ، وذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة .

ونتيجة خطيرة لشيوع **البرود الجنسي ، وهي انتشار الشذوذ الجنسي** واستفحال دائه ، فهي راجعة إلى أن الرجل الذي أَلِفَ أن يقع نظره على مفاتن المرأة فلا يثور ، يحتاج لكي يثور إلى مناظر وأوضاع تخالف ما أَلِفَ ، ومصيبته هذه بالبرود الجنسي تحرمه من الإحساس بذكورته ، فيعاني أشد الألم مما يحسه في أعماق نفسه من الذلة والمهانة ، ويدفعه ذلك إلى أن يحاول تحقيق متعة الاتصال الجنسي وإثباتها من كل الوجوه ، عن طريق التقلب بين الخليلات وبائعات الهوى والتماس الشاذ الغريب من الأساليب والأوضاع ، رجاء انبعاث ما ركد من ذكورته ، وقد تدفعه مع ذلك إلى إغراق نفسه في المخدرات ، تعويضاً لما فقده من لذة ، أو إلى الإجرام ، أو المغامرة ، إثباتاً لذكورته من وجه آخر .

ومثل هذا الشذوذ يشمل المرأة والرجل على السواء .

ومن لا يقنع إلا إذا وضع أمامه دليل من الغرب ، فإنا نسوق إليه ما يلي :

ورد في « المصور » العدد ١٦٨٩ / ص ٤ : عن الأستاذ (بيتريم ساروكين) مدير الأبحاث بجامعة « هارفارد » في كتابه الذي صدر أخيراً بعنوان : « الثورة الجنسية » حيث قرر **أن أمريكة سائرة بسرعة إلى كارثة في الفوضوية الجنسية** ، كما قرر : أن أمريكة متجهة إلى الاتجاه نفسه الذي أودى إلى سقوط الإمبراطورية الإغريقية ، ثم الإمبراطورية الرومانية في الزمان القديم .

---

(٤٧) حصوننا مهددة ... ص ١٢٣ / ١٢٤ وقول الغزالي في جـ ٤ ص ١٣٢ / ١٣٣ ط لجنة نشر الثقافة الإسلامية .

ويقول في ذلك الصدد : « إننا محاصرون من جميع الجهات بتيار مطرد من الجنس يغرق كل غرفة من بناء ثقافتنا ، وكل قطاع من حياتنا العامة ، وهذه الثورة التي تعبر بنا آخذة في تغيير حياة كل رجل وكل امرأة في أمريكة أكثر من أي ثورة أخرى في هذا العصر » .

ومن ذلك ما جاء في صحيفة « الأخبار »[٤٨] تحت عنوان : عالم أمريكي يقول : « **إن المرأة الأمريكية باردة** » حيث نقلت ما صرح به الدكتور جون كيشلر أحد علماء النفس الأمريكيين في شيكاغو ، حيث قال : إن (٩٠) في المائة من الأمريكيات مصابات بالبرود الجنسي ، وأن (٤٠) في المائة من الرجال مصابون بالعقم ، وقال الدكتور : « **إن الإعلانات التي تعتمد على صور الفتيات العارية هي السبب في هبوط المستوى الجنسي للشعب الأمريكي** »[٤٩] .

ومن شاء المزيد فليرجع إلى تقرير لجنة الكونغرس الأمريكية لتحقيق جرائم الأحداث في أمريكة والذي نقلته مجلة « التحرير » العدد ٢٣٤ تحت عنوان : **أخلاق المجتمع الأمريكي منهارة** ، وهو يشير إلى ارتفاع نسبة تعاطي المخدرات بين الأحداث وانتشار الحانات التي تقدم الخمور وكتب الجنس وقصص الجنس وأفلام الجنس ، وانتشار نوادي العراة بكثرة مخيفة على الشواطئ الشرقية الخاصة .

ومن شاء فليرجع إلى تقرير اللجنة التي شكلها مجلس العموم البريطاني للتحقيق في مشكلة الشذوذ الجنسي ، فانتهت من بحثها إلى اقتراح إباحته بعد الواحدة والعشرين ، وقد نشرته صحيفة « الأخبار » أخيراً[٥٠] .

---

(٤٨) العدد ٢٦ ، محرم ١٣٧٧ / ص ٢ .

(٤٩) ص ١٣٦ من « حصوننا مهددة ... » .

(٥٠) ص ١٣٦ من « حصوننا مهددة ... » .

وبالفعل فـانـه بسبب الاختلاط الـذي سبب مـا سبب في المجتمع البريطـاني ، أصبحت المرأة التي تركت أنـوثتهـا واتصفت بصفـات الرجـالات تسمى بـ « الجنس الثالث » فهذا الجنس « الثالث » يخالف الرجال طبيعة وتركيباً ، ويخالف النسـاء وظائف وأعمالاً .

الرجل الذي يكدُّ ويجهد نفسه ويرهقهـا في العمل خـارج البيت ، محتـاج إلى لقمة طيبة ، وبيت نظيف ، وزوجة متزينة يأنس بها ، ويسكن إليها مما يجده من عناء ، فَتُسَرِّي عنه بعض ما يعتريه من السأم والاجهاد ، وما يترك عنف التعـامل مع الناس في نفسه من آثار الضيق .

وكدح المرأة في ميادين الأعمال العامة يصرفها عن رعايـة الزوج والولـد لأنها ستعود إلى البيت مكدرة مرهقة كالرجل ، فـأيها سيستطيع أن يسرّي عن الآخر ؟ وأيها الذي سيتسع صـدره لـمداعبـة البنين ، وهل يصبح الفرد رجلاً كان أم امرأة أو طفلاً إلا ترساً من تروس آلة صماء في حياة لا سكن فيها ولا قرار !.

وإذا قيـل نعطـل نصف المجتمـع ؟ لقلنـا : يجب أن يستـوعب العمـل كل المتعطلين من الرجال قبل أن يُسمح لامرأة واحدة بتولي عمل من الأعمال العـامـة ، فالرجل العامل يحيي نفسه ويحيي في الوقت نفسه امرأة إلى جانبه من نصف المجتمع .

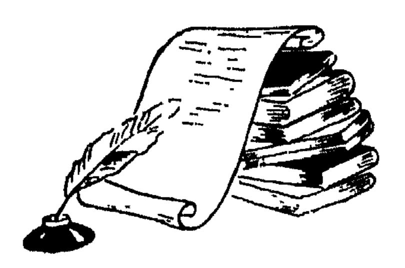
وهناك خطة صهيونية لهدم الأسرة في العالم أجمع وُضحت أسسها في « بروتـوكـولات حكمـاء صهيـون »[٥١] ، ومن المعروف أن « فرويـد » رأس المـزاعم النفسيـة الحـديثـة التي تستنـد إلى مـا سماه العقـل البـاطن والتي تجعـل « الغريـزة الجنسية » محور الشخصية الإنسانيـة يهودي ، بل لقـد كان معروفـاً بتعصبـه المفرط

---

(٥١) راجع كتـاب « الخطر اليهودي » ، بروتوكـولات حكمـاء صهيـون » ترجمـة محمـد خليفـة التـونسي البروتوكولات رقم : ١ ، ٢ ، ، ٤ ، ٥ ، ، ٨ ، ٩ .

لليهود ، فلم يكن يختـار مسـاعـديـه وأعوانـه إلا منهم[٥٢] ، **فهـدم الأسرة يكون بوضع المرأة في غير مكانها المنـاسب لهـا مع كرامـة واحترام** ، ووضعهـا في مكان غير مناسبٍ طبيعي يسبب ارهاقـاً وكـدراً وتعطيلاً لجهود رجـال ، إن عملوا عاشوا وعاش معهم نصف المجتمع .





(٥٢) راجع « المذاهب الهدامة أفيون الشعوب » للعقاد رحمه الله .

(الجلسة السادسة عشرة)

زوجات محمد ﷺ

☆ ﴿ قُلْ : سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً ﴾ . [الإسراء ، ٩٣]

يقف الإسلام الحنيف بعد أن سمع من النائب العام شبهة ركز عليها المستشرقون[١] ، ألا وهي : لماذا تزوج النبي ﷺ بهؤلاء النساء كلهن ؟ إنها الشهوة الجنسية ، لقد كانت هذه الشهوة دافعاً لتعدد زوجاته .

فقال الإسلام مفنداً هذه الشبهة :

مقدمة[٢] : بالنسبة لزوجات النبي ﷺ وتحديد الموقف منها ، اتخذ كثيرون

---

(١) من هؤلاء المستشرقين : موير ودرمنجهم وواشنطون إرفنج ولامانس ... ممن يروج عندهم رخيص الاتهام ، لقد قالوا إن النبي ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة كان قد بلغ الخمسين ، وكانت أكبر منه سناً ، فما كاد يفرّق الموت بينها وبينه حتى رجع إلى صباه يطلق له العنان بمن يشاء من الزوجات « ص١٣٧ الإسلام بين الانصاف والجحود » .

(٢) اعتمدنا في هذا البحث بصورة رئيسةٍ كتاب : « نساء النبي » للدكتورة بنت الشاطئ « ط . دار الهلال » مع مخالفتها في قصة زواج زينب ، ثم :
- تاريخ الإسلام : ج١ ، ص١٧٢ ـ ١٨٦ للدكتور حسن إبراهيم حسن .
- تاريخ الأمم الإسلامية : ج١ ، ص١٥٤ « البيت النبوي » للشيخ الخضري .
- الكامل في التاريخ : ج١ ، لابن الأثير .
- أسد الغابة ، ط . دار الشعب لابن الأثير .
- تاريخ الطبري : أبو جرير الطبري .
- محمد في حياته الخاصة : الدكتور نظمي لوقا ، ط « دار الهلال » .

موقفهم بهوى « فمنهم من زين لـه الإيمـان والإجلال أن ينزّه الرسـول ﷺ عن بَشَرِيَّتِـهِ التي أصر القرآن الكريم عليهـا ، وأكثر - ﷺ - من تقريرهـا والاعتراف بها ، ومنهم من أضله التعصب وأعماه الحقد فجعل من هـذا الجـانب في حيـاة نبينـا العظيم ما يشفي غله وينفس عن حقده »[٣] .

« وقد قال المستشرقون - بتعدد الزوجات - ما قـالوا ، ولم يروا في هـذا الجمع بين عدد من النساء تحت رجل واحد سوى مظهر شهوة مسرفة ، وإنـه لضلال أملاه التعصب الأحمق والهوى الأعشى ، وانحراف عن النهـج العلمي الـذي يـأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثـة صنعتهـا بيئـة تفصلهـا عن بيئـة « محمد » آباد وأبعاد[٤] » .

والغرب اليوم لا يجرؤ أن يدعي أن نظام الزوجة الواحدة عنـده يُتَّبع في دقـة وينفذ نصاً وروحاً ، ومع هذا يـأتي بعض أبنـائـه فينكرون في جرأة أن يجمع محمـد ﷺ بين عـدد من الزوجـات منـذ خمسـة عشر قرنـاً ، في بيئـة قـد كان التعـدد هو نظامها السائد التي لا تعرف سواه إلا في حالات قليلة ولـدوافع خـاصـة ، ولم يكن هذا النظام اختيارياً وإنما قضت بـه طبيعـة الزمـان والمكان في إقليم صحراوي أدنى إلى البداوة ، وفي زمان يسوده نظـام القبليـة والبنون فيـه زينـة الحيـاة وفخر المرأة الإنجاب ، وفخر الرجال الولد وعزة النفر .

وربمـا بـدا لنـا اليـوم أن ذاك التعـدد كان مظهراً من مظـاهر استعبـاد المرأة العربيـة ورقهـا المزعوم ، وأنـه قصـد إلى إرضـاء الرجـال ، ولكنـه في الحق ، كثيراً ما ألقى على الرجـال عبئـاً ثقيلاً مرهقـاً ، وأنقـذ المرأة العربيـة من نظـام أبشع من التعدد وهو هذا « الرِّق العصري » الذي يعترف بزوجة واحدة ويدع لغيرهـا - ممن

---

(٣) نساء النبي : ص٦ .

(٤) نساء النبي ، ص :١٩ .

يعاشرهن الزوج ـ الضياع والهوان ... والمرأة الخاسرة هي التي تدفع الثمن باهظاً ، ويدفعه كذلك مجتمع تعس ، وإنسانية شقية بلقطاء مضيَّعين ، وصغار منبوذين ، لم يكن يعرفهم المجتمع العربي الذي يستكثر من الأولاد ، ولو عن طريق التبني والاستلحاق ، بحكم سيادة الرجل واعتزازه بكثرة النفر .

وبالنسبة لرسول الله ﷺ وتعدد زوجاته فهناك « جانب دقيق غفل عنه كثيرون ... ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء ، وقد تؤثر أنثى ـ راضية ـ أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل ، على أن يكون لها غيره كاملاً »[٥] ، وقد تنزل امرأة عن شباب العرب كلهم ، وترغب بالزواج من رسول الله ﷺ ، لتكسب الشرف العظيم ، بأن يسجل التاريخ أنها كانت زوجة عظيم العرب ومنقذهم وموحدهم ، فرغبت به « لشخصيته ومكانته ونفوذه » وليقترن اسمها باسمه الشريف إلى الأبد .

والآن لِنَرَ الظروف التي رافقت زواج النبي ﷺ من زوجاته :

☆ ☆ ☆

☆ خديجة بنت خويلد

« والله ما أبدلني الله خيراً منها ... »

« محمد رسول الله »

عاد ميسرة (خادم خديجة) من الشام ، حيث كان مع محمد الشاب في تجارة لخديجة ، دخل بلهفة ومتع أذنيها بحديث مثير عن التجارة الموفقة التي قام بها محمد لها[٦] فأنصتت إليه حتى إذا ودعها فكرت بهذه الشخصية المثالية ـ على فقرها ويتمها وليس بهذا تقاس الرجال ـ ، فكرت وهي التي خبرت الحياة وتزوجت مرتين من

---

(٥) نساء النبي ، ص :٢٠ .

(٦) ابن هشام ، جـ ١ ،ص٢٠٠ .

سـادات العرب وأشرافهم : أبي هـالـة بن زرارة التميمي ، وعتيـق بن عـائـد المخزومي[٧] ، وهي التي استأجرت غير واحد من الكهول والشباب ، فما رأت فيمن عرفت ذلك النمط المنفرد من الرجال ، هل تطلب الزواج به وقد ردت عن بابها الخطّاب من سادة قريش وسراة مكة[٨] ؟ أخبرت خديجة خادمتها « نفيسة بنت منية » بالأمر ، فذهبت « نفيسة » على الفور إلى محمد تسأله لِمَ لا يتزوج ؟ فقال : « ما بيدي ما أتزوج به ... » .

فقالت نفيسة على الفور : « فإن دعيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟ » .

فما مس سؤالها سمعه حتى أدرك المعنى وقال : « تلك خديجة ورب الكعبة » ومن سواها تدانيها شرفاً وجمالاً ؟!

وفعلاً لو دعته لأجاب ولكن هل تدعوه ؟

لقد دعته فعلاً ، وفي دارها اجتمع القوم ، أبو طالب[٩] والحمزة عما محمد ، وعنها عمها : عمرو بن أسد بن عبد العزى بن قصي . وتزوجها محمد ودام زواجها ربع قرن[١٠] ، فرزقا البنين والبنات : القاسم وعبد الله ورقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة[١١]

كانت ـ رضي الله عنها ـ عونا لمحمد الشاب في أموره ، وموقفها معروف عند

---

(٧) ابن هشام ، جـ ٤ ، ص١٩٣ .

(٨) ابن هشام ، جـ ١ ، ص٢٠١ .

(٩) قال أبو طالب في مجلس خطبة خديجة : « أما بعد : فإن محمداً لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً وإن كان في المال قل . فإنما المال زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ... » « صور من حياة الرسول » ، دويدر .

(١٠) ص٤٣ ـ نساء النبي ـ د . بنت الشاطئ .

(١١) الإصابة : جـ ٣ ، ص١٦١ ط : دار المعارف بمصر .

نزول الوحي ، فذهبت إلى ورقة بن نوفل ، وكانت أول من آمن واستجاب لمحمد رسول الله ، ولم تمت خديجة : (إلا وأمين الوحي يرعى الرسول غادياً رائحاً يذود عنه اليأس والإعياء ، والسابقون الأولون من المؤمنين يحيطون بنبيّهم مستبسلين يفتدونه بالمهج والأرواح ، ويرون الاستشهاد في سبيل دعوته مجداً وانتصاراً)(١٢) .

وبقيت خديجة ماثلة بين ناظري (محمد ﷺ) وستدخل حياته نساء وذوات عدد ، لكن مكانها سيظل أبداً خالصاً لهذه الزوجة الأولى . حتى أن عائشة بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنها - ستشغلها الغيرة من تلك الضرة التي سبقتها ، حتى قالت في يوم من الأيام لرسول الله : « كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ! » .

فرد رسول الله : « ... إنها كانت وكانت ، وكان لي منها ولد »(١٣) . وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح شاة يقول : « ارسلوا إلى أصدقاء خديجة » . فحدثته عائشة في ذلك مرة ، فقال : « إني لأحب حبيبها »(١٤) .

وتقول عائشة : « ما غِرتُ من امرأة لرسول الله ﷺ ما غِرتُ من خديجة ، مما كنت أسمع من ذكره لها ، وما تزوجني إلا بعد موتها بثلاث سنين »(١٥) .

ويذكر مرجليوث أن مال خديجة هو الذي جذب محمداً وجعله يتجاوز عما بينه وبينها من فرق السن ، أما « بلاشير » في كتابه : La Probleme de Mohamed فيرى الجاذب : الرقة المتناهية والحنان الغامر ، وأعجب من هذا وهذا « موير » الذي ذكر في كتابه : The Life of Mouhamed and the History of Islam أن محمداً كان يتهيَّب خديجة لمركزها المالي والاجتماعي ، وخاف أن تطالبه بالطلاق .

---

(١٢) نساء النبي : ص٤١ .

(١٣) نساء النبي : ص٤٤ .

(١٤) السمط الثمين ص٢٦ ، الاستيعاب : جـ ٤ ، ص : ١٨٢٤ .

(١٥) السمط الثمين ص٢٤ ، الاستيعاب : جـ ٤ ص : ١٨٢٣ .

وفي الحقيقة كذب الجميع بما ادعوا : فخديجة في الواقع هي التي فكرت بمحمد **وهي التي طلبت الزواج منه** . وكيف كان يمكن أن يفكر بها هو وهي التي ردت كبار الخُطّاب من سادات قريش ؟ فمن يدعي أن النبي ﷺ تزوجها لمالها إذ هي في الأربعين ، وهو في الخامسة والعشرين ، لم يطّلع على التاريخ والسيرة ، فبنى مثل هذا الحكم على جهل وقلة دراية وعدم مطالعة .

ووفاء محمد لخديجة بعد موتها أكبر دليل على حبه لها وتمام علاقات المحبة والألفة بين زوجين متفاهمين سعيدين ، هل يعقل أن محمداً يخاف أن تطالبه خديجة بالطلاق أيام حياته معها ، وهو الذي يخاصم عائشة فيها بعد وفاتها ، ويأبى عليها أن تمسّ ذكراها ؟ كيف يخشى الطلاق منها ، وهو الذي سمى عام موتها **« عام الحزن »** ؟ وهي السنة العاشرة للبعثة قبل الهجرة بثلاث سنين .

ولتفاهم الزوجين ومحبتهما ، لم يُفكر بالزواج بعدها حتى ساق الله إليه خولة بنت حكيم التي شعرت بالفراغ الذي جرى بفقد خديجة ، فخطبت له « سودة بنت زمعة » .

يقول رسول الله ﷺ : « والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء » .

ثم ما هي الدلائل والأحاديث والسيرة التي استدل منها هؤلاء المستشرقون على ادعاءاتهم المزعومة ؟ وبالطبع فإن هذا تخمين وحقد وتحيز وحكم لا دليل له . فلا يؤخذ به .



☆ سودة بنت زمعة :

☆ « والله مـــا بي على الأزواج من حرص ، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجاً للرسول »[١٦] .

ـ جاءت خولـة بنت حكيم السلميـة إلى رسول الله ﷺ تقترح عليـه أن يتزوج فقال : « من ... بعد خديجة ؟! »[١٧] .

فقالت خولة على الفور : « عائشة ... بنت أحب الناس إليـك » . فكَّر النبي ﷺ : أيرفض بنت أبي بكر ؟ وتأبى عليه ذلـك صحبـة طويلـة مخلصـة ، ومكانـة لأبي بكر عنـد الرسول لم يظفر بها سـواه ، ولكنـه قـال : لكنهـا مـا تـزال صغيرة يـا خـولـة ، فقـالـت : تخطبهـا اليـوم إلى أبيهـا ثم تنتظر حتى تنضـج ، ولكن من سيرعى شؤون البيت ، ومن لبنـات رسول الله يخـدمهن ، فقـالـت خـولـة : تتزوج أيضـاً : سـودة بنت زمعـة بن قيس بن عبـد شمس القرشيـة العـامريـة ، وأمهـا : « الشموس بنت قيس بن زيد » من بني عدي بن النجار[١٨] .

فخطب النبي ﷺ سودة جبراً لخاطرهـا ، وعزاء لهـا عن زوجهـا وابن عمهـا : « السكران بن عمرو بن عبد شمس » ذاك الذي هاجر إلى الحبشة : « ثم عـاد ظنـا منه أن قريشا قد ثابت إلى رشدها وكفت عن محاربـة رجل منهـا قـال : ربي الله ، فإذا الظن يخيب ، وإذا قريش يزداد اضطهـادهـا للمسلمين ضراوة وحقـدهـا عليهم جنوناً »[١٩] .

---

(١٦) نساء النبي ، ص : ٤٩ .

(١٧) الطبري ، جـ٢ ، ص١٦٢ .

(١٨) الإصـابـة ، جـ٨ ، السيرة : جـ١ ، ص٣٥٢ ، الاستيعـاب : جـ٤ ، ص١٨٦٧ ، الطبري جـ٢ ، ص١٦٢ .

(١٩) « نساء النبي » ، ص :٥٣ .

ولكنه توفي بعد أيام من عودته ، « وترك أرملة من بعده قد أسلمتها مِحْنَة الاغتراب إلى محنة التَّرَمُّل . لذلك ما أن ذكرت خولة بنت حكيم « سودة » حتى **مد يده الرحيمة إليها ، يسند شيخوختها ، ويهون عليها الذي ذاقت من نكد الحياة »**[٢٠] .

ورضيت « سودة » أن تخدم بنات رسول الله في سبيل أن ترى نفسها في داره ، ولما جاءت عائشة إلى الدار فسحت لها سودة المكان الأول في البيت[٢١] ، وسهرت على راحتها ، ولكن الرسول ﷺ بقي يعطف على سودة وبقيت سودة بقية حياتها في بيت رسول الله ﷺ متنازلة عن ليلتها لغيرها ، راضية بالعبادة والطاعة ، وكل غايتها أن يبعثها الله يوم القيامة زوجاً للرسول ﷺ .

ـ فزواج رسول الله ﷺ لسودة ، كان جبراً لخاطرها المكسور بعد غربة الحبشة وبعد موت زوجها ، **وكانت في سن كبير ، فهل تزوجها الرسول لشهوة ؟**

☆ ☆ ☆

☆ عائشة بنت أبي بكر :

☆ رسول الله : « ما نفعني مال قط ، ما نفعنا مال أبي بكر » .
☆ أبو بكر : « يا رسول الله ، وهل أنا ومالي إلا لك ؟! » .

اقترحت « خولة بنت حكيم » على رسول الله ﷺ أن يتزوج عائشة . فيتفتح

---

(٢٠)« نساء النبي » ، ص :٥٤ .

(٢١)« نساء النبي » ، ص :٥٦ .

قلبه ﷺ لصلة تؤيد ما بينه وبين أحب الناس إليه من صحبة وقربى ، تربطها معه برباط المصاهرة الوثيق[٢٢] .

كانت عائشة مخطوبة لجبير بن المطعم بن عدي ، فهي ناضجة من حيث الأنوثة مكتملة ، بدليل خطبتها قبل حديث خولة بنت حكيم .

وجبير بن المطعم هذا أمُّه مشركة خشيت أن تُدخل عائشة ابنها جبيراً في الإسلام فصارت وابنها في حل من عائشة حذر إسلام جبير على يد الفتاة التي شبَّت في دار الإيمان ، فوالدها الصديق وأمها أمُّ رومان .

تزوج رسول الله ﷺ عائشة :

« ولم تدهش مكة حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى صديقين ، بل استقبلته كما تستقبل أمراً طبيعياً مقرراً ، ولم يجد فيها أي رجل من أعداء الرسول أنفسهم موضعاً لمقال ، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء أن يتخذ من زواج محمد - ﷺ - من عائشة مطعناً أو منفذاً للتجريح والاتهام ، وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه إلا سلكوه ، ولو كان عبثاً وبهتانا »[٢٣] .

ولم ينكروا هذا الزواج بين صبية في سن عائشة وبين رجل يبلغ الثالثة والخمسين . « وأي عجب في مثل هذا ، وما كانت أول صبية تزف في تلك البيئة إلى رجل في سن أبيها ، ولن تكون كذلك أخراهن ، لقد تزوج « عبد المطلب » الشيخ من هالة بنت عم آمنة في اليوم الذي تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه ، من ترب هالة (آمنة بنت وهب) وسيتزوج « عمر بن الخطاب » من بنت علي بن أبي طالب وهو في سن جدها ، ويعرض عمر على أبي بكر أن يتزوج ابنته الشابة « حفصة » وبينهما من فارق السن مثل الذي بين الرسول وعائشة »[٢٤] .

---

(٢٢)« نساء النبي » . ص :٦٠ .

(٢٣)« نساء النبي » ص :٦٤ .

(٢٤)« نساء النبي » . ص :٦٣ . وراجع الطبري جـ٢ ، ص١٦٤ .

ولكن نفرا من المستشرقين يأتون بعد نحو ألف وأربعمائة عام من ذلك الزواج ، فيهدرون فروق العصر والإقليم ، ويطيلون القول فيما وصفوه بأنه (الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء) ويقيسون بعين الهوى زواجاً عقد في مكة قبل الهجرة ، بما يحدث اليوم في الغرب المتحضر ، حيث لا تتزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين وهي سن تعتبر حتى وقتنا هذا جد متأخرة في الجزيرة العربية بل في ريف مصر وأكثر مناطق الشرق ، وهو ما أدركه مستشرق منصف زار الجزيرة وعاد يقول :

« كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذي تنموه نساء العرب . والذي يسبب لهن اليوم الهرم في أواخر السنين التي تعقب العشرين .. ولكن هذا الزواج شغل بعض مؤرخين لمحمد ... نظروا إليه من وجهة نظر المجتمع العصري الذي يعيشون فيه ، فلم يقدروا أن زواجا مثل ذاك كان لا يزال عادة آسيوية ، ولم يفكروا في أن هذه العادة لا زالت قائمة في شرق أوربة . وكانت طبيعية في اسبانية والبرتغال إلى سنين قليلة ، وإنها ليست غير عادية اليوم ، في بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة »[٢٥] .

ويجب الانتباه إلى نضوج الفتاة في المناطق الحارة بسنٍّ مبكر جداً وهو سن الثامنة ، وتأخر الفتاة في المناطق الباردة كشمال النروج والسويد وكندا وسيبرية إلى سن الواحدة والعشرين .

ومن دلائل نضج السيدة عائشة عند زواجها واكتمال نموها : « أنه منذ وطئت قدماها بيت محمد (ﷺ) كان الجميع يحسون وجودها ، ولو أن هناك شابة عرفت ما هي مقبلة عليه ، لكانت عائشة بنت أبي بكر . فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم

---

(٢٥) « نساء النبي » ص :٦٣ و ٦٤ و ٦٥ ، والقول لبودلي في كتابه « الرسول » ص :١٢٩ من الترجمة العربية .

الأول الذي دخلت فيه دور النبي ﷺ الملحقة بالمسجد .. »[٢٦] .

ودليل آخر على نضجها واكتمال نموها أنها كانت تجيب : « في مسألة دقيقة من مسائل الزينة والتَّجمُّل » : « إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلي ! » وتكره أن تلقى امرأة زوجها في كآبة الحداد فتقول : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوج »[٢٧]

☆ ☆ ☆

☆ حفصة بنت عمر :

☆ الصَّوَّامَةُ القَوَّامَةُ ، حافِظَةُ القرآنِ الكريم .

ولعل قائلاً يقول : لماذا تزوج الرسول على عائشة وهو الذي قال لها : يا عائشة حبك في قلبي كالعروة الوثقى ؟ وكانت السيدة عائشة تسأله من وقت لآخر : كيف العروة يا رسول الله ؟ فيقول لها : « إنها على حالها لم تتغير ولم تتبدل »[٢٨] .

فلماذا تزوج عليها وفي زواجه ﷺ إساءة إليها ؟

ـ ظن بعض المستشرقين أمثال : موير ، وأميل درمنجهم ، وواشنطن ارفنج ، والأب اليسوعي لامانس ، والراهب فيدنزيو ... واضرابهم ممن **يجهلون حقيقة ما يرمي إليه الإسلام** فعابوا على رسول الله ﷺ زواجه بعد موت

---

(٢٦)(بودلي) في كتابه « الرسول » ص٩٣/١٣٠ .

(٢٧)« نساء النبي » ، ص٧٦/٧٧ .

(٢٨)الآلوسي ، روح المعاني ، جـ٢ ، ص٧٥٣ .

خديجة بغير امرأة ، عابوا ذلك وما دروا أن هذا الزواج **كان لأغراضٍ دينيةٍ وسياسيةٍ** .

تزوج الرسول ﷺ جميع زوجاته بعد موت خديجة (وهو في الخمسين أو بعدها) . أضف إلى ذلك أنه كان يحب عائشة حُبّاً جَمّاً ، ولم يتزوج بعدها بامرأة لجمال أعظم من جمالها ... أصبح بذلك من اليسير أن ندرك أن زواجه كان لأغراض سياسية ودينية فحسب .

وكان من أثر تلك الأغراض **الانتفاع بالمصاهرة واتخاذها وسيلة لاجتذاب عطف القبائل** ، يفسر لنا أن أكثر زواجه كان من قريش سيدة العرب ، **كما كان لتأليف القلوب إلى الإسلام** دخل كبير في زواجه عليه الصلاة والسلام ، أضف إلى ذلك ما كان **لرأفته وعطفه ﷺ على من ذل بعد عز** من أثر في زواجه ببعض زوجاته[٢٩] .

بعد هذا ، **لماذا تزوج النبي ﷺ من حفصة ؟**

مات زوجها « خنيس بن قيس بن عدي السهمي القرشي » فأراد عمر أن يزوجها من أبي بكر الصّدّيق ، أو من عثمان بن عفان فعرضها عليهما فلم يقبلا ، فدخل عمر إلى بيت رسول الله ﷺ غضباً ، وقال لرسول الله ﷺ ما لقي من رفض الصّدّيق وعثمان ، فابتسم النبي ﷺ وقال : « يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة »[٣٠] .

وباركت المدينة يد الرسول ﷺ وهي تمتد لتكريم عمر بن الخطاب ، وتأسو جرح ابنته حفصة[٣١] . باركت اليد التي امتدت لتجعل عمر يفتخر ويتباهى أنه إن رفض الصّدّيق عرضه ومن بعده عثمان ، فهذا رسول الله ﷺ قد طيَّب خاطره ،

---

(٢٩) تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص :١٨٤/١٨٥ .

(٣٠) « نساء النبي » ، ص :١٠٢ .

(٣١) « نساء النبي » ، ص :١٠٤ .

وجاء من هو أفضل منها . فصلى الله عليه وسلم الذي لم يُبْقِ في نفس عمر بن الخطاب أثراً من رفض الصّدّيق وعثمان .

☆ ☆ ☆

☆ زينب بنت خزيمة :

☆ عُرِفت بطيبتها وإحسانها حتى لُقّبت « بِأُمّ المساكين » .

أُرملة شهيد استشهد في أحد[٣٢] . تزوجها إكراما لزوجها الشهيد ، فكأنه احتضنها وقد بقيت عنده ثلاثة أشهر أو ثمانية فقط ثم ماتت .

يقول « بودلي » عن زواج رسول الله ﷺ بزينب بنت خزيمة : « وما ضمّها محمد إلى نسائه إلاّ بدافع الشفقة ، وما اهتمت عائشة أو حفصة بهذا أبدا وماتت بعد زواجها بثمانية أشهر »[٣٣] .

ـ وصفها المؤرخون العرب بحبها للمساكين ورحمتها إياهم ورقتها عليهم[٣٤] .

ـ وذكر (بودلي) : « وكانت طيبة خيّرة »[٣٥]

ـ وذكر د . هيكل : « **ولم تكن ذات جمال** ، وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لقبت بأم المساكين »[٣٦] .

---

(٣٢) قيل زوجها عبد الله بن جحش ، وقيل الطفيل بن الحارث بن المطلب ، وقيل عبيدة بن الحارث ... فهناك اختلاف باسم زوجها .

(٣٣) « بولي » في كتابه الرسول ، ص١٧٦ .

(٣٤) في السيرة ، جـ٤ ، ص :٩٤ .

(٣٥) ـ (٣٦) كما في (نساء النبي) ، ص :١١٧ .

والراجح أنها ماتت في الثلاثين من عمرها كما ذكر الواقدي ، ونقل ابن حجر في الإصابة ، وهي سن رآها المحدثون : « متوسطة تخطت الشباب » .

ويفوتهم أن حكمهم عليها بتخطي الشباب وهو بعد الثلاثين أو ما حولها ، يكفي رداً على ما أطالوا في الحديث فيه من طفولة عائشة[٣٧] .

☆ ☆ ☆

☆ أُمُّ سَلَمَة :

☆ « هند بنت أبي أمية بن المغيرة »[٣٨] .

تزوجها بعد موت زوجها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة ، ابن عمة الرسول ﷺ ، وأخوه بالرضاعة .

هاجرت إلى الحبشة ثم عادت إلى مكة وهمّت بالهجرة إلى المدينة ، ولكن المشركين من بني المغيرة منعوها من الهجرة ، وجاء نفر من بني الأسد من أهل أبي سلمة لأخذ الولد « سلمة » من حجرها ، ـ فخلعوا يده ـ وانطلق به رهط أبيه ومضى زوجها مهاجراً إلى المدينة ، وفُرّق بينها وبين زوجها وابنها . فبقيت تبكي سنة أو قريباً منها على حالها هذه[٣٩] ثم رقوا لحالها وانطلقت إلى زوجها بالمدينة وليس معها أحد من الخلق . ثم توفي زوجها وهي أم لأولاد .

بعد انقضاء عدتها ، طلبها الصديق فرفضت برفق[٤٠] ، وتلاه عمر فلم يكن

(٣٧) نساء النبي : ص ١١٧ .

(٣٨) وتسمى : أم سلمة بنت زاد الركب ، لأن والدها « أبا أمية » كان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد ، بل يكفي رفقته من الزاد ـ بنت الشاطئ في نساء النبي : ص ١٢٠ .

(٣٩) نساء النبي : ص ١٢١ .

(٤٠) نساء النبي : ص ١٢٥ .

حظه منها غير حظ صاحبه ، ثم خطبها النبي ﷺ فقالت : إنها غَيْرى ، **مُسِنَّة ذات عيال** ، فأجاب محمد رسول الله ﷺ : أما أنت مسنة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله[٤١] .

بلغ النبي ﷺ في اعزازها واعزاز أولادها ، أنه اختار ولدها سلمة زوجاً لابنة عمه « حمزة : سيد الشهداء »[٤٢] .

☆ ☆ ☆

☆ زينب بنت جحش :

☆ « يارسول الله ما أنا كإحدى نسائك ، ليست امرأة منهن إلا زوجها أبوها أو أخوها أو أهلها ، غيري ... زوجنيك اللهّ من السماء » .

زينب

كان زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش لأغراض تشريعية بحتة[٤٣] . فقد كان العرب يحرمون في جاهليتهم الزواج بزوجة المتبنى لاعتقادهم أن زوجة المتبنى كزوجة الابن من الصلب ، فتزوجها الرسول ابطالاً لهذا الزعم ، وخشي النبي ﷺ من أن يتقول عليه اليهود والمنافقون ، ويرموه بأنه خرج على هذه التقاليد ولكن الله راءٍ لكل شيء : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَهَا لِكَي لا يَكُونَ على المُؤمِنِينَ حَرَجٌ في أَزْواجِ أَدْعِيائِهِم إذا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

---

(٤١) السمط الثمين : ٨٩ « السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين » للطبري .

(٤٢) نساء النبي : ص ١٢٦ ، عن الطبري ٣ / ١٧٧ ، والسمط الثمين : ١٦ .

(٤٣) تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٨٥ ، الطبري : جـ ٢ ص ١٦٥ ، الخضري : ص ١٥٥ .

هـذا من نـاحيـة ، ومن نـاحيــة ثـانيــة : كان زواج النبي ﷺ من زينب **للمحافظة على كرامتها بعد زواجها من مولى** ، فهي ابنـة أميـة بنت عبد المطلب عمـةالرسول ﷺ . فخطبهـا لمولاه زيـد بن حـارثـة ، فعـز على أهلهـا أن تتزوج من مولى ، وقد وجدت في نفسها حرجاً فقالت : « لا أتزوجه أبداً وأنا سيدة أبناء عبد شمس » .

وكذلك كره أخوها (عبد الله) أن تزف أخته الشريفة القرشيـة إلى مولى من المـوالي ، ولكن النبي ﷺ أصرّ على زواج زيـد منهـا ، ونـزلت الآيــة الكريمـة : ﴿ وَمَـا كانَ لِمُؤمِنٍ وَلا مُـؤمِنَـةٍ إذا قَضَى اللهُ ورَسُـولُـهُ أَمْراً أَنْ يَكُـونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وتم للرسول مـا أراد من **تحطيم فـوارق الطبقـات** وإعـلاء كلمـة الإسـلام . ولكن زينب أظهرت لـزيـد من الشمم والعظمـة مـالم يتحملـه ، فشكا ذلـك إلى الرسول ، فأمره بأن يتذرع بالصبر وقال له آمراً إياه ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَـكَ وَاتَّقِ اللهَ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] . **ولكن الوحي نزل على الرسول بـالطلاق وأمره أن يتزوج بها حسماً لما بين الزوجين** من نزاع ، وحرصاً على شرفها ومكانتهـا أن يضيعـا بعـد زواجهـا بمـولى ، وهي من أشرف بيـوت العرب ، **وللنـاحيـة التشريعية** وبعد أن أظهر الإسلام تكريم المولى وكيف يعامل الرقيق به .

اتخـذ المستشرقون والمبشرون قصـة غراميـة من زواج النبي ﷺ بـزينب[٤٤] ، وفي الحقيقة فإن النبي ﷺ **كانت في نفسه رغبة لجبر خاطرها المكسور** حيث

---

(٤٤) راجع كتاب « مايقـال عن الإسلام » للعقـاد ص ٢٥٧ لترى القصـة الغراميـة التي حـاكهـا ونمقهـا الراهب « فيـدنزيو » حول هـذا الزواج حيث بـدأ بقـولـه : « كان هنـاك رجـل يسمى سيـدوس ـ زيد ـ له زوجة تسمى زبيب ـ هكذا ـ وكانت هذه أجمل نسـاء الأرض في زمـانهـا ، وسمع محمد بجمالها الرائـع فشغف بهـا حبـاً ، وأراد أن يراهـا ، فقصـد إلى منزلهـا في غيـاب زوجهـا يسـأل عنه ... » .

أكرهت على الزواج ممن لا ترضى إذعاناً لأمر الله ورسوله ، أراد النبي ﷺ الزواج منها ليري الناس مثلاً أعلى في « الديمقراطية » التي امتاز بها الإسلام . ويذكر ابن الأثير صراحة[٤٥] « أمر الله الرسول - بوحي - أن يتزوج زينب زوج زيد ليعلّم الناس أنه لم **يعد للتبني حرمة** ، وكان عليه السلام يخشى اعتراض أعدائه عليه ، لأن عمله هذا يخالف ما أطبقت عليه عامة العرب ، فأخفى في نفسه ما أمر به من هذا الزواج لذلك كان هناك في الخطاب نوع شدة : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِم إذا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطَراً ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

بينت الآية بصراحة أنه ﷺ كان يقول لزيد : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ﴾ ولكن النزاع كان أشد بين الزوجين ، فكان الطلاق ، وأمر الرسول ﷺ بالزواج من زينب للتشريع ، ولكنه أخفى ذلك خوفاً من الحاقدين الحاسدين أن يروا بهذا الزواج مرتعاً خصباً للهجوم ، فأخفى النبي ﷺ هذا الأمر : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ تخشى تعيير الناس فيقولون تزوج زوج ابنه . **فَهُدِمَت قاعِدَةُ التَّبَنِّي قولاً وفعلاً :** ﴿ ادْعُوهُم لآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ ﴾ [الأحزاب : ٥] ، ﴿ ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيماً ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

« فديمقراطية » الإسلام واضحة في هذا الزواج ، زواج محمد رسول الله ﷺ بامرأة كانت بالأمس زوجة أَحَدِ مواليه ، تلك « الديمقراطية » التي وضع النبي ﷺ أساسها بخطبة زينب - وهي بنت عمته وكانت من أشراف العرب -

---

(٤٥) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ٢١١ .

لزيد وهو من الموالي ، وزينب **لو أرادهـا النبي لِوَلِّـهِ أو غرام لتزوجهـا وهي بكر قبل أن يتزوجها مولاه زيد** ، فهو يعرفها منذ طفولتها فلقد شهدهـا تنمو من طفولة إلى صِباً إلى شباب ، **وهو الذي خطبها لمولاه** . والمستشرقون عندمـا تكلموا أنه ﷺ ذهب إلى بيت زيد فرآهـا فـأعجب بهـا فكمن الحب في قلبـه ... كل هذه خيالات لا نرضاها لمؤمن عادي في عصرنا الحاضر ، نأبى له أن ينظر إلى زوجة جـاره أو صـديقـه نظرة بشهوة أو بـدون شهوة ، فكيف بمن زرع الإيمـان في قلوب البشر ، وغرس فيهـا العفـة ومراقبـة الله ؟ هـذا **وغفـل المستشرقـون عن أنهـا قريبته ونبتت أمام ناظريه** .

فـالأمر تشريعي في الـدرجـة الأُولى ، وجبراً لخـاطر مكسـور من ناحية ثانية أصبحت « زينب » أم المؤمنين - زوجة رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ - .

☆ ☆ ☆

☆ جويرية[٤٦] بنت الحارث :

☆ « سيدة بني المصطلق » .

كان زواج النبي ﷺ بهـا لأغراض **سيـاسيـة ودينيـة** ، أراد الرسـول ﷺ الانتفاع بالمصاهرة ، واتخـاذهـا **وسيلـة لاجتـذاب عطف القبـائل** ، إننـا نرى زواجه ﷺ كان من قريش سيدة العرب ، وكان لتـأليف القلوب إلى الإسلام دخل كبير في زواجه ، أضف إلى ذلـك مـا كان لرأفتـه وعطفـه على من ذل بعـد عز . إن زواجـه ﷺ من جـويريـة **كان تقربـاً إلى قـومهـا ، فصـار بينهما ربـاط المصاهرة** ، وطمع النبي ﷺ بإسلام قومها . **لاغياً في زواجه الجمال** وهو الذي يقول : « **فاظفر بذات الدين تربت يداك** » .

---

(٤٦) كان اسمها « بَرَّة » قبل أسرها في غزوة بني المصطلق الذين هم حي من خزاعة .

أسرت جويرية ـ التي كانت مع والدها « الحارث بن أبي ضرار » الذي جمع الجموع لمحاربة رسول الله ـ في غزوة بني المصطلق ، فاستأذنت على رسول الله ﷺ ، فدخلت وقالت : يا رسول الله أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه ، **وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك** ، فوقعت في السهم لثابت بن قيس فكاتبته[47] على نفسي فجئت أستعينك على أمري[48] .

فجويرية **تلوذ** برسول الله وهي السيدة الحرة الأصيلة ، جاءت تلوذ به لتنجو من مهانة السبي وعار الرّق ، وهو الذي أذل أهلها ـ مع أنهم هم البادئون بالغزو ـ فرقّ قلبه وهي ببابه قلقة ولا من ينقذها سواه ، فقال لها :

ـ فهل لك في خير من ذلك ؟ .

قالت : وما هو يا رسول الله ؟ .

فأجاب ﷺ : أقضي عنك كتابتك ، وأتزوجك ! .

فقالت في فرحة غامرة : نعم يا رسول الله .

فقال النبي ﷺ : قد فعلت[49] .

☆ فما نتائج هذا الزواج السياسي ؟ :

١ ـ أقبل الناس وبأيديهم أسرى قومها فأرسلوهم أحراراً وهم يقولون : (أصهار رسول الله)[50] .

فما من امرأة أعظم على قومها بركة منها ، أعتق بزواجها من الرسول ﷺ أهل مائة بيت من بيوت بني المصطلق .

---

(٤٧) مر معنا « المكاتبة » في بحث الرّق ، « راجع المعنى في البحث المذكور » .

(٤٨) نساء النبي : ص ١٥٦ .

(٤٩) نساء النبي : ص ١٥٧ ، عن ابن إسحاق في السيرة (والطبري) والاستيعاب .

(٥٠) نساء النبي : ص ١٥٧ ، عن ابن إسحاق والسمط الثمين .

٢ ـ كرمها الرسول ﷺ بالزواج منه فنجت من عار الاسترقاق .

٣ ـ أسلمت جويرية وحسن إسلامها .

٤ ـ جاء والدها إلى المدينة وقال للنبي ﷺ : « يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فداؤها ، فإن ابنتي لا يسبى مثلها ! » .

فقال له الرسول ﷺ : « أرأيتَ أن أخيرها ، أليس قد أحسنتَ ؟ » .

فأجاب والدها : « بلى » . فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت : « اخترت الله ورسوله » . وكما ذكر ابن هشام في السيرة وفي السمط الثمين[٥١] أن والدها سمع حديثاً من رسول الله عما جاء فيه من فداء ابنته ، فصاح بصوت جهير : « أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله » وأعطاه النبي ﷺ صداقاً قدره أربعمائة درهم . وجويرية هذه لم تكن بكراً عند زواجها من رسول الله ، بل كانت عند « مسافع بن صفوان »[٥٢] .



☆ صَفِيَّة بنت حُيَيّ :

☆ « عقيلة بني النضير » .

خرج النبي ﷺ إلى خيبر لتأديب بني النضير الذين خانوا عهودهم معه أثناء موقعة الخندق . وفعلاً فقد فتحت خيبر . وكان بين الأسرى صَفِيَّة بنت حُيَيّ بن أخطب ، وينتهي نسبها إلى هارون أخي موسى ، وأمها « برة بنت سموءل »

(٥١)ابن سشام في السيرة : ٤ / ٣٠٨ ، السمط الثمين : ١١٧ .

(٥٢)عن نساء النبي : ص ١٦٠ : « كذا جاء في الاستيعاب ٤ / ١٨٠٤ والسمط الثمين ص ١١٦ . وفيه كذلك ص ١٢١٧ أنها كانت عند ابن عم لها يقال له عبد الله ، ومثله في سيرة ابن هشام ٣ / ٢٩٦ .

وكانت صفية قد تزوجت سابقاً مرتين من سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق .

وفي حديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما أخذ صفية بنت حُيي قال لها : « هل لك فيَّ ؟ » .

قالت : يا رسول الله قد كنت أتمنى ذلك في الشرك ، فكيف إذا أمكنني الله منه في الإسلام ؟ .

فأعتقها عليه السلام وتزوجها ، وحسن إسلامها . وفي الإصابة والسمط الثمين والاستيعاب .. أحاديث كثيرة عن حُسن إسلامها ، حتى قالت والرسول ﷺ في مرضه الأخير :

ـ « إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي » .



أمُّ حبيبة :

☆ « رملة بنت أبي سفيان » .

أسلمت مع زوجها « عبيد الله بن جحش الأسدي » وهاجر إلى الحبشة واستيقظت ذات يوم على حلم ورؤيا رأت فيها عبيد الله ـ زوجها ـ بأسوأ صورة ، وفعلاً فقد ارتد زوجها إلى النصرانية دين الأحباش ، وحاول أن يردها معه ، فصبرت على دينها[٥٣] ، وكادت بنت أبي سفيان تهلك غماً وأسىً وحسرةً « فيم كانت هجرة عبيد الله إذن ؟ وفيم كان عذاب الاضطهاد ، ومحنة التشرد ، وأشجان الاغتراب ، ومرارة التنكر للآباء والأجداد ، وهذا هو يصبأ عن الإسلام الذي من

(٥٣) نساء النبي : ص ١٧٦ .

أجله احتملت (رَمْلَة) كل ذلك ، ورضيت أن تذيق أباها عذاب القهر والغم »[٥٤] .

فماذا تعمل أم حبيبة ؟ : أترجع إلى مكة حيث والدها يعلن حرباً شعواء ضد الإسلام الذي آمنت به ؟ وهي في هذا الهم الذي لا يعدله همّ ، وحزن وغربة في الحبشة وزوج مرتد ، ووطن مهاجر فيه .

في هذه الظروف دخلت خادمة النجاشي إليها تقول : إن الملك يقول لك وكّلي من يزوجك من نبي العرب ، فقد أرسل إليه ليخطبك له ، فلما سمعت « أم حبيبة » هذا الخبر ، وهذه البشرى نزعت سوارين لها من فضة فقدمتهما إلى الجارية حلاوة البشرى[٥٥] ، ثم أرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد الشمس فوكلته في زواجها ، ودفع النجاشي أربعمائة دينار صَدَاقاً لها .

فلما عادت من الحبشة أكرمها رسول الله ﷺ ، وعوضها الله خيراً من زوجها المرتد ، لقد أصبحت « أم المؤمنين » ، ولما سمع والدها أبو سفيان نبأ زواجها قال : **وهذا الفحل لا يجدع أنفه**[٥٦] .

لما تزوجها رسول الله ﷺ كانت في الأربعين أو أكثر ، ولقد أخلصت أم حبيبة لرسول الله ﷺ إخلاصاً ما بَعده إخلاص ، لقد أنقذها من غمها وحزنها وغربتها .

جاء أبوها إلى رسول الله ﷺ ليمدد صلح الحديبية الذي نقضته قريش ، جاء أبو سفيان ـ والدها ـ إلى المدينة فجاء إلى أم حبيبة زائراً ، ففوجئت به يدخل بيتها ولم تكن قد رأته منذ هاجرت إلى الحبشة ـ فأراد أن يجلس على الفراش

---

(٥٤) نساء النبي : ص ١٧٦ .

(٥٥) نساء النبي : ص ١٧٩ . عن السمط الثمين : ٩٧ ، والإصابة : جـ ٨ .

(٥٦) نساء النبي : ص ١٨١ ، عن السمط الثمين : ٩٩ ، استيعاب : ٤ / ١٨٤٥ .

فـوثبت أم حبيبـة فـاختطفت الفراش وطـوتـه في اعتزاز وإبـاء ، فقـال في صبر : أطويته يا بنية رغبة بي عن الفراش ، أم رغبة بالفراش عني ؟ ، فجاء جوابها لأبيها المشرك : هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك فلم أحب أن تجلس عليه ، فقال في ألم يفري كبده : لقد أصابك يا بنية بعدي شر ، وانصرف غاضباً .

وأخيراً ... تـزوج النبي ﷺ من أم حبيبـة : **جمعـاً لشملهـا وتكريمـاً لخاطرها ، وإنهاءً لوحشة الهجرة وسوء تصرف زوجها** . ثم إنـه تزوج من ابنة زعيم مكة « أبي سفيـان » فهو زواج سيـاسي أيضـاً . فلقـد طمع النبي ﷺ أن يجلب زعيم مكة ورأس الشرك فيها إلى الإسلام بالمصاهرة .



☆ مارية القبطية :

☆ « هدية المقوقس » .

جاءت هدية من المقوقس عظيم مصر ، مع رسولِ رسولِ الله « حـاطب بن أبي بلتعـة » ، جـاءت ومعهـا أختهـا « سيرين » وعبـد خصي ، وألف مثقـال ذهبـاً ، وعشرون ثـوبـاً لينـاً من نسيـج مصر ... بلـغ الرَّكْبُ المـدينـة المنـورة وفي نفس الشقيقتين ألم للفراق والغربة ، فأخذ النبي ﷺ مارية من الهديـة ، ووهب أختهـا لشاعره « حسان بن ثابت » .

كان لهـذا الـزواج صلـة رحم مـع مصر[٥٧] : « الله الله في أهـل الـذمـة ... » ويقول ﷺ : « استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » .

طلب الحسن بن علي من معـاويـة في مفـاوضـات الصلـح بينهما : أن يرفـع

---

(٥٧) راجع نساء النبي : ص ١٩٢ إلى ٢٠٥ .

الخراج عن أهل قرية « حفن » ـ مسقط رأس مارية ـ ففيها خؤولة إبراهيم « ابن رسول الله » .

لما جاء عبادة بن الصامت رضي الله عنه إلى مصر بعد فتحها ، بحث عن قرية « حفن » وسأل عن موضع بيت « مارية » فبنى به مسجداً .

☆ ☆ ☆

☆ ميمونة بنت الحارث :

☆ « آخر نساء النبي ﷺ » .

انتظر المسلمون في المدينة بعد توقيع صلح الحديبية ، العام المقبل ليدخلوا إلى مكة للعمرة ولثلاثة أيام فقط وفعلاً : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُم وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح : ٢٧] .

وبالفعل فقد دخل المؤمنون مكة المكرمة هاتفين : « **لبيك اللهم لبيك** » فتأثرت مكة بهذا الحشد الذي يهتف هتاف رجل واحد ، ومادت الأرض تحت أقدام المشركين وأحسُّوا كأن الجبال الشم الصلاب تكاد تتصدع من رهبة وجلال الموقف ، وتتابع الدعاء « **لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده** » فما بقي مكي إلا وقد أيقن أن يوم النصر الأكبر للمؤمنين جد قريب .. »[٥٨] .

هذا المشهد المهيب في مكة فعل في النفوس فعل السحر ، فإذا سيدة من أكرم سيدات مكة يهفو قلبها إلى محمد رسول الله ، تلك هي : برَّة[٥٩] بنت الحارث

(٥٨) نساء النبي : ص ٢٠٩ .

(٥٩) نساء النبي : ص ٢١١ .

الهلالية ، كانت في السادسة والعشرين من عمرها ، مات زوجها أبو رهم بن عبد العزى القرشي فترملت ، فأفضت إلى شقيقتها « أم الفضل » زوجة العباس بالأمر فحمل العباس الخبر لرسول الله ﷺ قائلاً : إنها وهبت نفسها للنبي ، فأنزل الله فيها : ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾[٦٠] ، [الأحزاب : ٥٠] .

فتزوجها رسول الله ﷺ ، وأسماها « ميمونة » ، إذ كان زواجه بها في المناسبة الميمونة الغراء التي دخل فيها أم القرى لأول مرة منذ سبع سنين مع المسلمين آمنين .

☆ ☆ ☆

وأخيراً ...

تزوج النبي ﷺ إحدى عشرة سيدة بعد خديجة منهن ست من قريش وخمس من سائر العرب ، وواحدة قبطية ، فكان النبي ﷺ يرى أن يجمع نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن .

لقد صاهر النبي ﷺ أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب ، ثم كانت ظروف معينة أوضحناها بحينها لزواجه من بعضهن كما في : جويرية وزينب وصفية .

تألُّف القلوب بالمصاهرة لم يتبعه النبي ﷺ لنفسه فقط - مع أن لشخصه بالذات بين القبائل مكانة خاصة عند المصاهرة[٦١] - بل اتبعه الصحابة بأمر من رسول الله ﷺ . وورد في الطبري الجزء الثالث الصفحة ٨٣ : أنَّ الرسول ﷺ حين بعث عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل قال له : « **إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم** » ، مما يدل على أن **ذلك سياسة من الرسول ﷺ يقيدهم بها** ، فلا

---

(٦٠) أسماها النبي ﷺ فيما بعد « ميمونة » .

(٦١) لم يتزوج النبي ﷺ بعد أن استقر له الأمر ودخلت القبائل في دين الله أفواجاً ، ولم تعد هناك حاجة لتأليف القلوب .

يفكرون بنقض عهد ، وكيف ينقضون عهداً بينهم وبين الفاتح مصاهرة وخؤولة[٦٢] .

لقد أحال المستشرقون جوانب الإسلام المنيرة ظلاماً ، ولكنه سيبقى مُخَيِّماً في رؤوسهم ورؤوس من يشايعهم :

ـ لقد أحالوا صدق النبي ﷺ في سلوكه وفي حياته وفي رسالته وفي عموم دعوته إلى كذب .

ـ وأحالوا رحمة النبي ﷺ ، ورقة قلبه ، وكثرة شفقته إلى قسوة ، بل جعلوها قسوة بالغة .

ـ وأحالوا زهده عليه السلام ـ عبداً نبياً ـ وتواضعه إلى شهوة جامحة إلى الحكم والسلطان .

ـ ولكنهم نسوا في ذلك ـ وغيره ـ رعاية الحق ، وأمانة التاريخ ، وَنِصْفَةَ الحُكْم ، ونزاهة العلم ، بل نسوا أبسط قواعد الذوق والمجاملة والأدب في التهجم على منازل الأنبياء ، فما من صفة في نبي إلا وهي في محمد بن عبد الله ، فأين موضوعية وأمانة البحث ؟ .

اتهموا رسول الله ﷺ بالميل إلى النساء بشهوة جامحة ، واتخذوا من تعدد زوجاته دليلاً حسبوه يكسبهم القضية ، وهو دليل واهٍ في ميزان الحكم السليم والرأي القويم ، وقالوا : إنه أباح لنفسه من التعدد والزيادة على أربع في عصمة يده ماحرَّمه على المسلمين .. وهذا فيه من المغالطة وإغفال التاريخ مايسقط معه القول ، فإن الآيات الخاصة بالزواج من أربع ، والتي تؤثر الواحدة خوف عدم العدل ، قد نزلت في أواخر السنة الثامنة من الهجرة ، بعد أن كان النبي عليه السلام قد بنى بنسائه جميعاً ، وقد كان العدد قبل ذلك غير محدد بأربع زوجات ،

---

(٦٢) راجع الهامش في ص ١٨٤ من كتاب « تاريخ الإسلام » جـ ١ .

وإذن فلا مجال للاتهام بتحليل الزيادة على أربع لنفسه وتحريمها على بقية المسلمين ممن يشرع لهم[٦٣] .

لم يكن النبي ﷺ في عصره (قبل ألف وأربعمائة سنة) الوحيد الذي تزوج نساءً كثيرا ، إنه العصر وظروفه . فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه تزوج في الجاهلية :

١ ـ زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة .
٢ ـ مليكة بنت جرول الخزاعي .
٣ ـ قُرَيبة بنت أبي أمية المخزومي . أما في الإسلام فتزوج رضي الله عنه :
٤ ـ أم حكيم بنت الحرث بن هشام المخزومي .
٥ ـ جميلة أخت عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأوسي الأنصاري .
٦ ـ أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب .
٧ ـ فكيهة اليمنية . « كذا في الكامل ، أما في الطبري فـ (لُهَيَّة) وكذلك أوردها الواقدي » ثم أورد (فُكَيهة) .

ـ وخطب أم كلثوم بنت الصديق ، وأم إبان بنت عتبة بن ربيعة ورفضتاه لمهابته[٦٤] .

عثمان ذو النورين رضي الله عنه تزوج من :

١ ـ رقية بنت رسول الله .

---

(٦٣) راجع كتاب « الإسلام بين الجحود والإنصاف » ص ١٣٦ إلى ١٣٩ .
ـ اعترض بعضهم عليَّ لقولي إن زواجه ﷺ بأكثر من أربع ليس خصوصيّة ، وأنا أصر على ذلك . الخصوصية هي عدم الطلاق لا التعدد دون حد ، لأن النبي ﷺ أصلاً تزوج بكل واحدة لهدف سياسي أو تشريعي ، فمن يطلق منهن بعد التحديد بأربع عام ٨ هـ ؟ فالهدف قائم وطلاق إحداهن يثير قبيلتها ، فالخصوصية جاءت من هنا : عدم التطليق وعدم الزواج بعد التحديد عام ٨ هـ ، وليست الخصوصية التعدد من غير حدّ !
(٦٤) راجع الكامل : جـ ٣ ص ٢٨ ـ ٢٩ ، والطبري : جـ ٤ ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ، ط . دار المعارف بمصر .

٢ ـ أم كلثوم بنت رسول الله .

٣ ـ فاطمة بنت غزوان بن جابر بن نسيب .

٤ ـ أم عمرو بنت جندب بن عمرو الدوسية .

٥ ـ فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزومية .

٦ ـ أم البنين بنت عُيينة الفزارية .

٧ ـ نائلة بنت الفَرافِصَة الكلبية .

٨ ـ رملة بنت شهيبة[٦٥] .

علي كرم الله وجهه تزوج :

١ ـ فاطمة بنت رسول الله ﷺ « ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده » .

٢ ـ أم البنين بنت حزام الكلابيّة .

٣ ـ ليلى بنت مسعود بن خالد النهشلية التميمية .

٤ ـ أسماء بنت عُميس الخثعمية .

٥ ـ الصهباء بنت ربيعة التغلبية ـ وهي من سبي عين التمر ـ .

٦ ـ أمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس .

٧ ـ أم سعيد ابنة عروة بن مسعود الثقفية .

٨ ـ مخبئة بنت امرئ القيس بن عدي الكلبية[٦٦] (في الطبري : محياة بنت امرئ القيس) .

وإذا اطلعنا على تراجم رجال ذاك العصر لرأينا هذا الزواج متعارفاً عليه ولم يكن فيه غضاضة ، **فلماذا رأى المستشرقون والمغرضون « النبي ﷺ » وحده ، ولم يروا العصر كله** ؟ لماذا لم يطلعوا على الظروف المرافقة وينظروا

---

(٦٥) الكامل : جـ ٣ ص ٩٥ ، والطبري : جـ ٤ ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ . ط . دار المعارف بمصر .

(٦٦) « الكامل في التاريخ » : جـ ٣ ، ص : ١٩٩ / ٢٠٠ ، والطبري : جـ ٥ ، ص : ١٥٤ / ١٥٥ ، ط : دار المعارف .

بعين العصر ذاك وبروح مجردة ليروا أن النبي « جُعِلت قرة عينــه بــالصــلاة » لا بالنساء ؟ النبي ﷺ « له ساعـة مع ربـه لا يـدانيـه فيهـا ملـك أو رسول مرسل » وليست أسعد ساعاته مع النساء ... **ولكنه الهوى الذي أعمى المستشرقين .**

قال « توماس كارليل » في هذا المقام : « ماكان محمد أخا شهوات ، برغم مـاتهم به ظلماً وعدواناً ، وشد مانجور ونخطيء إذا حسبناه رجلاً شهوياً ، لاهم له إلا قضـاء مآربه من الملاذ ، كلا ! **فما أبعد ماكان بينه وبين الملاذ أية كانت ..** »[٦٧] .

فهذه الشبهة ـ سيادة القاضي ـ تنهار أمام شرعة الإنصاف وتجنب الإجحاف ، مهما كان جنس المنصف وملته ، فإن الحق لا يبالي بتافه الاعتبارات في سبيل أشرف الغايات ...

☆ ☆ ☆



---

(٦٧) الأبطال . ص ٨٣ ، نشر دار الكاتب العربي .

قضية الهجرة إلى الحبشة

☆ ﴿ ... فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ، لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ ﴾ . [آل عمران : ١٩٥]

وقف النائب العام وأخذ يستعرض من كتاب « دراسات تاريخية باللغة الإنكليزية للسنة الثالثة ـ كلية الأداب ـ قسم التاريخ في جامعة دمشق ، ١٩٦٣ / ١٩٦٤ ، ص ، ١٢ ـ ٢٢ » قصة الهجرة إلى الحبشة كما وردت عن ابن هشام :

عندما رأى الرسول ﷺ العذاب الذي يقاسيه أتباعه ، بينما هو لا يؤذى لمكانة عمه أبي طالب . ولما عجز عن حمايتهم من العذاب قال لهم : لماذا لاتذهبون بعيدا إلى أرض الحبشة لأنه يوجد هناك ملك لا يُظْلَمُ عنده أحَدٌ ، وخرج صحابة رسول الله لأرض الحبشة خوفا من الفتنة ولينجوا إلى الله بدينهم ، وكانوا عشرة ذكور بالغين على رأسهم عثمان بن مظعون ...

ومما عرضه النائب العام : رفضه وجود هجرتين إلى الحبشة حسب الروايات العربية ، واعتمد في نقاشه على المستشرق « غيتاني » وقال : « إن الرأي بوجود هجرتين متفاوتتين ومتميزتين إلى الحبشة قد بُحِثَ من قبل مؤرخين غربيين ـ بشكل خاص غيتاني ـ الذي تدين هذه المناقشة التالية لمعالجته بالفضل الكبير » .

وأورد النقط التالية :

١ ـ كلمات مثل : (الروايات التقليدية) ، (المغامرة الحبشية) ، (الروايات الإسلامية التقليدية) ...

٢ ـ في السنة السابقة ـ لغزو خيبر ـ رغب محمد بشكل خاص أن يقوي مركزه بكسب الدعم من الفئة القليلة الموجودة في الحبشة ، فأرسل لهم رسولاً ليؤكد لهم الترحيب الحار وليرافقهم في العودة ...

٣ ـ ثم طرح السؤال التالي : لأي سبب هاجر كثير من المسلمين إلى الحبشة ؟

فالاعتبارات الآنفة الذكر ـ الفرار بالدين ـ ولو كانت صحيحة لاتزيد كثيراً من فهمنا للشؤون الحبشية ، لأنها ليست من البساطة بالقدر الذي تقدمه الروايات الإسلامية التقليدية ، وجواباً للسؤال المطروح : لأي سبب هاجر كثير من المسلمين إلى الحبشة ؟ جاءت الإجابة كما يلي :

١ ـ ذهبوا لتجنب المصاعب والاضطهاد الذي لاقوه في مكة ، ولكن يصعب على الإنسان أن يقنع أن الثقات الأول في الإسلام كانوا قد هاجروا بصورة رئيسة لخوفهم من العذاب ، فلديهم سبب ما غير تجنبهم للاضطهاد .

٢ ـ سبب ثان ممكن للهجرة قد اقترح من قبل العلماء الغربيين وهو : أن محمداً خاف على أتباعه من خطر الردة إذا مكثوا في مكة ، فيكونون معرضين إلى ضغط أسرهم ، فإنه يمكنهم أن ينكروا إيمانهم الجديد بسهولة .

٣ ـ إنهم ذهبوا للتجارة .

٤ ـ هل يكون هذا قسماً من خطة فيها مهارة لمحمد ؟ هل كان يأمل أن يحصل على مساعدة عسكرية ؟

٥ ـ من الصعب أن نرفض الاستنتاج الذي يعتمد بكليته على السبب الخامس ، يعني : وجود انقسام حاد في الرأي ضمن الطائفة الإسلامية الناشئة ،

ففريق بزعامة أبي بكر الصديق ، وفريق بزعامة عثمان بن مظعون ، وعند عودة المهاجرين ـ يقول الكاتب ـ : إن مصالحة سريعة نسبياً تمت مع عثمان بن مظعون والآخرين الذين عادوا إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة ، تجعلنا نعتقد أنه ـ على الأقل ـ لم يكن هناك انقسام كامل بينهم وبين محمد . حتماً عادوا في النهاية ليقبلوا قيادة محمد ووضعية أبي بكر الخاصة ، وقاتلوا بشجاعة كمسلمين في بدر .

الإسلام : أيها السيد القاضي : لماذا يُعتمد على آراء وأقوال وتحليلات الغربيين ، وندع جانباً كتب التاريخ العربية الإسلامية يعلوها الغبار وبالتالي النسيان ؟

المراجع الغربية لاتعتمد كلها دون تمحيص ، ونحن إذ نرفض معظمها لناحية قومية عربية ، لأنها فيها الغث والسمين النادر جداً . فهي ألفت لغاية استعمارية ، ولهدم ذاتيتنا العربية المؤمنة . حتى أن المراجع تفتري بعض النصوص وبعض الآراء على بعض المحققين العرب ، وتتناسى حوادث وحوادث عن قصد ، لأنها لو عرضت لخربت لهم كتبهم .

ـ اطلعت منذ سنوات ، وعلى التحديد في شتاء عام ١٩٦٣ على كتاب « تاريخ الدولة العربية »[١] للمستشرق الألماني « يوليوس فلهاوزن » . فإذا المترجم قد دوَّن ملاحظات عديدة منها :

ـ « رغم الاجتهاد البالغ في البحث عن النصوص ، بقيت مواضع قليلة جداً أشار إليها المؤلف **فجاءت الإشارة خطأ في أغلب الظن فلم** أهتد إليها » .

ثم كتب المترجم تنبيهاً فيه : « **إن آراء مؤلف هذا الكتاب تحسب عليه وحده** » ، وهذا ما لم يذكره كثير من كتّابنا عند ذكر آراء المستشرقين في مؤلفاتهم ،حتى ظهروا وكأنهم يتبنون هذه الآراء ويروّجون لها .

---

(١) ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ومراجعه الدكتور حسين مؤنس .

ثم أورد المترجم ثلاثة عشر موضعا ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ كلها دسّ وافتراء لا ترقى إلى الصحة ، ويمكننا القول إن خُمْسَ الكتاب المذكور حواش ذكرها المترجم رداً على الافتراءات وتصحيحاً للأكاذيب .

وقد رأيت من قبيل المصادفة الحلوة ، مقاطع كاملة من هذا الكتاب في بعض الكتب التي تبحث في تاريخ العرب والإسلام ، رأيتها كما هي ، حتى دون الإشارة إلى مصدرها ، وعلى ماأظن أنها إذا حسّنا الظنِ جاءت عن حسن نية !!

ومما سبق ... كيف يمكن أن نركن إلى المصادر الأجنبية في كتابة تاريخنا ؟ هل انعدمت مصادرنا العربية الإسلامية التي أخذوا عنها هُم بعد رفعهم الموضوعية والعقل الموضوعي ؟ .

هذا .. ويناقش بعضهم تاريخنا وحوادثه ، بعد أن يرفض أن هناك إسلاماً وإيماناً في قلوب الصحابة ، ويتناسى هذا الرابط الذي بُني عليه الإسلام وتاريخ الإسلام الأول .

ونحن ـ أيها القاضي الجليل ـ إنما نرد الآن على المستشرق « غيتاني » لافترائه على الهجرة الحبشية ، وخطئه في التحليل :

١ ـ من الناحية القومية : لانقبل أن يلهو العابثون بتاريخنا العربي الإسلامي ، فيرفضوا الروايات الإسلامية بدعوى أنها تقليدية ، وذلك لأن رفض تلك الروايات التقليدية سيوصلنا إلى آراء جديدة ستصبح فيما بعد تقليدية لمن سيأتي بعدهم وهكذا ... فتنتج سلسلة لاحصر لها من الروايات التقليدية . ولا شك أن مثل هذا الأمر مرفوض عقلاً .

واعتماداً على ذلك ، فنحن **لانقبل أن لا تكون هناك هجرتان** ، لورود ذلك في كتب السيرة ، وكتب التاريخ العربية الإسلامية ، وهي مصدر تاريخنا لاكتبهم التي تحمل الكثير من التحامل مما يبعدها عن الموضوعية والنزاهة المطلوبة

في البحث المنهجي التاريخي .

٢ ـ ونرفض ادعاءهم بأن محمداً رغب أن يقوي مركزه في السنة السابقة لغزو خيبر[٢] ، وذلك لأن النبي ﷺ لم يكن بحاجة إلى قوة ترفده ، لاسيا بعد صلح الحديبية ، حيث دخل في الإسلام أقوام كثر ، مما دعّم قوته ومركزه في الجزيرة العربية .

وإذا استخدمنا المنطق والعقل رأينا بطلان دعواهم بأن محمداً ﷺ رغب بشكل خاص أن يقوي مركزه بكسب الدعم من الفئة القليلة الموجودة في الحبشة ، وذلك لأن النبي ﷺ قد دخل مكة فاتحاً وحوله عشرة آلاف سيف في السنة نفسها التي عاد بها جعفر بن أبي طالب والقلة ممن كانوا معه .

فأين حاجة محمد ﷺ لهذه الفئة القليلة وحوله كل هذه القوى ؟

٣ ـ ونرفض أسباب الهجرة كما وردت عند الكاتب ، لأنه لم يقنع بأن الاضطهاد كان سبباً لتلك الهجرة بدعوى أن هذا الأمر ورد في الروايات العربيّة ، وهو يرفض تلك الروايات وَيُسَمِّيها تقليدية .

وليأذن لي سيادة القاضي بأن أوضح بأنه **ليس من سبب أكثر من الاضطهاد يمكن أن يدعو إلى الهجرة في كل زمان ومكان .**

ومن ذلك أن الاضطهاد الديني الذي ساد إنكلترة بعد اعتناقها المذهب الانغليكاني ، كان سبباً رئيساً في تأسيس أربع مستعمرات من ثلاث عشرة مستعمرة دعيت إنكلترة الجديدة ، وكانت منتشرة على طول الساحل الشرقي لما نسميه اليوم الولايات المتحدة الأمريكية .

فكيف خرج « غيتاني » برأيه الذي ينفي فيه هذا الواقع الحقيقي للهجرة ،

---

(٢) وهي سنة ٦ هـ . لأن خيبر كانت في ٧ هـ .

هذا الواقع الذي كان ولا يزال من أهم الأسباب لهجرة الناس[٣] ؟

وليأذن لي سيادة القاضي بأن أذكر الكاتب ببعض صور الاضطهاد ولاشك أنه يعرفها :

فهل نسي الكاتب أول شهيد في الإسلام ، ألا وهي « سُميَّة » التي طعنها أبو جهل برمح في بطنها أثناء تعذيبها ، أم نسي كيف أمعن المشركون في تعذيب زوجها وابنها عمار ؟

ومَنْ يمكنه من باحثي التاريخ أن ينسى التعذيب الذي لقيه بلال الحبشي ليكفر بمحمد ويعود إلى عبادة اللاّت والعزى ؟

وكيف يمحو الكاتب من ذاكرته قصص تعذيب خباب بن الأرت ، وعشرات غيره ممن جاء خبرهم في سيرة ابن هشام التي نقل روايته عنها ؟ .

فيا سيادة القاضي : ألا ترى أن الاضطهاد سبب كاف للهجرة ؟

قال النبي ﷺ لمن هاجر فارّاً بدينه من اضطهاد قريش : « **لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه** »[٤] فخرج المضطهدون وهم يعلمون سبب

---

(٣) راجع كتاب « تاريخ العصور الحديثة » بإشراف الدكتور نور الدين حاطوم ، ص ١١٨ .

(٤) الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٥ وما بعدها ، ثم ذكر صاحب الكتاب - ابن الأثير - بحثا كاملاً عنوانه ، « ذكر المستضعفين من المسلمين » .

☆ كما ورد في « حياة الصحابة » لمحمد يوسف الكاندهلوي ، باب « تحمل الشدائد في الله » ص : ٣٨٥ ، ذكر تحمل الصحابة للاضطهاد والعذاب أمثال : عثمان بن عفان ص : ٤٢٢ ، وطلحة بن عبيد الله ص : ٤٢٢ / ٤٣٣ ، والزبير بن العوام ص : ٤٢٤ ، وبلال بن رباح ص : ٤٢٥ ، وعمار بن ياسر وأهل بيته ص : ٤٢٨ ، خباب بن الأرتّ ص : ٤٣١ ، أبو ذر الغفاري ص ح ٤٣٣ ، سعيد بن زيد وزوجته فاطمة ص : ٤٣٧ ، عثمان بن مظعون ض : ٤٤٢ ، مصعب بن عمير ص : ٤٤٥ ، عبد الله بن حُذَاقة السَّهْمي ص : ٤٤٦ ، ثم ذكر عامة الصحابة : ٤٤٧ .

خروجهم ، فهذا ابن إسحاق قد أخرج عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمه أم عبد الله بنت أبي حَثْمة رضي الله عنها ، قالت : والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا ، إذ أَقبل عمر فوقف عليَّ وهو على شركه ، فقالت : وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا ، قالت : فقال : إنه الانطلاق يا أم عبد الله ؟ قلت : نعم . والله لنخرجنَّ في أرض من أرض الله ، **إذ آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً**[٥] .

ولقد قال جعفر للنبي ﷺ طالباً منه الفرار بدينه من الاضطهاد : « يارسول الله ! ائذن لي أن آتي أرضاً أعبد الله فيها لاأخاف أحدا »[٦] فأذن له النبي ﷺ بالهجرة إلى الحبشة .

ولنتمعن ـ سيادة القاضي ـ في قول جعفر للنجاشي مبيناً سبب هجرة المسلمين إليه « **فلما قهرونا وظلمونا ، وشقُّوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك** ، واخترناك عن سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك[٧] » .

ونرفض ماذكره الكاتب من أن بعض المستشرقين قالوا إن أسباب الهجرة هي أن محمداً خاف على أتباعه خطر الردة إن مكثوا في مكة ، فأمرهم بالهجرة .

وذلك لأن الكاتب لم يذكر أي اسم من أسماء هؤلاء المستشرقين ، متناسياً صور الاضطهاد حتى قضى الكثير من الرجال والنساء تحت العذاب دون أن يرتدوا عن دين الله ، مستعذبين الألم في سبيل الله ، أما قُتِلت سمية ؟ أما صُلِبَ خُبَيْبُ بن عدي بن مالك الأنصاري ، الذي أُسِرَ غدراً ، وبيع في مكة بعد بدر وهو يبتسم

---

(٥) حياة الصحابة : ج ١ ، ص : ٥٢٨ / ٥٢٩ .

(٦) حياة الصحابة ، ج ١ ، ص ، ٥١٥ .

(٧) حياة الصحابة ، ج ١ ، ص : ٥٢٠ .

للموت على يد عقبة بن الحارث[٨] ؟

أما ردّ عثمان بن مظعون حماية الوليد بن المغيرة فضُرب حتى فقد عينه ، فقال له في شماتة : ماكان أغناك عن هذا ، فقال : إن عيني الأُخرى لمحتاجة إلى ما نال هذا ، فقال له : هل لك أن تعود إلى جواري ؟ قال : لا أعود إلى جوار غير الله[٩] .

وهكذا ـ سيادة القاضي ـ هل تقبل أن يكون خوف الارتداد عن الدين سبباً للهجرة ؟ ! .

أما ماأعجب مكابرة المستشرقين ومن والاهم ! فكيف يرتد من يقبل الموت ، ويستعذب التعذيب ؟ وقد آمن فإن ماينالـه هو في سبيل الله وحده ، وقد باع دنياه بجنة عرضها السموات والأرض ؟!! .

٤ ـ ونحن نرفض رأي الكاتب القائل : بأنهم ذهبوا للتجارة .

ونحن نسأله : أما طلبتهم قريش من النجاشي ؟ طبعا نعم ، لِمَ تطلبهم إن كانوا تجارا ؟ .

وهناك أمر آخر وهو أن الحبشة لم تكن السوق التجارية لقريس و إنما كانت تجارتها إما إلى الشام وإما إلى اليمن ، فلو كان هؤلاء تجاراً لذهبوا إلى إحدى هاتين الجهتين ، لاإلى الحبشة .

ونذكر رداً آخر وهو أن مصادرنا العربية الإسلامية لم تذكر نَصّاً ما ـ ولو تلميحاً ـ يدل على أن أحداً هاجر طلباً للرزق ، فما هو الظن الذي لايحمل دليلاً ، أليس عجيباً وغير مقبول ؟ .

---

(٨) راجع أسد الغابة ، المجلد الثاني ، ص ١٢١ .

(٩) الكامل في التاريخ ، ج ٢ ص : ٥٣ .

٥ ـ ونحن نرفض رأي الكاتب الذي يقول بأن محمداً أراد الدعم السياسي والعسكري من النجاشي ، وذلك لأن النبي ﷺ لو أراد مثل هذا لأرسل فرداً أو فردين ، ثم عاد إليه بما طلب ، لكن الهجرة شملت أُسَراً بأطفالها ونسائها ، ومكث الجميع هناك سنوات ، فالدعم العسكري لو طُلِبَ لتحدد الموقف من الأيام أو الأشهر الأولى بالرفض أو الإيجاب .

كما أن الكاتب لم يذكر دلائله أو إشاراته التي استنتج منها هذا الظن البعيد عن العقل ، وذلك أن المؤرخين ـ قديمهم وحديثهم ـ يذكرون : كان فلان يرغب بكذا وكذا ... بدليل كذا وكذا ، وهذا مالم يتم في هذه التخمينات ، فأين دليل الكاتب في هذا التخمين الرابع ؟! .

٦ ـ أما ما قيل من أن خلافاً حدث بين أبي بكر الصديق وعثمان بن مظعون فهجَّر النبي ﷺ عثمان وأبقى الصدّيق ، فهذا مرفوض من أساسه وأرومته لأسباب عديدة :

ليس من المعقول أن يوجد مثل هذا الصراع والنبي ﷺ بين ظهرانيهم ، ولا سيما وأن الشارع قد بيَّن بصراحة أن لازعامة ولا طاعة إلا للرسول ﷺ : ﴿ وَمَا أَرسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمَ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً ، فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حرجاً مِمَّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء : ٦٤ ـ ٦٥] .

فكان النبي ﷺ ينهي أي خلاف بكلمة منه ويرضى المختلفون بحكمه ﷺ ولا يجدون في أنفسهم حرجاً ويسلموا تسليماً .

وكيف نقبل أن يكون هناك صراع ما بينهم وقد وصفهم الله تعالى بأنهم : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩]

فنحن نجزم أنهم ـ لشدة تراحمهم وتآلفهم ـ ما كانوا ليزعجوا النبي ﷺ بخلاف ؟

وكيف نقبل وجود فكرة الزعامة بين المسلمين وقد عرض الباحثون صوراً شتى من زهد المؤمنين بمناصب الحكم والسلطة ، كما ظهر في سير الكثير منهم أنهم تنازلوا عنها إلى من هم أكفأ منهم ؟

وإذا كان مثل هذا الخلاف على الزعامة موجوداً فهل يذكر لنا لِمَ لَمْ يظهر أثَرٌ له بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ؟

وإذا جاز للكاتب أن يذكر بأن المصالحة تمت سريعة نسبياً ، فهل يقبل أن قوماً يضطرون إلى الهجرة إثر نزاع أو خلاف ، ثم يعودون ببساطة متناهية فيقبلون بمكانة خصومهم ؟

وهل للكاتب أن يظهر لنا لماذا عاد ابن مظعون « وجماعته » ؟ وكيف قبلوا بزعامة محمد وبمنزلة الصديق بين المسلمين ؟ وهم الذين لم يقبلوها من قبل كما يدعي ، أما إذا كان الكاتب يبني أحكامه على الظن دون التحقيق ، فإن رأيه مرفوض بحسب المنهج العلمي للتاريخ .

هذا ... وإن لدينا دليلاً يقطع على الكاتب حجته ، وذلك **أن أبا بكر نفسه خرج مهاجراً** ، وكان من الممكن أن يغادر أرضه ودياره في سبيل الله لولا أن ردّه ابن الدُّغُنَّة .

وإليك ـ سيادة القاضي ـ حادثة خروج أبي بكر مهاجراً ليتسنى لك الحكم على افتراءات هؤلاء المتحاملين الذين رأينا بينهم هذا الكاتب .

قالت السيدة عائشة[10] : « فلما ابتلي المسلمون ، خرج أبو بكر مهاجراً نحو

---

(١٠) راجع « حياة الصحابة : جـ ١ ص : ٤١٦ / ٤١٧ ، طبع دار القلم » . الحديث الذي نورده بإخراج البخاري ص ٥٥٢ في البخاري نفسه .

أرض الحبشة ، حتى إذا بلغ بَرْكَ الغِماد[١١] ، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة[١٢] فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟

فقال أبو بكر : أخرجني قومي[١٣] فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي .

قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج ، إنك تكسب المعدوم[١٤] ، وتصل الرحم ، وتحمل الكلّ[١٥] وتقري[١٦] الضيف ، وتعين على نوائب[١٧] الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش ، فقال لهم : إنَّ أبا بكر لا يَخْرج مثله ولا يُخرج ، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكلّ ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، فلم تكذب قريش بجوار[١٨] ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ... »[١٩] .

وأخرج ابن إسحاق أيضاً بنحوه ، وفي سياقه : « **فخرج أبو بكر مهاجراً**

---

(١١) اسم موضع باليمن ، وقيل وراء مكة بخمس ليال .

(١٢) قبيلة مشهورة من بني الهون .

(١٣) وهذا هو سبب الهجرة من فم مهاجر : « أخرجني قومي » ، وماذا يريد ؟ : « أعبد ربي » ولكن بحرية .

(١٤) أي تعطي الناس ما لا يجدونه عندك .

(١٥) الثقل والعيال واليتيم ونحوه ...

(١٦) أي تهيء له طعامه ونزله ـ لإكرامه ـ .

(١٧) وهي الحادثة والنازلة والمصيبة .

(١٨) الذمام والعهد والحماية .

(١٩) إلى آخر الرواية ص ٤١٨ .

حتى إذا سار من مكة ـ يوماً أو يومين ـ لقيه ابن الدغنة ... » ، ثم كما ورد في رواية البخاري .

وبعد أيها القاضي الحكيم ... فمن ذا الذي يرضى هذه الفرية على أبي بكر وابن مظعون ؟ وأي خلاف بينهما وقد شَرَعَ الأول باللحاق إلى حيث هاجر الثاني ؟

أما إذا كان « غيتاني » ومؤيدوه يرفضون تلك الروايات التي سقناها هنا ، فإننا نكرر ما سبق وقلناه من أن مصادرنا العربية الإسلامية هي المرجع الأول والرئيس ، وهي وحدها التي نعتمد عليها في أبحاثنا عن سير دعوتنا ، ولا يمكننا ـ كما لا يمكن لأية أمة أخرى ـ أن نكتب تاريخنا اعتماداً على تخرصات وافتراءات بثها المستشرقون هنا وهناك .

فهل سمعنا مثلاً أن فرنسة تكتب تاريخها اعتماداً على رأي الهنود فيه ؟

أم هل يقبل الإنكليز كتابة تاريخهم اعتماداً على رأي اليابان فيه ؟

فعجبا لهؤلاء الذين يريدون منا أن نعتمد آراءهم في بحث تاريخنا وقد سبق المنصفون إلى نزاهة مؤرخينا وصواب مناهجهم والتقصي لصحة الأخبار !!

☆ ☆ ☆

وإتماماً للحقيقة نقول :

إن النبي ﷺ لم يفكر أن تكون الهجرة إلى إحدى القبائل العربية ، لأنها كانت ترفض دعوته في مواسم الحج إما مجاملة لقريش ، أو تمسكاً بدينها الوثني .

كما أنه لم يفكر أن تكون الهجرة إلى موطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين ، لأن كلا من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى وتنافسها على النفوذ الأدبي ببلاد العرب . فهما والحالة هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً لا سيما إذا كان من العرب الذين كانوا يحتقرونهم ويقولون فيهم : « ليس علينا في

الأميين سبيل » .

أما اليمن فقد كانت مستعمرة فارسية ، ولم يكن الفرس يدينون بدين سماوي ، فلم يطمئن الرسول ﷺ إلى الالتجاء إليهم ، وقد برهنت الأيام على بعد نظره عليه السلام ، وقد مرَّ بنا أن كسرى كتب إلى باذان عامله في اليمن : « ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين جَلِدَين من عندك فليأتياني به » .

وكذلك كانت للحيرة ـ البعيدة غاية البعد عن مكة ـ محاذيرها ، حيث كان لقريش صلات وثيقة معها ، ومصالح متبادلة ، وزيارات في أوقات منتظمة ، فإذا علمت قريش بوجودهم فيها طلبتهم ، كما حاولت ذلك مع النجاشي الذي رفض تسليمهم لتسامحه وقوة خلقه[٢٠] .

ولا ننسى أن رد الفعل عند قريش كان إرسال رجلين لإرجاع المهاجرين من الحبشة ، والرجلان هما : عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، ولما فشلا في ذلك ، قاطعت قريش بني هاشم وبني المطلب وبقي النبي ﷺ وقومه ومن آمن معه في شِعْبٍ من شِعَابِ مكة ثلاث سنوات لاقوا فيها ما لاقوا ...

فالعداء فكري عقائدي ، وأما غير ذلك فهو من تخيلات المستشرقين .

وإذا سئلنا عن سبب بقاء جعفر حتى السنة الثامنة ، فإننا نجيب بما يلي :

بقي جعفر في الحبشة سفيراً للدولة العربية الإسلامية عند النجاشي ، لا سيما أن الروايات العربية الإسلامية تذكر إسلام النجاشي ، وأنه سمح ببقاء جعفر ومن معه لنشر الدعوة . ومما يثبت هذا ، بقاء العباس في مكة وهو مسلم ، فهو لم يهاجر ليكون مع من بقي معه في مكة من المسلمين الذين لم يهاجروا رقباء على تحركات ومؤامرات قريش ، انظر الآية التالية :

---

(٢٠) تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ٨٧ .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُم عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَالهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُم فَتُصِيبَكُم مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الفتح : ٢٥] .

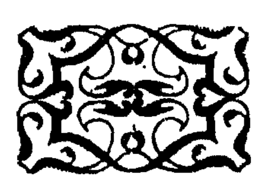
فهناك إذن جماعة من المؤمنين لم يسمح لهم النبي ﷺ بالهجرة لأسباب تتعلق بنشر الدعوة ، أو مراقبة تحركات قريش ، أو لبث بعض الأفكار وإشاعتها بين صفوف الكفار .

فلا مانع إذن من أن يكون الاضطهاد السبب الوحيد للهجرة إلى الحبشة (تماماً كما كان سبباً لإنشاء المستعمرات الإنكليزية في أمريكة فيما بعد) .

وما الخلاف بين الصدّيق وابن مظعون إلا سبب موهوم توهمه (غيتاني) بدليل هجرة الاثنين لولا تعرض ابن الدغنة إلى أبي بكر وهو في الطريق وإجارته له .

وأما بقاء جعفر في الحبشة فهو كبقاء بعض المؤمنين في مكة لنشر الدعوة .

☆ ☆ ☆



(الجلسة الثامنة عشرة)

القــدر

☆ « إن السبــق بــالعلم ، لايقتضي الجبر ... » .

د . زعبي

النائب العام[1] : « إن الإسلام جمَّد المسلمين بيد عقيدة القضاء والقدر » .

القاضي : ماردك أيها الإسلام ؟

الإسلام[2] : يظن بعضهم أن الإيمان بـالقَـدَر يعطل مـدارك الإنسـان وقواه ، ويجعله يميل إلى الكسل منتظراً مايمكن أن يأتيه من الغيب . ولاشك أن هذا افتراء على حقيقة الإسلام ، لأننـا لو نظرنـا إلى القـدر في اللغـة ، لوجـدنـاهـا بمعنى جعل الشيء بمقياس مخصوص ، أو وزن محـدد ، أو وجـه معين يجري على سنـة معلومـة : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَـدَرٍ فَـأَسْكَنَّـاهُ فِي الأَرْضِ ﴾ [المؤمنون : ١٨] ، ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَاتَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَـا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْـدَهُ بِمِقْـدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] أي أن لكل شيء من مخلوقات الله سُنناً ونواميس ومقادير منظمة .

(١) وهو في هذه الجلسة مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسة « منذ نصف قرن » . ومقالـه في مجلة « الجرنـال » الفرنسيـة ، راجـع « الإسـلام بين العلم والمـدنيّـة » : ص ٧٥ . ويشترك معه كثيرون أشهرهم المسيو كيمون في كتابه : « باثولوجيا الإسلام » . وواشنجتون ارفنج مؤرخ حياة الرسول .

(٢) اعتمدنا لهذا البحث المراجع التالية : « بشكل رئيسٍ » :

☆ محاضرة لسماحة المفتي العام بتاريخ : ١٩ / ٣ / ١٩٧١ .

☆ هل نحن مسيرون أم مخيرون : للدكتور محمد علي الزعبي .

☆ الإسلام بين العلم والمدنية : الإمام محمد عبده .

☆ الإسلام دين الفطرة والحرية : الشيخ عبد العزيز جاويش .

وباعتبار الإنسان جزءاً من الوجود ، فلا بد أن ينطبق عليه النظام الذي اقتضته كلمة الله وتقديره : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؟ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس : ١٩/١٨] .

وجاء في القرآن عن تقدير الزمن : ﴿ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [المزمل : ٢٠] ، وجاء فيه على التعميم قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : ٢] .

وعلى ذلك فإن عقيدة القَدَر في القرآن الكريم ، إنما تُعَلِّم المؤمنين أن لهذا الكون نظاماً محكماً ، وسنناً مطردة ، ارتبطت فيها الأسباب بالمسببات ، وأن ليس في خلق الله خلل ولامصادفات .

والآن لنلق نظرة إلى القرآن الكريم في مسألة اختيار الإنسان ، لنركم هي ضعيفة تلك التهمة التي رموا بها الإسلام وهو منها براء ، ويظهر ذلك في كلام الله سبحانه عن المشركين ، فقد عاب عليهم أن يحتجوا بأن أعمالهم السيئة إنما كانت بإرادة الله سبحانه وتعالى ومشيئته ، فقال جل جلاله : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ، قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٣] [الأنعام : ١٤٩/١٤٨] والمعنى المراد بالآية : سيقول المشركون لو شاء الله ماأشركوا ، أي أنه تعالى شاء أن يشركوا ، وردَّ الله عز وجل قولهم بحجتين اثنتين :

الأولى : إن الله عاقب المشركين السابقين لسوء فعلهم ، ولو أن أعمالهم السيئة كانت مفروضة عليهم لما عاقبهم عليها ، وإن الاعتذار بالمشيئة نوع من الكذب على الله .

---

(٣) التفسير التالي من « روح الدين الإسلامي » للشيخ عفيف طبارة ص ١٥٢ .

الثانية : إن الله لم يقل مثل هذا القول على لسان أحد من رسله ، وطالب المشركين بدليل على زعمهم : ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ ، ثم أثبت الله بطلان زعمهم بقوله عز وجل : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين ﴾ وواضح من هذا ، أنه لو شاء الله أن يكون الناس على طريق واحدة ، لكانت هذه الطريق هي طريق الهداية ، ولكن الناس غير مجبرين على سلوك طريق بعينها ، وترك سبحانه للإنسان تفضيل أحد الطريقين على الآخر ، وسلوك السبيل الذي يختاره : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ، إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : ٣] وقوله أيضاً : سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] فمشيئة الله تتجلى في إرسال الرسل لهداية الناس وتعليمهم سبيل الرشاد ، والتحذير من سبل الضلال ، ومشيئة الإنسان تتوضح في اختياره لأحد السبيلين .

والقرآن يثبت **في مواضع كثيرة الاختيار والمسؤولية** ـ لاالجمود والتواكل كما يدعي مسيو هانوتو ـ : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلعَبِيد ﴾ [فصلت : ٤٦] ، (فإرادة الإنسان وعمله هما مصدر مثوبته وعقابه) ، ويعول القرآن على الإنسان والذات في إحداث التغيير : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَابِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد . ١١] .

القاضي : ولكن أليس الهداية والإضلال بيد الله ؟ ألا يقول الله : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذَابِ ، أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ؟ ﴾ [الزمر : ١٩] ، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص : ٥٦] فكيف نوفّق بين هذا وماقلته فيما سبق ؟

الإسلام : الهداية والإضلال اللذان بيد الله عللهما القرآن الكريم بأنهما على **سابقة استحقاق للعباد** وبين أسبابهما :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] .

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُم واللهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِين ﴾ [الصف : ٥] .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٥] .

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] .

﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

فأصحاب هذه الصفات الذميمة لايستحقون الهداية وهم بعيدون عن رحمة الله .

ـ أما الذين يستحقون الهداية فهم أصحاب الصفات التالية :

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١١] .

﴿ يَهْدِي اللهُ بِهِ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِم إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة : ١٦] .

ـ ومشيئة الإنسان ضمن مشيئة الله ، فالإسلام يثبت الاختيار والكسب للعباد ، ولكنهم **يعقلون بإرادتهم واختيارهم ماعلمه الله مسبقاً** وبهذا نفسر : ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالمين ﴾ [التكوير : ٢٩] . فأنتم تشاؤون شيئاً علم الله مسبقاً بعلمه الأزلي أنه سيكون ، **وسبق العلم لايعني الإجبار .**

القاضي : ولكن القرآن ذكر أن كل شيء مكتوب على الإنسان ، وقبل ولادته معروف إن كان في الجنة أم في النار ، سعيد أو شقي : ﴿ مَاأَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُم إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] .

الإسلام : هذا صحيح ولكن لأسوقن هذه القصة :

- مرَّ زيد بفلاح يزرع قمحاً في موسم البذار ، ورأى بجانب هذا الفلاح فلاحاً آخر ، ترك أرضه ونام في موسم البذار ، رغم توفر المحراث والقوة على البذار ... فمضى زيد وهو يقول : سيحصد الفلاح الأول بعد ستة أشهر قمحاً ، وسيغنى ويسعد بحصوله .. أما الفلاح الثاني ، فبعد أشهر أيضاً سيحصد شوكاً وحنظلاً وثعابين .

ولقد تحقق ماقاله زيد بعد ستة أشهر ، فهل هو الذي أجبرهما على فعلتهما ؟ أم أنه علم النتائج مسبقاً ، لاطلاعه على البدايات ، وحدث ماتوقعه تماماً ؟ .

وعلى ذلك فهل يعني أنه أجبرهما ؟ ، ماأظن أحداً يقول ذلك أو يقبله .

- وكذلك قوله تعالى - ولله المثل الأعلى - فإن علمه سبق بما سيختار الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : ٣] فالله يعلم مصير الإنسان : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] .

هذا ... وقد فسر المفسرون كلمة - كتاب - هنا بعلم الله ، أي أن كل شيء من خير أو شر ، في الأرض أو في الأنفس **هو في علم الله قبل الخلق** (فنبرأها : أي نخلقها) . وفي تتمة الآية : ﴿ لِكَيْ لَاتَأْسَوا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا أَتَاكُم وَاللهُ لَايُحِبُّ كُلَّ مُختَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٣] ، وهو أن لا يتحسر الإنسان ولا يهلكه الحزن إذا ماأصابه شر ما ، أو إذا عمل ولم يفلح .

كما أن كون هذا إلى النار وهذا إلى الجنة ليست « يانصيباً » ، بل هو استحقاق بعد وجود الإرادة والعقل ، بدليل أن المجنون لايحاسب « إذا أخذ ماأوهب أسقط ماأوجب » . ويقول ابن قتيبة في هذا المعنى : « هذا من باب العلم ، أي علم الله أن فلاناً سيعطى الحرية والاختيار ، فيختار مايفضي للسعادة وفلاناً سيعطاهما فيختار سبيل الشقاء »[٤] .

---

(٤) راجع « هل نحن مسيّرون أم مخيّرون ؟ » : ص ٢٣ .

القاضي : ولكن عقيدة القدر جعلت المسلمين متواكلين !

الإسلام : « إن نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين يوم كانوا متوكلين على الله تعالى ـ لا متواكلين ـ تلجم هؤلاء المتقولين على الإسلام وتلزمهم الحجة بأن ما طرأ على المسلمين فيما بعد ، لم يصبهم إلا بعد أن تركوا التوكل على الله ، فلم يعملوا بما أرشدهم إليه من وجوب الأخذ بالأسباب العادية ، فإنه سبحانه وتعالى خلق الأسباب والمسببات ، وخلق ما بينهما من لحمة السببية ، فالتماس تلك الأسباب لا ينافي التوكل في شيء ، بل إنه التوكل نفسه ، وتفسير أولئك الناس للتوكل بالتفويض المطلق ، والتقاعد عن الكسب والتحصيل ـ بما أفضى بهم إلى الاضمحلال ـ إنما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم .

ويرشدنا الرسول ـ وهو سيد المتوكلين ـ سواء بسيرته وأعماله أم بالقرآن الكريم إلى أن لكل شيء سبباً لا يمكن الحصول عليه إلا باتخاذ ذلك السبب ، أوَمَا سمعنا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : ٧١] ، وقوله : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] . ونحو : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، إلى غير ذلك من الآيات »[٥] .

القاضي : ولكن النبي ﷺ قال : « **لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً** » . أليس هذا تواكلاً يثبت ادعاء المسيو هانوتو ؟!.

الإسلام : لا ، إن هذا لا يثبت ادعاء المسيو هانوتو ، لكنه يصدمه بحقيقة :

فلو تمعنت أيها القاضي في الحديث جيداً ، لتجلى لك الأمر واضحاً لا لبس

(٥) راجع الإسلام دين الفطرة والحرية : ص ٦١ / ٦٢ .

فيه . **إن النبي ﷺ لم يقل لرزقكم كما يرزق الطير ، تمكث في أوكارها والله يرسل إليها أغذيتها** ، بل قال : « **تغدو خماصاً وتروح بطاناً** » فهي تسعى من الصباح حتى المساء ، وتعمل بكل جد طيلة النهار ، تخرج من عشها للبحث والتفتيش عن الرزق بصدق ، ثم تتوكل على الله ليبقى القلب معه ، متعلقاً به سبحانه ...

فلو أن من قال الحديث ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ أراد منه تعطيل العمل لاتكأ واكتفى بالتسليم للقدر فقال : إن من يكفل لي النصر يكفيني التعب ، وضمان الله لاعلاء كلمة دينه يغنيني عن التعب والنصب ... ولكنه على العكس زاد وعدُ الله نبيَّه نشاطاً ، فمن معركة إلى معركة ، وما انتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن حرر الجزيرة العربية كلها . وجاء من بعده أصحابه ، فلم يتواكلوا ، ولم يتكاسلوا ، بل عملوا حتى انتشر الإسلام وتحررت الشعوب إلى قرب باريس مدينة « هانوتو » صاحب التهمة .

القاضي : ولكن الإسلام عرف القدرية أو الجبرية في عصر من أعصره ؟!.

الإسلام : أجل . ولكنها فرقة عبرت ، وليست دليلاً على الإسلام ، بل الإسلام دليل عليها . الإسلام يناقش منهجاً وفكراً ، لا أشخاصاً تبنّوه وأخطؤوا عن حسن نية أو سوئها .

ولقد وقف الإمام أحمد بن حنبل[٦] لهذه الفرقة بالمرصاد ، ولو استكان المسلمون لهذه الفرقة العارضة لما وصلوا إلى تلك الدرجة العالية في العلوم والفلسفة والاجتماع .. ولما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من حضارة سطعت على الغرب .

القاضي : ولكن القدر يعني الاستسلام للنوازل ، فقد ذكر المؤرخ الجبرتي

---

(٦) الإمام ابن حنبل : (٧٨٠ ـ ٨٥٥ م) .

الذي عاصر حملة نابليون على مصر ، أن الفرنسيين أوهموا المصريين أن احتلال مصر قدر ، ومثل هذا فعله الفرنسيون في الجزائر ، لقد أوهموا الناس أن عليهم تحمل القدر والاستسلام له و ﴿ إنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[البقرة : ١٥٣] .

الإسلام : ألا ترى معي ـ سيادة القاضي الحكيم ـ **أن الاستسلام للنوازل ليس بمعنى القدر ، وإن كان قدراً فيجب أن ندفعه بقدر يقابله ليعالجه** ، أما دفع المسلمون قدر الطاعون بقدر الحَجْر الصحي ، وقدر حصار المدينة المنورة بقدر حفر الخندق ، وقدر تعنت المشركين بقدر معركة بدر .

الجوع قدر والطعام قدر ، فندفع الجوع بقدر الطعام ، مجيء نابليون قدر ، وحربه وإخراجه من البلاد أليس قدراً ؟ فندفع قدر الاستعمار بقدر الجهاد . شرب الخمر قدر ، وجلد سيدنا عمر رضي الله عنه لشاربه قدر ، أما قال للشارب : هذه قدر هذه ؟

ولعلنا نذكر أن النبي ﷺ لم يَدْعُ إلى القعود عن العمل اتكالاً على الله ، بل طلب من الناس أن يعملوا أي عمل ولا يقعدوا مع الفقر والحرمان ، فهو القائل : لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب حزمة من الحطب فيبيعها ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه .

ولقد مرَّ بنا في سيرة عمر قوله لبعض المتوكلين : ... ولقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

ـ ولعل من المشهور تلك الحادثة التي قال فيها النبي ﷺ لناس تكفَّلوا بعابد متنسّك : كلكم أفضل منه .

ـ وما أكثر الشواهد على نبذ التواكل والقعود عن العمل أو اليأس والكسل ، ولقد قال المثل العربي : لولا الأمل بطل العمل ، فسبحان الله عما يصفون .

أما الصبر فليس إلا على ما لا يستطيع الإنسان دفعه .

ومما يلاحظ عند القدريين الجبريين أن كل واحد منهم قادر على كل شيء إن كلف أحداً بشيء ، وهو قدري جبري يزعم أن الإنسان مسير إن كُلِّفَ بشيء ، فهو ذو شخصيتين ، فهو في أعماق نفسه مقتنع بالتخيير ، أما لفظة التسيير فهي على لسانه فقط ! وبرغم هذا فإنك إن وكزته وكزة فيها عزم وقلت له هذا قدر ، نسي القدر ، وقام يدفع القدر بالقدر ، هَبَّ للضرب والقتال ولا يؤمن بالقدر الأول وحده .

القاضي : إذن من أين جاءتكم هذه التهمة ؟

الإسلام : جاءتنا من مصادر ثلاثة :

١ ـ **من مصدر يهودي** : فهناك فرقة من اليهود مرضت بمرض الجبر المطلق واسمها « الفريسيون » .

٢ ـ **ومن مصدر هندي صيني فارسي** : فالبرهمية والبوذية والمزدكية تبرر القدر ، وترضى به ، لذلك نرى أن « جهم بن صفوان » أحد أركان الجبرية قد وجد في خراسان أنصاراً له .

٣ ـ **ومن مصدر يوناني** : فقد أقر اليونانيون الجبر ، حتى أن سواد الناس في بلاد الإغريق سلموا تسليماً مطلقاً أن الحرب اليونانية الطروادية « جبر وقدر » من الآلهة .

القاضي : وما فائدة عقيدة القدر ؟

الإسلام : الإيمان بالقدر للرضا بما حصل بعد تعاطي الأسباب ، والرضا يوصل إلى الراحة ، والراحة توصل إلى السرور وعدم الحزن ، فنصف الأمراض من الهم والحزن ، ومن النكد والأرق ، وقد قيل : « **الهَمُّ نِصْفُ الهَرَم** » . كما أن أمراض القلب وتصلب الشرايين من الهم والحزن والكدر والخوف ... والإيمان بالقدر يُذْهِبُ هذا كله « **لكي لا تأسوا على ما فاتكم** » ، « احرص على

ما ينفعك واعمل وأحسن واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فقل قدر الله وما شاء فعل ، ولا تقل لو فإن لو تفتح عمل الشيطان ... » .

ولذا فإن المؤمن بالقدر يقول عند المصيبة : يا رب أخذت ولدي وأبقيت إيماني ، أخذت زوجتي وبقيت أنت لي ... فإذا رأى الله من عبده هذا جعل له من ضيقه فَرَجاً . فإن حدثت خسارة لا راد لها ، فتلك مصيبة ، وإن رافقها الحزن تصبح مصيبتين : خسارة وحزن .

فالإيمان بالقدر هنا ، ليرضى الإنسان بمصيبة واحدة نزلت ، وليسعى إلى ما هو آت بأمل جديد : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] ، فالدعوة إلى العمل من أسَسِ العقيدة . بل هي مما يفتخر به المؤمن يوم تسود وجوه وتبيض وجوه .

ومن ذلك ما خاطب به الله تعالى مريم وهي في أضعف حالة ، ألا وهي ساعة المخاض والولادة . فهو لم يبعث إليها برزقها ويطلب منها أن تتناول هذا الرزق ، وإنما خاطبها بقوله : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ [مريم : ٢٥ ـ ٢٦] ولو كان يدعو إلى الاتكال لبعث إليها رزتها ، أو لما جعلها تشعر بألم الجوع . ولكنها دعوة صريحة إلى الحركة والعمل ، ونبذ التواكل والكسل . فالرزق وإن وجد ، إلا أنه لا يأتي إلا بالعمل والجهد . وهذا مبدأ الإسلام ودعوته ، فهل بعد ذلك من قول أو افتراء ؟..

ومن فائدة الإيمان بالقدر البحث في نظام الكائنات والتعرف على سنن الله في المخلوقات ، وطلب الأشياء من أسبابها ، فالمرض قدر ، والبحث في اللقاح والدواء قدر يدفع القدر الأول ، الكهرباء قدر ، واستخدامها لطرد الظلام وتشغيل المعامل قدر ، فيضان النهر قدر ، وإقامة سَدّ ينظم جريان النهر ويدفع الفيضان قدر ، برد الشتاء قدر ، ولبس الصوف وإيقاد المدفأة قدر . وحَرُّ الصيف قدر ،

تغيير اللباس وتشغيل المكيّف قدر .. فالقدر يوافق العمل ولا يمنع من الفكر والبحث بل يحث عليهما .

القاضي : إذن لِمَ هذا الجمود والتأخر اللذان أصابا المسلمين ؟

الإسلام : أيها القاضي ، **الدين برنامج إلهي لتحقيق أوسع معاني السعادة في الإنسان في دنياه قبل آخرته** ، في نفسه وجسده ، في صناعته وزراعته ، في وطنه وعالمه . ليس الدين تقاليد وحركات وتمتمات ، فمثل هذا الدين دين ميت كما هي حال المسلمين اليوم ، تدينهم حركات جسد ليس معها حس روحي ، وحركات لسان ليس معها حس عقلي وفكري ... حركات جسد ولسان تصدر من جمود وموت ...

ـ أما المسلمون الأولون فقد فقهوا أو عرفوا حقائق الدين ، ثم انقادوا للأحكام ، ثم استسلموا للأقدار ليس استسلام المتواكل المهمل ، بل استسلام المؤمن بالقدر عند نزوله لا قبل نزوله وهو جالس ينتظر ، **عقيدة القدر كانت قوة دافعة إلى الأمام : جهاد ، فتوح ، استشهاد** ... هذا كله عمل وجد وسعي ، فإن حدثت مصيبة فالإيمان بقدر الله لمواساة النفس وطرد الهم والغم والحزن .

وتأخر المسلمين ما سببه ؟ إنه فقدان الشيخ العالم المرشد المربي ، صاحب العقل الحكيم والسعة في العلم ، الفيلسوف واسع الاطلاع . فقدان المربي المزكي للنفس والروح ، فقدان المعلم الذي يفهم المسلمين معنى القضاء والقدر حق معناه ، فقد استعمل القدر اليوم استعمال القرآن للغناء ونسيان معناه ، كحركات الصلاة ونسيان الصلة الروحية مع الله فيها . ولا نعني بالمرشد المربي الذي يعلم الفقه وأحكام التجويد ـ فقط ـ لا ... نعني به الذي يعلم النهوض في الأمة بل بالعالم أجمع . نعني به الذي يسير أمام الأمة في جهادها ، نعني به الذي يغرس التآخي والمحبة وعشق الله مع تزكية النفس في الشعب كله ، لا نعني به الذي يقول للناس اقعدوا فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، بل يقول قوموا ندفع القدر بالقدر ، هو

الذي يفهم الناس أن للقدر وقتاً كما أن للصلوات الخمس وقتاً معيناً لا يجوز تأديتها قبله ولو بدقائق .

المسلمون متأخرون لأن الإيمان فقد من القلوب وصار وراثياً ، كابن الطبيب الذي ادعى أنه طبيب بعد وفاة والده دون أن يتعلم أو يدرس الطب ، فالعلم والإيمان لا يورثان .

الإسلام بحاجة إلى من يبنيه في النفوس ، والذي يبنيه هو الشيخ العالم الوارث ، وصفته أنه يصنع الإنسان العظيم ، فيجعل الصعلوك بطلاً ، يدبر عقله أمة ويتسع شعوباً بعد أن دخل مصنع الأبطال والعباقرة ... يجعل الأمة حية في أخلاقها ووحدتها ورخائها ، يجعلها عظيمة في العلوم كلها ... وإن كان البحر شقّ لموسى فهو يشق بحور العلوم كلها للعالم أجمع .

فإذا وجد المربي ، طرد الخرافات والتواكل من النفوس ، وبعث العلم والتقدم والعمل مع الاعتماد على الله ... فيصير العربي المسلم اليوم همُّه العالم أجمع ، ولو بقي المسلمون كأولئك المسلمين لصنعوا الطائرات قبل أوروبة ولاكتشفوا القمر وغزوا الفضاء .

رُبَّ مَيْتٍ قَدْ صَارَ بِالعِلْمِ حَيّاً وَمُبْقَى قَدْ مَاتَ جَهْلاً وَغَيّاً
فَاقْتَنُوا العِلْمَ كَي تَنَالُوا خُلُوداً لا تَعُدُّوا الحَيَاةَ بِالجَهْلِ شَيّاً

سيادة القاضي ، إن « الحلقة المفقودة » بين الإسلام والمسلمين اليوم ، العالم الحكيم المنتج ، الذي افتقدناه وأضحى أندر من النادر ، عندما أصبح الصوفي راهباً ، والفقيه جامداً بمذهبه .

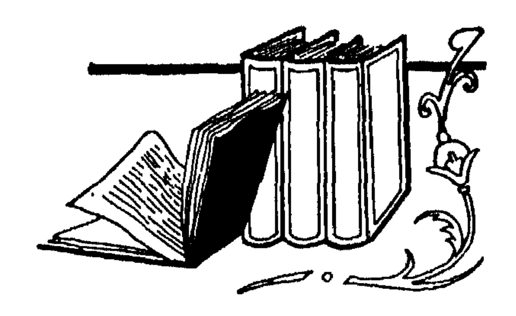
« الحلقة المفقودة » العَالِمُ الحق ، الذي يملأ النفوس فضائل ، والعقول حكمة . لا همَّ له إلا الله : صلاحاً وتقوىً ، ذكراً ويقظة ، إخلاصاً وسلوكاً ، فهماً وتطبيقاً ، حباً وصفاءً ، يتسامى فوق كل خلاف ، ليوحّد القلوب ، ويجمع المسلمين ..

ومن العلماء من درس الإسلام فكراً ومبادئ ، ولم يتربَّ على الإسلام روحاً وسلوكاً ، فهذا عالم عقيم ، لأنه قاضٍ لا طبيب ، تراه يكفِّر ويفسِّق بأحكام يصدرها ، وهو أعجز من أن يطبب النفوس ويعالج مرضى القلوب .



وبعد ، وإذا كانت تلك نظرة الإسلام إلى القدر ، فأين الاستسلام والتواكل والخنوع ؟ أليس هو أبعد ما يكون عن روح الإسلام التي نفخها الله في المؤمن الحق ؟!





(الجلسة التاسعة عشرة)

رواسب وثنية

☆ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك .

النائب العام[1]: نُقِرُّ أن الحج « مؤتمر إسلامي » له فوائده ، ولكن أما زالت فيه طقوس وثنية ، ومن أهمها الكعبة ، وتقديس وتقبيل الحجر الأسود ، الذي يشبه الحجارة المقدسة الأخرى التي كثيراً ما نجدها عند الساميين ؟

القاضي : نحن نريد حقاً أن نفهم لماذا يقبّل الحاجُ الحجرَ الأسود ؟ ونفهم لماذا اتخذت الكعبة وجهة وقبلة ؟ ونفهم أيضاً لماذا يقوم الحاج بالرجم ، ونأخذ فكرة عن الصلاة ، لماذا شرعت ؟ وهل هي طقوس ؟ وما قيمتها في عصر العلم والتقدم ؟

الإسلام : سأجيب على نقاط ثلاث إذن :

١ ـ الكعبة والحجر الأسود .

٢ ـ رمي الجمار« الرجم » .

٣ ـ الصلاة ، لماذا شرعت وما قيمتها في عصرنا الحاضر .

الكعبة : لقد دعا إبراهيم ربه ﴿ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ** ﴾[إبراهيم : ٣٧] ، فاستجاب له ربه ، وجعل من بيت إبراهيم محجة

---

(١) الشبهة ركّز عليها كثيرون ، وأوردها « كارل بروكلمان » في كتابه : (تاريخ الشعوب الإسلامية) ص : ٢٥ / ٧٦ .

ومكان التقاء تهوي إليه أفئدة البشر في مشارق الأرض ومغاربها .

وأراد الله تعالى أن يكرم العرب فجعل من عاصمتهم قبلة يتوجه إليها الناس .

وما نظن عاقلاً يمكن أن يدور في خلده أن الله تعالى أراد تقديس بيت إبراهيم وإسماعيل لحجارته وجدرانه ، لأننا ندرك أن التقديس هنا تقديس معنوي ، (كمن يزور صديقاً انقطع عن زيارته فهو لا يزور حجارة بيته بقدر ما يزوره معنوياً) .

ففيه رمز لتكريم إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة : ١٤٤] . كما أن فيه رمزاً لتوحيد الفكر والقلب ، ودليل ذلك أن القرآن الكريم قد بَيَّن لنا بأن القبلة هي وجه الله وحده : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

ولا قدسية لأحجار الكعبة بذاتها ، إنما القدسية للأمر الإلهي وحده . فالامتثال لأمر الله تعالى وهو المعول عليه في هذا المقام ، بدليل أنه لو رُفعَ هذا الأمر الإلهي لَرُفعَ معه تقديسُ المكان[٢]. وأما من حيث الفكر ، فإن في اتجاه المسلمين وجهة واحدة ، رمزاً لوحدة العقيدة والهدف .

وعلى ذلك فإننا نقرر أموراً ثلاثة :

ـ الأمر الأول : **إن الاتجاه إلى الكعبة إنما يتم بالجسد وحده ، وأما القلب والروح ، فإلى الله اتجاهها ، وبه تعلقها .**

---

(٢) وفي البلاد الملحدة اليوم الحج إلى قبرين اثنين جثة لينين في موسكو ، وقبر ماو في بكين ، حيث تقف الألوف سنوياً بخشوع وانحناء هناك ، وما ذلك إلاّ تطبيقاً « للفكر العلمي » أو « العلمية في التفكير » ؟!!

ـ **الأمر الثاني** : وهو مأخوذ من معنى الأمر السابق ، وهو روحانية الاتجاه ، فإنه ما خطر ببال أحد من المسلمين أنه يتوجه إلى الكعبة لذاتها ، أي لحجارتها ، بل يدرك أنه يتجه بفكره وروحه وقلبه إليه تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

ـ والأمر الثالث : وهو أن الطواف حول الكعبة ، وإن كان يتمّ بالجسد حول بناء جامد ، إلا أن لسان الحاج وقلبه يلهجان بقولها : « **لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ...** » ، **فالتلبية استجابة لأمر الله ، وليست للكعبة** . وما سمعنا عن أحد أنه قال : لبيك يا كعبة لبيك ... ولعل مما يفسر هذا ، قول بعض الصالحين : **طاف الجسد بالبيت ، وطاف القلب برب البيت ...**

☆ ☆ ☆

أما الحجر الأسود : فلا بد لنا من الحديث عن الحج لتوضيح ما نراه من تقبيل للحجر الأسود ، أو إشارة الحاج إليه ، ولكننا لن نتكلم بإسهاب عن الحج ومنافعه وأهدافه ، فحسبنا ما جاء في الآية الكريمة : ﴿ وَأَذِّنْ[3] فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً[4] وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ[5] يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍ عَمِيقٍ[6] ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ ﴾ [الحج : ٢٧/٢٨] .

ففي الحج تتحقق منافع دينية ودنيوية معاً ، فيه منافع روحية

---

(٣) التأذين : الإعلام ، أي أعلم الناس بأن الله أمر بالحج .

(٤) رِجَالاً : جمع راجل وهو الماشي على قدميه .

(٥) وعلى كلّ ضامر : أي راكبين .

(٦) فج عميق : مكان بعيد .

وأدبية واجتماعية واقتصادية ... ففي المؤتمر الكبير الذي يعقد في عرفات ، رمز لتوحيد كلمة المسلمين وتوجيههم إلى تدارس المشكلات والأمور التي تواجه شعوبهم ، فلكل شعب إسلامي صناعته ومنتجاته ، وبواسطة هذا المؤتمر يمكن إبرام اتفاقيات متبادلة اقتصادية ، ثقافية ، صحية ...

وفي الحج مساواة عملية بين الأمير والفرد العادي ، فلا تمييز : لباس واحد ، وحياة واحدة ، بل سمو فوق المادة والحسب والنسب والمال والجاه .

هذا المؤتمر الإسلامي العالمي لا شبيه له ، فالحج عند الأديان الأخرى إلى القبور ، بينما هو في الإسلام حَجٌّ إلى الله .

وهذه هي المدنية الحديثة ، تقتبس من الإسلام مؤتمره الإنساني الشامل ، فتقيم الأمم المتحدة بعد عُصْبَةِ الأُمم . ولكنها جاءت مبتورة ، لأنها أخذت الاجتماع المادي ، ونسيت الجانب الروحي الذي يمكن أن يصبح الإنسان والحجر شيئاً واحداً بدونه .

أما بشأن تقبيل الحجر الأسود ، فإننا نوضح الأمر بما يلي :

ـ اتخذ العرب آلهتهم في الجاهلية من أشياء لا تحصى ، ومع ذلك فلم يروا مطلقاً أن الحجر الأسود كان ضمن آلهتهم ، بل كانت له مكانة محترمة لأنه من بقايا بناء إبراهيم للكعبة .

واعتماداً على هذا فإن الإسلام لم يقر « وثنية » كانت في الجاهلية :

وإن استلام الحجر الأسود في الحج يرجع إلى اعتبار رمزي ، لا إلى تقديس الحجر ذاته[٧]، فلما أعادت قريش بناء الكعبة اختلفت بطونها على من يعيد الحجر

---

(٧) كان غلاف المجلة العسكرية السوفييتية ، العدد : ٤ نيسان / أبريل ١٩٧٧ ، صورة لجندي سوفييتي يركع بخشوع لِيُقَبِّل العلمَ الأحمر الذي يحمله زميل له يقف تجاهه . فهل تقبيل القماش عبادة له ، أم هي وثنية القرن العشرين ؟!!

إلى مكانه ، وأقبل محمد الأمين قبل البعثة بخمس سنوات ، فدعوه لرجاحة عقله وحبهم له « فهو الأمين » ليفصل في الأمر ، فبسط رداءه ووضع فيه الحجر وجاء من كل بطن رجل ، حمل من طرف الرداء حتى أوصله عليه الصلاة والسلام إلى موضعه ، فوضعه بيده الشريفة ، وأنهى مشكلة حرجة .

ـ وقف عمر بن الخطاب يوماً أمام هذا الحجر وقال : « إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » . ولهذا فليس تقبيله واجباً على الناس ، ولا يشترط بالحاج تقبيله .

☆ ☆ ☆

الرَّجْمُ : يرجم الحاج الشيطان رمزاً لما بعد الحج ، فإذا تراءى الشيطان للحاج الذي رجمه ليتلكأ عن تنفيذ أمر الله ، فإن هذا الحاج يتذكر الرجم والحرب التي أعلنها على الشيطان ، فلا يتلكأ عن معاداة من رجمه ، ولذا تتوضح آثار الرَّجم بعد الحج في السلوك والمعاملات وفي الصمود للمغريات . لأن الحج المقبول ينتج تبديلاً في صفات الحاج ، حيث ينضج في المعرفة والأخلاق والصلة بالله ... فيرجع الحاج الحقيقي بأخلاق إبراهيم وطاعته لله ، حتى لو أمره الله بذبح ولده الوحيد .

الحج حَمَّام روحي ، فإذا لم تظهر آثاره على الحاج فلا حج .

الحج فكر وروح وتربية ومنافع ... وعلى هذا كله المعوَّل .

ظهرت في العصور الحديثة صور مختلفة من صور الرجم :

ـ ألم تَرَ إلى الجندي وهو يتدرب على تمثال من خِرَقٍ ، يطعنه ويصرخ ، فَلِمَ يفعل هذا ؟ هل هذا من السخف ؟ لا ... لأنه تدريب ليوم اللقاء الحقيقي مع الأعداء .

ألم تسمع عن الجيوش ، إنها تقوم بمناورات بذخيرة غير حَيَّة[٨]، فهل تهدر الوقت وتضيع تعب الجند وجهدهم عبثاً ؟ لا ... إنها تتدرب على هدف رمزي تحتله وهو من بلادها ، ويهتف الجند صيحة النصر . إن هذا رمز وتدريب للمعركة الحقيقية القادمة .

وكذلك الرجم : إنه لرمز كتمثال الجندي ، وكالبقعة التي احتلت وصرخ الجميع لاحتلالها صرخة النصر .. فتمثُّل الشيطان الذي يصد عن سبيل الله في مكان الرجم ثم رجمه ، معناه لا طاعة له بعد اليوم ، بل حرب معلنة بين الحاج وبينه حتى يلقى الحاج ربه . فهناك في الحج تدرُّب ونـاور على رمز المخالفة ، مخالفة الشيطان وحربه ، فكلما عرض له في أمر يريد غوايته تذكر الرجم والحرب المعلنة ، فلا يخضع له ولا يطيعه ، وتبقى طاعته لله وحده ...

☆ ☆ ☆

الصَّلاَة : تتحقق في الصلاة أهداف عظيمة فنجد فيها وحدة الهدف : وذلك باتجاه المصلين جميعاً إلى قِبْلَةٍ واحدة أمام ربٍّ واحد ، وتلاوة واحدة ، وحركات واحدة ... حتى أن فيليب حتي يقول : « وإذا نظرت إلى العالم الإسلامي في ساعة الصلاة بعين طائر في الفضاء ، وقدّر لك أن تستوعب جميع أنحائه بقطع النظر عن خطوط الطول والعرض ، لرأيت دوائر عديدة من المتعبدين تدور حول مركز واحد هو الكعبة ، وتنتشر في مساحة تزداد قدراً وحجماً »[٩].

---

(٨) كافة جيوش العالم تقوم بين آونة وأُخرى بمناورات بذخيرة تسمى « الذخيرة الخُلَّبيَّة » والخلابة : الخديعة ، ورَجُلٌ خَلاَّبٌ وخَلَبوتٌ أي خدّاع كذّاب ، والبرق الخُلَّب ، والسَّحاب الخُلَّب الذي لا مطر فيه ، كأنه خادع ، ومنه قيل لمن يَعِدُ ولا يُنجز : إنما أنت كبرق خُلَّب ، مختار الصحاح : ص ١٨٣ .

(٩) Hitti: History of Arabs. vol. i. pp. 130-131.

- **وفي الصلاة مساواة** : حيث يقف الناس جنباً إلى جنب فقيرهم وغنيهم ، صغيرهم وكبيرهم ، فالكل يخضع لله وحده . ولا شك أن في هذا تحقيق عملي للمساواة .

- وفي الصلاة : **تدارس لأحوال الحَيّ** ، فإن غاب شخص تساءل أهل حَيِّهِ عنه ، لِمَ غاب عن صلاة الجماعة في المسجد ؟ فإن كان مريضاً عادوه ، وإن كان محتاجاً ساعدوه ...

- **وفي الصلاة : ثروة روحية لا يعرفها إلا من تذوّق حلاوتها** ، فهي في القلب نور ، فكلما انغمس المرء في المادة ، وكاد أن ينسى الله والدار الآخرة ولقاء الموت ... أذن المؤذن فلبّى نداء ربه ، فتبقى الشعلة مُتَّقِدَة في نفسه .

ولذا ، ولكي لا يصبح الإنسان جزءاً من آلة ، أو متكالباً على هذه الدنيا ، فإن الإنسان العصري أحوج ما يكون إلى الصلاة ، يجد فيها راحته ، ويتم فيها إنسانيته بعالميها المادي والروحي .

والمسلم المتذوق حلاوة الصلاة ، يناجي ربه خمس مرات في اليوم الواحد ، وما من لحظة يلتقي الإنسان فيها بربه التقاء صحيحاً ، إلا وتمنى أن تطول ...

ومن لم يتذوق الصلاة ، لتثمر فيه فضائل الأعمال والأخلاق وحسن المعاملة مع الناس ، فهو كالأعمى أمام لوحة فنية رائعة ممتازة ، لا يتأثر بها مهما أطال الوقوف أمامها .

وإن الصلاة التي نراها اليوم ، ليست تلك التي يريدها الإسلام ، إنها عند الكثيرين طقوس وحركات جسدية فُقِدَتْ فيها الصلة الروحية بين العبد وربه . أما الصلاة التي أرادها الإسلام فهي : لقاء مع الله ، ووقوف في حضرته . وهي مدرسة أستاذها رَبُّ العالمين ، مدرسة أنت فيها التلميذ والله أستاذك الوحيد . والصلاة الحَيَّة ترقى بالمصلي إلى مصاف الملائكة ، وتميت فيه الصفات الأنانية ،

فالصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ليست صلاة ، أما الصلاة التي تتحقق فيها الصلة مع الخالق ، فإنها تنتج الإنسان الكامل في المجتمع فتجعله : أميناً ، رؤوفاً ، صدوقاً ، خلوقاً ، مخلصاً ... فكيف يكذب ، أو يخون ، أو يظلم ، أو يشتم ، أو يغش ... وقبل دقائق كان مع الله وبعد قليل سيلقاه أيضاً ... لا ، بل هو معه في كل ثانية ، شاعر به متحسس لتجلياته في صفحات القلب والروح !

قال مونتسكيو ـ صادقاً ـ : « إن المرء لأشد ارتباطاً بالدّينِ الحافل بكثيرٍ من الشعائر ، منه بأي دين آخر أقل منه احتفالاً بالشعائر ، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التي تسيطر دائماً على تفكيره »[10]. فدين المسلم دائماً في مخيلته وفي الصلوات اليومية .

وكتب سعيد بن الحسن أحد يهود الاسكندرية الذي اعتنق الإسلام في سنة ١٢٣٨ م ـ عن مشهد صلاة الجمعة باعتباره عاملاً حاسماً في تحوله إلى الإسلام فقال : رأيت المسلمين يقفون صفوفاً كأنهم الملائكة ، ولما ظهر الخطيب مرتدياً عباءته السوداء استولى عليّ شعور عميق من الرهبة ، ولما ختم خطبته بالكلمات : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون ، ولما بدأت الصلاة ، أحسست بقوة تدفعني إلى النهوض لأن صفوف المسلمين بدت أمامي كأنها صفوف الملائكة الذين يتجلى الله القدير في سجداتهم وركعاتهم لهم ، وخطر في نفسي أنه : **إذا كان الله قد تحدث مرتين إلى بني إسرائيل في كل العصور ، فإنه يتحدث إلى هذه الجماعة في كل وقت من أوقات الصلاة ، وأيقنت في نفسي أني خلقت لأكون مسلماً**[11] .

ولذلك يقول رينان : « مادخلت مسجداً قط ، دون أن تهزني

(١٠) راجع الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد : ص ٤٥٨ ... وما بعدها .
(١١) الدعوة إلى الإسلام : ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ .

عاطفة حارة ، أو بعبـارة أخرى دون أن يصيبني أسف على أنني لم أكن مسلماً »[١٢] .

فيمكننا الآن أن ندرك ، أن الصلاة الحَيّـة ، التي كان يصليهـا التـاجر المسلم في سكينـــة وخشــوع ووقـــار واستغراق ، قـــد أثرت في الأفريقي والأنـــدونيسي والفيليبيني .. فمثل هذه الصلاة وآثارها التي ذكرت ، هي التي كانت سبباً في انتشار الإسلام هناك .

وبعـد ـ سيـادة القـاضي ـ فهل تجـد في الحَجّ والكعبـة والحجر الأسـود والرَّجم والصلاة أية رواسب وثنية ؟ أم إنها تمام السعادة البشرية التي لاتتحقق إلا بها ؟!





(١٢) Ernst Renan: L'Islamisme et la Science, P. 19. (Paris, 1883).

(الجلسة العشرون)

جلسة الختام

☆ ﴿ ... فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ، كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُم لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ . [يونس : ٣٢ - ٣٣]

☆ الاستفهام الأول :

القاضي : أيها الإسلام ، لقد أجبتنا في الجلسات الماضية عن شبهات عديدة ، واليوم نريد إنهاء المناقشات ، ولكن بقيت بعض الاستفهامات التي أرجو الإجابة عنها باختصار وإيجاز :

ماذا تقول بحكم « سيدني فيشر Sydney Fisher » في كتابه « الشرق الأوسط في العصر الإسلامي » حيث قال : « إن الإسلام نسخة مشوّهة عن اليهودية » .. وأيده بهذا « نفتالي فيدر Naphtali Wieder » في كتابه « تأثير الإسلام في العبادة اليهودية »[١] ، وكذلك « ج . ايزاك » صاحب كتاب « محاضرات للشرق الأدنى » الذي قال فيه : « واتفق لمحمد في أثناء رحلاته أن يعرف شيئاً قليلاً عن عقائد اليهود والنصارى »[٢] ؟ .

---

(١) تأثير الإسلام في العبادة اليهودية ! عنوان مغر ، غايته لفت النظر واجتذاب القراء ، إذ : كيف يؤثر الإسلام باليهودية وهي المتقدمة من حيث الزمن ؟ وفي الرد على الشبهة المطروحة اعتمدنا كتاب العقاد : « مايقال عن الإسلام » .

(٢) ص ١٢٦ ، ولمعرفة حقد المؤلف صاحب الكتاب نقرأ قوله : « ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة - أي المسلمين - منذ القرن السابع للميلاد » . والكتاب طبع مطابع الآداب الفرنسية في بيروت ، وبمثل هذه الروح يخرب التبشير في البلاد ! .

ماذا تقول بقول جولد تسهير : « إن تبشير النبي محمد ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية ، عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها ، التي تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه » ؟[٣] .

الإسلام : هذا خطأ متواتر اعتقده المستشرقون والغربيون ، لاعتقادهم أن اليهود هم مصدر العقائد الدينية التي احتوتها التوراة ، وأنهم هم الذين تلقوا وحيها الأول من أنبيائهم غير مسبوقين إليها فيا سلف ...

والأمر لايحتاج إلى عناء لإظهار وجود الخطأ في القول المذكور ، فإن مراجعة التوراة ـ التي بين يدي الناس حالياً ـ أيسر مراجعة ، ترينا أن اليهود تلقوا أهم العقائد الكونية ، وأهم التعاليم الشرعية ممن تقدم أنبياءهم في الزمن ، بل من الشعوب التي عاشوا بينها ، وكان فيها أناس من أتباع الرسل الأقدمين .

إن التوراة المتبقية اليوم تبتدئ بسفر التكوين ـ وهو جماع عقائدهم الدينية ـ ولاتسنده إلى أحد من أنبياء بني إسرائيل ، ولذا فلا حاجة إلى القول بأن عقائده سابقة للنبوءات الإسرائيلية ، وأن اليهود تعلموه عمّن سبقهم ، سواء كان من وحي الأنبياء الأسبقين ، أو من تراث الشعوب الموروث عن الأسلاف !

فكيف يقرأ المستشرقون هذا في التوراة ، ثم يلجّون وبإصرار ، على أصالة اليهودية ، واعتبار الإسلام فرعاً من هذه الشجرة لاينبت على غير جذرها ؟ بينما هي فرع من أصل قديم ، بل من عدة أصول ، وإن في أصول الإيمان ـ الله ، النّبوّة ، الحساب والعقاب ... ـ فرقاً كبيراً بين الإسلام واليهودية وغيره من الأديان .

---

(٣) العقيدة والشريعة لجولد تسهير : ترجمة المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى وزميله : ص ١٥ .

إن الله « يَهْوَا » عند بني إسرائيل إله قبيلة واحدة ، يختصها بحظوته ، والله في الإسلام إله الخلق أجمعين ، لافضل بينهم إلا بالتقوى .

النبوة عند بني إسرائيل صناعة خوارق ، وكشف عن الخفايا والمفقودات ، أما في الإسلام فهي رسالة هداية وتعليم ، وبلاغ إلى العقل والضمير ، يُقنع الناس بالبينات والآيات ، ولايجعل الإقناع موكولاً إلى التهويل أو بالخوارق والمعجزات ...

الحساب عند بني إسرائيل يُؤخذ الأبناءُ بذنب الآباء ، فيلحق الجزاء بالخلف البعيد انتقاماً من جنايات الأجداد ... أما الحساب في الإسلام : فلا يؤخذ إنسان بجريرة إنسان ، ولاتزر وازرة وزر أخرى ...

والهيكل في اليهودية هو الذي يتقبل القربان من العباد ، ولايُقبل قربان بغير وساطة الكهان الأحْبار ، أما في الإسلام فلا شيء من هذا مطلقاً .

إن جاز التشبيه بالأصول والفروع ، فيمكننا أن نقول أن الإسلام شجرة أخرى تحمل الثمرات الخيِّرة من الأديان السابقة بعد التهذيب والتجويد ، وإن ثمرات الشجرات الإسلامية لاتحملها تلك الشجرة ، ولايتأتى أن تحل فيها محل الفروع من الجذور . فليست اليهودية جذراً للعقائد الإسلامية لأنها تفرعت عما سبقها ، ولم تكن جذراً لما تلاها .

والثابت أن اليهود تعلموا عن المسلمين في لغتهم وأدبهم وحكمتهم ... لاسيا في العصر الحديث ، وأن المسلمين لم يأخذوا من اليهود شيئاً غير تلك (الإسرائيليات) التي تناقلها الجاهلون ، وفرغ المصلحون من تطهيرها من العقول .

ولم يكن للعبرية قواعد نحو أو بلاغة قبل القرن العاشر للميلاد ، وهو القرن الذي تعلم فيه « سعديا جاؤون » ثقافة العرب بمصر ، ووضع أول كتاب للقواعد العبرية ، وقواعد الفصاحة فيها ، ثم تلاه « أودنيم بن تميم البابلي » فألَّف كتاباً

بالعبرية مقرونة بالعربية ، مفسَّرة بشواهدها وأمثالها ، ولم يكن لليهود فن للعروض ، فتعلموه من عرب الأندلس ومصر . وتتلمذ فيلسوفهم « موسى بن ميمون » على يد الفلاسفة المسلمين في المغرب .

فاليهودية هي التي أخذت عن العلوم العربية الإسلامية ، ولم يأخذ الإسلام عن اليهود شيئاً .

وأما افتراء وزعم كل من مرجليوث والقس « كانون سل » ودرمنجهم[٤] بأن الجزء الخاص بالمسيحية في القرآن قد تعلمه النبي من صهيب الذي أسلم قديماً . وأنه ـ كما قال مرجليوث ـ أخذ عن جابر بن عبد الله مولى بني عبد الدار .

وقد ردّ « بودلي » في كتابه « سيرة الرسول » معتمداً على عدم وجود ترجمة للإنجيل قبل ظهور الرسول ، وذكر أن الترجمات العربية للعهدين القديم والحديث ظهرت بعد عهد النبي ببضعة قرون ، فكيف يقال أنه اطلع عليه أو أخذ منه ؟[٥] .

وأما القول إن الإسلام فرع لأن فيه كما في اليهودية والمسيحية صلاة وصوم وعبادات ، فقول سخيف ، لأن جميع أديان العالم فيها ما يقوّم النفس بمثل هذه العبادات ، فليس وجود عبادة في دين ووجود ما يشبهها في دين آخر دليلاً لاتهام أحد الدينين بأنه أخذ عن صاحبه . ولاشك أن منطق من يقول بهذا منطق سقيم واستنباطه غير مستقيم .

ومع كل هذا فإن العبادات في الإسلام غيرها في اليهودية كما رأينا في الفرق بين أصول الإيمان .

☆ ☆ ☆

---

(٤) في كتابه « حياة محمد » وللقس « كانون سل » كتاب بهذا الاسم أيضاً ذكر فيه مانحن بصدده .

(٥) هذا .. ويخالف الإسلام جوهر المسيحية ألا وهو التثليث ، بتوحيد مطلق !! فأين الاقتباس ؟!

☆ **الاستفهام الثاني :**

القاضي : إذا كان الإسلام ديناً متكاملاً من جميع الوجوه ، فإنني أرى أنه أغفل الزراعة ولم يكترث بها . فلم ذاك ؟.

الإسلام : إن الإسلام لم يَدْعُ إلى روحيّة مطلقة مجردة عن الحياة الدنيوية ، ولم يدع إلى مادية مطلقة مجردة عن صفاء الروحية وشفافيتها . فمن حكمته أنه نسّق بين الطرفين ، فلا طغيان لطرف على طرف ، ولا رجحان لحالة على حالة ، إنما العبرة باستواء واعتدال الحد . وهذا التوفيق بين الطرفين سرّ من أسرار قوة الإسلام ، ولم تذهب هذه القوة إلا حين أضاع السلمون ميزان الاعتدال بين مطالب الدنيا ومقتضيات الآخرة ، أو بين دوافع المادة ولذائذ الروح .

وأما القول إن تعاليم الإسلام كانت وراء صرف العرب عن الزراعة ، فهذا افتراء لأن الإسلام لايحث على العمل بالزراعة فحسب ، بل يجعله كغيره من الأعمال في مرتبة الجهاد . وحسبك هذه الآيات في الحث على الزراعة :

١ ـ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾[الأنعام : ١٤١] .

٢ ـ ﴿ يُنْبِتُ لَكُم بِهِ[٦] الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾[النحل : ١١] .

٣ ـ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَاتَحْرُثُونَ ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾[الواقعة : ٦٤/٦٣] .

---

(٦) به : أي بالمطر .

٤ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ[٧] فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : ٢٧] .

فالشاهد الأول تظهر فيه نعم الله التي تخرج من الأرض وفضله على عباده ، وأنه هو المنشئ الحقيقي لها .

والشاهد الثاني فيه الأشياء التي ينتفع بها الإنسان من إنزال المطر ، وأولها « الزراعة » .

والشاهد الثالث يجعل الله عز وجل هو الزارع الحقيقي ، والمنبت الحقيقي للأرض .

وفي الشاهد الرابع صورة جميلة للأرض اليابسة البور وقد أصبحت جنة من الجنات ، ولاشك أنها لاتصبح كذلك إلا بالزراعة .

ـ أما أحاديث رسول الله ﷺ فمنها :

١ ـ « **مامن مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة** » . فهذا الحديث يدعو صراحة إلى الزراعة .

٢ ـ « **من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها فإن أبى فليمسك أرضه** »[٨] .

٣ ـ « **من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها** »[٩] . وقال : « **من أحيا أرضاً ميتة فهي له** » .

---

(٧) الجرز : اليابسة التي لانبات فيها ..

(٨) ـ (٩) رواه البخاري .

٤ ـ ماتواترت به الأخبار ورواه البخاري أيضاً من أن النبي ﷺ أمر بالزراعة في مساحات شاسعة بالمدينة ، وأن أصحابه أقبلوا على الزراعة ، وجنوا من ورائها الخير الكثير ، وروى البخاري عن قيس بن مسلم عن أبي جعفر قال : « مابالمدينة أهل بيت هجرة إلا يزرعون على الثلث والربع »[١٠] .

ومن الآثار : كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامله عدي بن أرطأة : « انظر إلى ماقبلكم من الأرض فاعطوها بالمزارعة على النصف ، وإلا فعلى الثلث حتى تبلغ العشر ، فإن لم يزرعها أحد فامنحها ، وإلا فأنفق عليها من مال المسلمين ، ولاتبيرن قبلك أرضاً » ...

وهذا الأثر واضح في مدى الاهتمام بالزراعة حتى لو أدى الأمر إلى أن تزرعها الدولة بنفسها ، ونرى فيه حرص الدولة على عدم تبوير الأرض ...

القاضي : ولكن روي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمر بإحراق زرع المسلمين بالشام ، وأن معاوية تولى حرقه ، وأن عمر لم يسمح لقيس بن عبد الغوث المرادي أن يزرع إلا أن يقر بالذل ويمحو اسمه من العطاء ؟!.

الإسلام : يكفينا للرد ، ماذكره ابن حزم في المحلى حين قال عن هذه الروايات إنها مرسلة ـ أي غير متصلة السند إلى عمر ـ وراويها : أسد بن موسى ضعيف ، ولا يعتد بحديثه ، وأحد هذين الأمرين في معيار العلماء كافٍ جداً لعدم قبول الرواية ، وابن حزم لم يكتف بهذا بل عقب بقوله : ويعيذ الله أمير المؤمنين من أن يحرق أرض المسلمين ، ويفسد أموالهم ...

هذا ... وإن صح الحديث عن إحراق الزرع فلعله لتواني أصحابه عن

---

(١٠) راجع البخاري في باب المزارعة بالشطر ونحوه ، وأيضاً فتح الباري : جـ ٥ ص ٤٠٧ وراجع مجلة « العربي » العدد ١٤٠ ص ٢٤ . فهنالك بحث في الزراعة للدكتور أحمد عبد المنعم البهي اعتمدناه هنا .

الجهـاد ، واللجوء إلى الراحـة وترك الـدعـوة والجهـاد .. لأن عمر نفسـه كان يـزرع أرضه بالمدينة المنورة ، قال البخاري : « وعامل عمر الناس على أن جاء عمر بالبـذر من عنده فله الشطر ، وإن جاؤوا بالبذر فلهم كذا ... »[١١] .

القاضي : وماقولك بما رواه البخـاري في بـاب المزارعـة بعنوان : « بـاب من يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو مجاوزة الحـد الـذي أمِرَ بـه » حيث قـال : حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ، عبد الله بن سالم الحمصي ، حدثنا محمـد بن زيـاد الألْهاني عن أبي أمامة الباهلي قال : رأى سكـة[١٢] وشيئـاً من آلـة الحرث ، فقـال : سمعت النبي ﷺ يقول : لا يدخل هذا بيت قوم إلا دخله الذل » ؟

الإسلام : وهناك حديثـان آخران في « نيل الأوطـار ، الجزء ٥ ، ص ٤١٩ » للشوكاني ، ولكنه ردهما بسبب ضعف في رواتها . أما الحديث الذي ذكرت بروايـة البخاري ، فراوي الحديث أبو أمامة ليس له سوى هذا الحديث ، وحديث آخر عن الأطعمة ، وآخر في الجهاد مرفوع . ولهذه الاعتبارات ولمعـارضـة هـذا الحـديث لمـا رواه البخاري نفسه في باب المزارعة من الحث عليها وغير ذلـك من التفصيلات التي جاءت بشأنها ، فهو يحاول الجمع بينه وبينها ، فيجعل له عنواناً خاصـاً هو التحـذير من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو مجاوزة الحـد الـذي أمِرَ بـه ، ومعنى هـذا الكلام صراحة أن البخاري يرى أن **الحديث خاص بمجاوزة المعقول في الزراعة** ، ولم يبين لنا الحد الذي أمر به ، والحد الذي لم يؤمر .

ويعلل ابن حزم الحديث ويفسره فيقول : لم يزل الأنصـار كلهم وكل من قسم له النبي ﷺ أرضاً من فتوح بني قريظة ، ومن أقطعه أرضاً من المهاجرين يزرعون ويغرسـون بحضرتـه ﷺ . وكـذلـك من أسلم من أهـل البحرين وعمـان واليمن

---

(١١) المزارعة بالشطر في البخاري ، وفتح الباري : جـ ٥ ص ٤٠٩ .
(١٢) الحديدة التي تحرث بها الأرض .

والطـائف ، فما حضّ عليـه الصلاة والسلام قـط على تركـه . ويقـول ابن حـزم : وكلامه عليه السلام لا يتناقض ، ومن ثم حمل الزرع المـذموم على مـاتشوغل بـه عن الجهاد في سبيل الله .

ولما كان أعـداء المسلمين ـ داخليـاً وخـارجيـاً ـ يتربصـون بهم الـدوائر ، ويتحينون الفرص لتقويض دعائم دولتهم النـاشئـة وتهـديم أركانهـا ، ولمـا كان عـدد المسلمين لا يزال قليلاً بالنسبة إلى أعدائهم ، فقد كان الجهاد الشغل الشـاغل للمسلمين فقدموه على ماسواه من أمور الحياة ومنها الزراعة . فإن تحقق الهـدف من الجهـاد ، ألا وهو تبليغ رسالة السماء ونشر عقيدة العدل والأمن . فلا مانع حينئـذ من الاهتمام ببقية أمور الحياة كالزراعة والصناعة وغيرها .

وهذا لا يختلف أبداً عما تقوم به الحكومات في عصرنا الحـاضر ، فهي حين تعلن التعبئة العامة فإنها تحول إمكاناتها وطاقاتها كلها إلى المعركة . فتأخذ إلى المعركة كلا من الزارع والصـانع والمعلم والطبيب ، وتقبل بتعطيل الأعمـال كافـة وتحويلهـا إلى المعركة ، لأن رد المعتـدين والجهـاد والنضـال ضـدهم يـأتي في المرتبـة الأولى . فـإن استقامت الأمور وعاد السلام ، انصرف الناس والدولة معهم إلى الزراعة والصنـاعـة وميادين الحياة الأخرى .

فمن يقول اليوم بأن في هذا التحول إلى القتال وقت الشدائد محـاربـة للزراعـة والصناعة ؟.

وأخيراً ... ماذا تريد أيها القـاضي أكثر حَضّـاً على الزراعـة وأروع دعوة إليهـا من قوله ﷺ حاثاً على الزراعة والعمل مها كانت المشاغل ولو كانت قيام القيامة : « **إذا قامت القيامة وبيد أحدكم فَسِيلَة فليغرسها** » ؟



☆ **الاستفهام الثالث :**

القاضي : لقد أجبت عن الزراعة ، ولكن كيف تقول ـ أيها الإسلام ـ أنك دين عالمي شامل تصلح لكل زمان ومكان ، فهل تصلح لسكان منطقة القطبين ؟ وكيف يمكن للمسلم أن يصلي أو يصوم هناك ؟! أم تريد منه أن يصوم ستة أشهر وهي فترة النهار القطبي ؟ وكيف تريد منه أن يصلي في هذه الأحوال الزمنية ؟!.

الإسلام : ألا ترى معي أيها القاضي الحكيم ، أن من يرمون هذه الشبهة ويتشدقون بها جاهلون بعلم توزع السكان أولاً ، وبالفقه الإسلامي ثانياً ؟

فلا أدري لماذا يتمسك هؤلاء المفترون بالعدد القليل جداً جداً الذي يسكن منطقة القطبين ويتناسون العدد الأهم ألا وهو أربعة مليارات أو يزيد .

فليس في القطب الجنوبي[١٣] إنسان مطلقاً ـ سوى بعثات علمية لاكتشاف المجهول هناك ـ وأما سكان القطب الشمالي وعددهم لا يزيد على (١٠٠ ألفٍ) ينتشرون في شمال كندا وأوراسية . فهل عدم صلاحية الإسلام ـ فرضاً ـ لمثل هذا العدد القليل ، تعني عدم صلاحه لبقية سكان الكرة الأرضية ، وعددهم أربعة مليارات من البشر ؟

ومع ذلك فإن الإسلام يَجْبَهُهُم بحقيقة رائعة ، فقد حسب لكل أمر حساباً ، فأجمع الفقهاء على أن هؤلاء الذين تختلف أحوالهم الزمنية عن الطبيعة المألوفة **يقدرون الوقت تقديراً** ، حسب الأحوال الزمنية العادية ـ في مكة مثلاً ـ أو أي بقعة قريبة منهم .

وليس رأي هؤلاء الفقهاء من عندهم ، بل شرّعه النبي ﷺ ، وذلك لما سأله

---

(١٣) القطب الجنوبي أرض كبيرة تعرف باسم (قارة انتاركتيكا) ، أما القطب الشمالي فبحار متجمدة يعيش مائة ألف إنسان على أطرافها .

بعض الصحابة عن الصلاة في هذه الأحوال : « **أتكفينا فيه صلاة يوم** » ، فقال ﷺ : « **لا ، أقدروا له قدره** »[١٤] .

☆ ☆ ☆

☆ الاستفهام الرابع :

الإسلام : وبعد فهل من تهمة وهل من افتراء يفترى علي ، ألا ترى أنني أصلح للحياة في كل مكان وفي كل زمان ؟

القاضي : الإسلام من نتاج العصور الوسطى ، والعصور الوسطى عصور ظلام ، لم تأت بخير ، فقد كانت حرباً على العلم والعلماء والمعرفة ، فما قولك في هذا ؟

الإسلام : أيها القاضي ، صحيح تماماً أن العصور الوسطى هي عصور ظلام ، وحرق للعلماء ، ومحاربة للمعرفة ، هذا حق لا ريب فيه ، لكنه لا ينطبق إلا على أوربة وحدها ، وكم أرثي لحال هؤلاء الشباب الذين يرددون هذا القول دون علم أو بحث أو تمحيص ، فيثبتون بهذا جهلاً وترداداً لشبه المستشرقين كالببغاوات وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ، فما ينطبق هناك لا ينطبق هنا . فاحتراماً للعقول التي تردد دون علم ، وتتقول دون مراجعة أي منصف ، وتدعي دون قراءة ... نقول : إن عصرنا الذهبي ، عصر النور والعلم والمعرفة والبحث والتجربة واستقصاء الحقائق بكل الميادين ... كان في العصور الوسطى .

وذلك أننا لم نعرف يومذاك ما عرفته أوروبة من الصراع بين العلم والدين . حيث يَحُضُّ الإسلام على العلم بشتى ميادينه وفروعه . ولقد كانت كل من بغداد

---

(١٤) راجع الحديث كاملاً في « مسند الإمام أحمد بن حنبل : جـ ٦ ص ٣٧ » وراوي الحديث : الإمام أحمد ومسلم والترمذي .

وقرطبة حاضرة العالم العلمية ، بما فيها من جامعات ومكتبات وعلماء . بينما كانت أوروبة في هذه الفترة غارقة في ظلام الجهالة رعايتها ، فتحاكم رجال الفكر والعلم على ما يعده رجال الدين مخالفاً لآراء الكنيسة . ولقد هلك بسبب هذه المحاكات الكثير من العلماء ورجال الفكر .

ولقد صورت دائرة معارف لاروس (القرن التاسع عشر) تحت كلمة دين ، قول رجال الدين في أوروبة للإنسان : « **ولكن أطع وأنت أعمى** » وهذا الذي لم يكن عندنا في العصور الوسطى ، بل كان يقابله في الإسلام :

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١] .

﴿ ... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِي ، وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُم لا يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٤] .

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُم إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

فشتان بين افتراءاتهم وبين الحقيقة التي تصفعهم ، وما أبعد الفارق بيننا وبينهم ، وها هو العلامة الكبير « دريبر » المدرس في جامعة نيويورك يصفعهم بتلك الحقيقة فيقول في كتابه : « المنازعة بين العلم والدين » حين قال : « إن جامعات المسلمين مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك أوروبة وأمراؤها يغدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها » .

لقد كانت بلادنا مصدر إشعاع فكري وعلمي حضاري إلى أوروبة .

إن جربرت الفرنسي درس في مدارس إشبيلية وقرطبة ، وتزود بالحضارة العربية الإسلامية ، ثم نصّب بابا في روما باسم سلفستر الثاني ، وأدخل معارف

عرب الشرق والغرب إلى أوروبة[١٥] .

فلو كانت بلادنا في عصور ظلام لما أمَّ البلاد طلاب العلم من أقطار الدنيا كلها ، وحسبنا ما قاله الأستاذ ليبري : « **لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبة الحديثة عدة قرون** »[١٦] .

أجل : إن شمس العرب سطعت على الغرب[١٧] في العصور الوسطى ، ولم تبدأ النهضة الأوروبية الحديثة إلا بعد الحروب الصليبية واطلاع الأوروبيين على معارف العرب المسلمين ، كما أن الترجمات عن العربية كانت المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوروبة نحو ستة قرون ، ويمكن القول أن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلاً ، دام إلى الزمن الحاضر ، فقد بقيت كتب ابن سينا تدرس في جامعة مونبلييه إلى أواخر القرن الماضي . ولما احتاج لويس الرابع عشر إلى كتاب في الطب ، لأخذ وصفة مناسبة له ، دفع مبالغ طائلة تأميناً لكتاب عربي في الطب لم يوجد سواه في فرنسة كلها . ولم يسترد المبلغ إلا بعد ما رد الكتاب .

ثم ألا يكفي للرد على هذه الشبهة ـ أيها القاضي ـ ما قاله الأوروبيون من أن تدمير بغداد ، وإتلاف مكتبتها « دار الحكمة » على يد هولاكو ، قد أخَّر حضارة العالم ستة قرون . فهل كان دين هذه الأمة نتاجاً لعصور ظلام ؟ أم أن محاولة القضاء على تراث هذا الدين حملت معها الظلام إلى البشرية وأخرت الحضارة ستة قرون ؟ وماذا بعد شهادة « غوستاف لوبون » **الذي تمنى لو أن العرب استولوا**

---

(١٥) راجع كتاب : تاريخ العرب العام للمستشرق ل . أ . سيديو ، ترجمة : عادل زعيتر ، ط ٢ عام ١٩٦٩ ، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ .

(١٦) روح الدين الإسلامي : ص ٢٧٠ .

(١٧) راجع كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » لزيغريد هونكه ، لترى علوم العرب في العصور الوسطى .

على فرنسة لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانية مركزاً للحضارة والعلم ، حيث كان رجل الشارع فيها يكتب ويقرأ ويقرض الشعر أحياناً ، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبة لا يعرفون كتابة أسمائهم ويبصمون بأختامهم .

ويضيف « لوبون » ساخراً ممن يقارن العرب في العصور الوسطى بالأوروبيين في نفس الوقت : « فقد كان الوضع على عكس الوقت الحاضر تماماً ، العرب هم المتحضرون ، والأوروبيون هم المتأخرون ، ولا أدل على ذلك من أننا نسمي تاريخ أوروبة في ذلك الوقت العصور المظلمة »[١٨] .

وأخيراً ... واحتراماً للعقول وتأدُّباً مع العلم ، على من يبتغي التوسع أن يرجع إلى بعض الكتب التالية مثل : « تاريخ الأندلس » أيام الحكم العربي الإسلامي للدكتور أحمد بدر . وكتاب : « تاريخ أوروبة في العصور الوسطى » لفِشَر . فالفترتان في زمن واحد ، حيث يرى من يراجع هذين الكتابين الفرق بين عصورنا الوسطى وعصور أوروبة . وهناك كتاب : « شمس العرب تسطع على الغرب » لزيغريد هونكه ، وفي نهاية كتاب « الحركة الصليبية » للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بحث لأثر هذه الحروب على النهضة الأوروبية ... « أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سنيوراتنا الغليظة في القرون الوسطى ، وتعلم فرساننا أرق العواطف وأنبلها وأرحمها »[١٩] .

ولقد أصدرنا حكماً قرناه بالدليل . وأما افتراؤهم فهو افتراء على العلم أولاً ، وافتراء على أمتنا وحضارتنا ثانياً . ولا دليل له لأنه يقوم على التحامل والحقد الدفين .

---

(١٨) راجع « في التاريخ العباسي والأندلسي » د . أحمد مختار العبادي ، ص ٢٩٤ / ٢٩٥ .

(١٩) القول للمسيو بارتلمي سنت هيلر في كتابه عن القرآن ، أورده لوبون ص ٥٧٦ في حضارة العرب .

☆ الاستفهام الخامس :

القاضي : أيها الإسلام ! لقد ورد في القرآن الكريم : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [الزخرف : ٣٢] . فما رأيك في الطبقية الاجتماعية التي دعوت إليها عندما ميزت المجتمع طبقات يسخر بعضها بعضاً ؟

الإسلام : قبل أن أشرح موقف الإسلام من نظام الطبقات لا بدّ لي أن أبين لمحة عن هذه الطبقية كما عرفتها - ولا تزال تعرفها - أوروبة . فقد كانت الشعوب الأوروبية في العصور الوسطى على طبقات متفاوتة تفاوتاً كبيراً . فهناك طبقة النبلاء أو الأشراف ، وطبقة رجال الدين « الإكليروس » ، وطبقة العامة . وآخر الطبقات في أوروبة « البورجوازية » التي كَوَّنَت غناها على أكتاف الشعب الكادح .

وكان النبلاء ورجال الدّين يتميزون بثيابهم الخاصة ، ورواتبهم العالية وسطوتهم الشديدة إلى جانب إعفائهم من الضرائب وتخصيصهم ببعض ريعها ، وكان الانتساب إلى هاتين الطبقتين وراثياً .

فقامت الثورة الفرنسية وألغت - في الظاهر - نظام الطبقات ، وأعلنت - نظرياً - مبادئ الحرية والإخاء والمساواة .

وفي العصر الحديث ، قامت في أوروبة طبقة رأسمالية تملك المال والسلطان والقوة التي تُسَيِّر بها دفة الحكم . وفي انكلترة لا يزال مجلس اللوردات يتمتع بصبغته الرسمية . كما أنه لا يزال فيها قانون إقطاعي يقضي بأن يحرم جميع الأبناء والبنات من الميراث فيما عدا الابن الأكبر ، منعاً لتفتيت الثروة ، ولتبقى ثروات « الأُسَر » في كيانها الموروث ، كما كانت طبقة الإقطاعيين في العصور الوسطى

فنظام الطبقات يتلخَّص في حقيقة أساسية ، هي أن الطبقة التي تملك المال

تملك السلطان ، تملك وسائل التشريع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فتأتي تشريعاتها لحماية نفسها ولإبقاء الشعب خاضعاً لسلطانها ، محروماً من كثير من حقوقه ، مرهقاً بالضرائب[٢٠] ..

هذا يذكرنا بالطبقية التي عُرِفت في الهند واليونان وعند الرومان وفي بلاد فارس ، حيث كانت الطبقة الدنيا محرومة من الحقوق والامتيازات ، وعليها واجبات كثيرة ، فتوارثت الطبقات العليا الشرف والمال ، وتوارثت الأخرى الذل والفقر والعبودية جيلاً وراء جيل .

والآن يمكن البرهنة على أنه لا طبقية في الإسلام :

فالشرف لا يورَّث وما حادثة ابن عمرو بن العاص والقبطي عن الذهن بغائبة ، فقد ساوى بينهما الإسلام ، ورفض فكرة ابن الأكرمين ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند حكمه في الحادثة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » . فالناس أحرار كلهم ، ولا يتفاوتون إلا بالعمل والتقوى ، والناس سواسية كأسنان المشط ...

والثروة في الإسلام تتوزَّع بالوراثة بين جميع الأبناء : ﴿ كَيْلا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُم ﴾ [الحشر : ٧] ، وهكذا فإن الثروة في الإسلام ، ما إن تتجمع حتى تتفرق وتتوزع ، وغني اليوم قد يفتقر غداً ، وفقير اليوم قد يغتني غداً ، فلا تقوم الحواجز المصطنعة بين أي شخص وبين الغنى أو الفقر ...

والتشريع الإسلامي ليس مُلْكاً لطبقة بعينها ، لأن الشريعة سماوية منزلة لسعادة الجميع ولا محاباة فيها لأحد ، ولا ظلم لأحد ، وليس في وسع أحد أن يصنع لنفسه قانوناً يحمي به مصالحه على حساب شخص آخر .

فماذا بقي من نظام الطبقات ؟

---

(٢٠) بعض أفكار هذا البحث مقتبسة من كتاب « شبهات حول الإسلام » راجع ص ٨٥ .

ومعنى الآية المذكورة يثبت الأمر الواقع في أنحاء كرتنا الأرضية ، وهو : ان الناس متفاوتون في المراتب والأرزاق ، والتفضيل بالرزق يسبقه السعي والكد منذ الصغر- كما يقول المثل : المستون الذين يسبحون في الراحة في شيخوختهم ، هم الذين خاضوا سواقيها في صغرهم - والإهمال والكسل منذ الصغر أيضاً هما اللذان يجعلان الرزق والمراتب متفاوتة ... فهذا موظف بسيط ، وهذا مهندس ، وهذا وزير ... وهكذا في الأرض كلّها ، فرفعة الدرجات ليست حظاً أو مصادفة ، كما توضح ذلك الآيات التالية :

- ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

- ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .

- ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَات مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفِّيَهُم أَعْمَالَهُم وَهُم لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٩] .

أما « سخرية » فليس معناها الاستهزاء والاحتقار . وليس المقصود بالتسخير ... استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد ... بل إن البشر مسخر بعضهم لبعض ، ودولاب الحياة يدور بالجميع ، ويسخر بعضهم لبعض في كل وضع وفي كل ظرف ، المقتر عليه في الرزق مسخر للمبسوط له في الرزق ، والعكس صحيح ...

فالعامل مسخر للمهندس ومسخر لصاحب العمل .

والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل .

وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء .

وكلهم مسخرون للخلافة في الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات ، والتفاوت في الأعمال والأرزاق[٢١] ...

وبعد فهل يمكن أن نسوي في أي نظام بين أجر الجندي وأجر القائد ، أو أجر المهندس وأجر العامل ؟! .

هذا ناموس الحياة ، سُنّة ثابتة من سنن الحياة أن يكون الجميع مسخرون لبعض دون استعلاء واحتقار ، وهذا ماعناه الإسلام في « سخرية » لاأكثر ولا أقل[٢٢] .

☆ ☆ ☆

☆ الاستفهام السادس :

القاضي : ماموقف الإسلام من الإقطاع ؟ .

الإسلام : إن الإقطاع هو نظام في ظله يلتزم المنتج المباشر نحو سيده أو مولاه بأداء مطالب اقتصادية معينة سواء أكانت تلك المطالب تؤدى على هيئة خدمات يقوم بها ، أم على شكل مدفوعات يؤديها نقداً أو عيناً ..

فنظام الإقطاع : طبقة مالكة ، وطبقة من الفلاحين والعمال الزراعيين والعبيد يعملون في أرض الإقطاع ، ينظم سيدهم حياتهم الاجتماعية والسياسية ... فالفلاح يقوم بأعمال السخرة في أرض الشريف رغما عنه وضد مصلحته ، وعليه أن يؤدي ضريبة ما اعترافاً منه لسيده بالتبعية والخضوع ...

و يمكن للاختصار ـ حسب طلبك أيها القاضي ـ أن نعد المقومات الأساسية

---

(٢١) راجع الظلال ، ج ٧ ، ص : ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٢٣٢ .

(٢٢) من روائع الإسلام ، مؤاخاة حمزة سيد قريش وشريفها مع زيد المولى بعد الهجرة ، فأين الطبقات ؟ أما عاتب الله نبيه لبقائه مع أشراف قريش طمعاً بإسلامهم ، وتلهيه عن عبد الله بن أم مكتوم « الأعمى » الذي كرمه الله ورفعه لأنه جاء ليتزكى ، فأين الطبقات والأشراف ؟!

للإقطاع لنوازن بينها وبين ماحدث في المجتمع الإسلامي ،وهي[٢٣] :

١ ـ التبعية الدائمة للإقطاعي : Senfdom .

٢ ـ الالتزامات التي يلتزم بها الفلاح نحو السيد ، وتشمل :

أ ـ الخدمة المجانية الإجبارية في أرض الشريف يوماً كل أسبوع .

ب ـ والخدمة المجانية الإجبارية في المواسم .

جـ ـ وتقديم الهدايا في الأعياد والمناسبات للسيد الغني .

د ـ وطحن الغلال في مطحنة الشريف .

٣ ـ تحديد الشريف ـ حسب هواه ـ لمقدار الأرض الممنوحة لرقيق الأرض والخدمات والضرائب المطلوبة منه .

٤ ـ ممارسة الشريف لأمور الحكم والقضاء وحسبما يقتضي به مزاجه الخاص ، لعدم وجود قانون عام .

٥ ـ اضطرار الفلاحين إلى شراء حريتهم بالمال حين آذن هذا النظام بالانهيار .

هذا في نظام الإقطاع ، أما في الإسلام :

١ ـ التبعية الدائمة مسألة ما عرفها الإسلام قط خارج دائرة الرّق الذي شرحنا وسائل التحرر منه بالتفصيل ، فلا تبعية إلا لله وحده .

والإسلام ـ من الوجهة الاقتصادية ـ لا يقيم بنيانه الاقتصادي على تبعية إنسان لإنسان . فيما عدا حالة الرّق التي أشرنا إليها ، والتي لم يكن لها مخلص ذلك

(٢٣) شبهات حول الإسلام ، ص : ٥٦ . فالبحث هنا يعتمد على بحث « الإسلام ... والإقطاع » فيه .

الحين ... ومن الوجهة الروحية والوجهة الاقتصادية معاً فقد منع الإسلام الإقطاع وأدرك الناس قبل أن يصبحوا رقيقاً للأرض فحررهم من وبال الإقطاع .

٢ ـ أما الالتزامات التي يلتزم بها الفلاح لصاحب الأرض فلم يعرفها تاريخ الإسلام قط . فقد كانت العلاقة الوحيدة التي عرفها الإسلام بين الفلاح وصاحب الأرض هي الإيجار أو المزارعة ، وبمقتضاها يستأجر الفلاح من صاحب الأرض جانباً منها بحسب ماتستطيع موارده ، ويكون حُرّاً حرية كاملة في زراعته على نفقته وجني محصوله كُلّه لنفسه . أو يشارك صاحب الأرض ، فيدفع الأخير كل النفقات ، ويقدم الأول جهده ، ثم يتتسمان الناتج آخر الموسم .

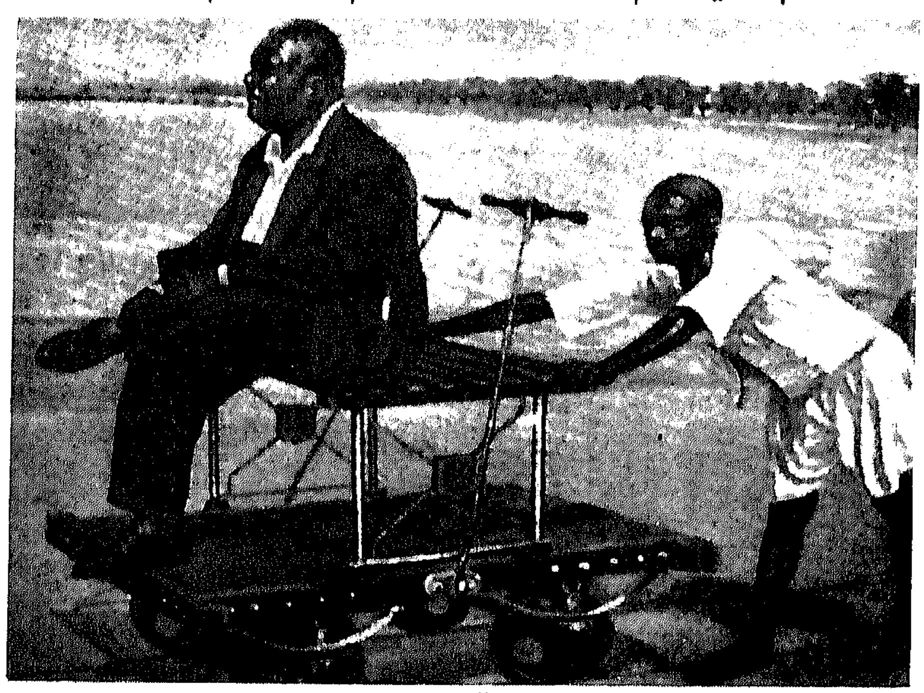
وفي الحالتين لاتوجد التزامات إجبارية نحو « السَّيِّد » ولا سخرة ، ولا أية خدمة بلا ثمن ، وإنما هو التزام متبادل بين طرفين متكافئين في الحرية وفي الحقوق والواجبات ... فالفلاح حر فإذا لم يجد صفقة كاسبة فله ألا يعمل في الأرض ، وليس للمالك أن يُلزمه بشيء ، فإذا ارتضى نظام المزارعة ، فالتزاماته فيه متكافئة لالتزامات المالك ومتوقفة عليها ، وربحه كذلك مناصفة مع صاحب الأرض .

ـ أما الهدايا والأعطيات فهنا على العكس فهي من المالك إلى الفلاح ، وليس الفقير هو المكلف بإهداء الغني كما اقتضت « إنسانية » أوربة .

ـ أما الطواحين فقد جرى العرف في البلاد الإسلامية أن يقوم بها الفقراء يكتسبون عن طريقها ، ولم تكن في أيدي المُلاّك يفرضون استخدامها على الفلاحين .

ـ فلا سخرة في نظام الإسلام ، وإنما علاقة مبنية على الاحترام المتبادل ، والمساواة الكاملة في الكرامة الإنسانية ، وأما « الالتزامات » التي كان يقوم بها الشريف في أوربة من حماية فلاحين ورعايتهم ، كان يتقاضى ثمنها هذه السخرة

الظالمة والاستعباد المذل ، فقد كان الأغنيـاء في الإسلام يقومون بها تطوعـاً بـدون مقابل ، لأنهم يأخذون مقابلها التقرب إلى الله ووفاء حقه في العبادة ، وهـذا فـارق حاسم بين النظام الذي يقوم على عقيدة ، والنظام الذي يقوم خواء منها .



الإقطاع

هذه الصورة حاربها الإسلام صراحة :

- يقول الله عز وجل : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ ١٧ / ١٠ .
- وقول رسول الله ﷺ « الخلق كلهم سواسية كأسنان المشط » .
- وقول عمر رضي الله عنه عندما أعلن حقوق الإنسان « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ؟

٣ ـ أمـا تحـديـد السيـد للقـدر « الممنـوح » من الأرض ، وتحـديـده كـذلـك للخـدمـات المطلوبـة من الفلاح . فلم يكن لهما وجود في الإسـلام الـذي يقـوم على أساس آخر غير سيادة المالك وتبعية الفلاح . فالقدر الذي يستـأجره الفلاح تحـدده مقدرته المالية ورغبته الحرة ، وهنـا تكون « الخـدمـة » من الفلاح وإليـه ، أمـا في المزارعة فمقدار الأرض التي يزرعها الفلاح يتوقف على مقدرته البـدنيـة ، والخـدمـة المطلوبة هي ماتحتاج إليه هذه الأرض التي تعتبر مشتركة بين الفلاح والمـالـك حتى

تؤتي ثمارها ، أما بقية أرض المالك التي لم تـدخل في المزارعـة فلا شـأن للفلاح بهـا ، وهو ليس مُكَلَّفاً بأية خدمة فيها .

٤ ـ أما أمور الحكم والقضاء في نظـام الإسلام ، فهي بيـد دولـة مركزيـة ذات قانون عـام ، تشرف على تنفيـذه بتعيين قضـاة مع حـاكم يقوم بتنفيـذ الشريعـة في حدود اختصاصه ، وليس لأحد عليه من سلطان إلا حين يخطئ أو يسيئ ـ لذلك ليس لمالك الأرض مشيئة خاصة في قوانين يفرضهـا على الفلاحين ، بل مشيئـة الله وقانونه الذي وضعـه لجميع النـاس هو مـا يطبق عليهم بـالسويـة وبصورة واحـدة ، لابين الفلاح وصاحب الأرض فقط وكلاهمـا من الأحرار ، بل بين العبـد والسيـد ـ في الحالة الاستثنائية التي شرع الإسلام في إنهائها منذ وجوده ، وقد انتهت .

ولا شك أنه حدثت حالات قليلة وشاذة قضى فيها قضاة بمـا يخـالف ضميرهم ، وما يخـالف القـانون إرضـاء لصـاحب الأرض أو لصـاحب السلطـان ، ولكن هـذه الأمثلة لايجوز أن تؤخذ على أنها القاعدة السَّارية ، ونهمل تلك الأمثلـة الرائعـة في تاريخ البشرية كلها حين كان القاضي يحكم للرجل الفقير الـذي لاحول ولا قوة ، لا ضد صاحب الأرض ، ولا ضد الوالي ، ولا ضد واحـد من الوزراء بل ضـد الخليفـة نفسه صاحب الأمر كله والسلطـان ، ثم لايَعزَل القـاضي ولا ينتقم السلطـان ، لأن سيادة الشرع وسلطته كانت فوق كل سلطة .

٥ ـ ولم تحدث حركـة فرار بين الفلاحين كما حـدث في أوربـة ، لأن الفلاحين كانوا أحراراً في الانتقـال لا من مزرعـة إلى مزرعـة فحسب ، بـل من قطر إلى قطر داخل العالم الإسلامي ، ولا يحبسهم عن حريـة التنقل شيء إلا رغبتهم الخـاصـة في البقاء في بقعة معينة من الأرض .

وأمـا شراء الفلاحين لحريتهم بـالمـال فـإنـه لم يحـدث بطبيعـة الحـال في العـالم الإسلامي لأنهم كانوا أحراراً بالفعل ، فلا حاجة بهم إلى شراء الحرية .

هذا ويشتمل العالم الإسلامي على عدد كبير جداً من الملكيات الصغيرة التي يستقل بها أصحابها ويكفون بها حاجتهم ، إلى جانب العمل في التجارة والصناعة التي كانت معروفة في ذلك الحين . مما ينفي نفياً باتاً صورة الإقطاع المظلمة الحالكة التي خيمت على أوروبة في العصور الوسطى ، وظلت تنشر معها الظلام الفكري والجهالة الروحية ، حتى أنقذها منها اتصالها بالعالم الإسلامي في الحروب الصليبية أو عن طريق الأندلس ، فأقامت من غشيتها في عصر النهضة ، وبدأت تخرج من الظلمات إلى النور .

القاضي : ولكن وجد الإقطاع حقاً في البلاد الإسلامية في العصر الحديث !

الإسلام : أجل في أواخر الحكم العثماني حين جفت ينابيع العقيدة في النفوس ، وتوالى على الحكم أقوامٌ لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، وزاد الأمر سوءاً حين طغت الروح الأوروبية المادية الجاحدة بتأثير الاحتلال ، فأفسدت روح البرّ والتكافل في المجتمع ، وحولتها إلى استغلال بشع من الأغنياء ، وذل وعبودية للفقراء ، وهذا ليس من الإسلام ، وليس الإسلام مسؤولاً عنه ، لأنه لا يكون مسؤولاً إلاّ حين يحكم . وتسود شرعته .

☆ ☆ ☆

☆ الاستفهام السابع :

القاضي : وما تقول في الرأسمالية وهل توافق عليها ؟

الإسلام : لم تنشأ الرأسمالية في العالم الإسلامي ، وإنما انتقلت إليه وهو مغلوب على أمره ، واقع في قبضة الأوروبيين ، غارق في الفقر والجهل والمرض والتأخر[٢٤].

---

(٢٤) راجع « شبهات حول الإسلام » ص : ٦٦ ـ ٧٥ .

فظن الناس أن الإسلام في نظمه وتشريعاته لا يعارضها أو يقف دونها . لأنه يبيح الملكية الفردية .

كان يكفي للرد على هؤلاء أن نذكر بديهية صغيرة يعرفها كل من درس الاقتصاد ، وهي أن الرأسمالية لا يمكن أن تقوم وتأخذ صورتها الواسعة التي عليها اليوم بغير الربا والاحتكار ، والإسلام قد حرمهما كليهما قبل نشوء الرأسمالية بأكثر من ألف وأربعمائة عام ... ولكن لا نريد أن نتعجل الرد .

نشأت الرأسمالية بعد اختراع الآلة التي أدت إلى تكديس الثروات في أيدي أصحاب رؤوس الأموال ، وتضاؤلها النسبي المتزايد في أيدي العمال ، وصار صاحب رأس المال يشغل العامل لإنتاج أكبر قدر من المنتجات ، ويعطيه أجراً ضئيلاً لا يفي بالحياة الكريمة لجمهور العمال - الكادحين - مستخلصاً لنفسه « فائِضَ القيمة » في صورة أرباح فاحشة ، يعيش بها حياة ترف فاجرة لا تقف عند حد .

هذا فضلاً عن أن ضآلة أجر العامل تمنعه من استهلاك كل إنتاج المصانع ، لأنه لو أخذ من الأجر ما يكفي لاستهلاك الناتج كله أو معظمه لانتفى ربح رأس المال أو لتضاءل إلى أقصى حد . وهذا ما لا تسمح به الرأسمالية لأنها تنتج للربح لا للاستهلاك .. ومن هنا تتكدس البضائع سنة بعد سنة ، وتبحث الدول الرأسمالية عن أسواق جديدة لتصريف بضائعها ، فينشأ الاستعمار ، وما يتلوه من تطاحن وتنافس وتزاحم على الأسواق وعلى موارد المواد الخام ينتهي بالحروب المدمرة .

أما الإسلام ففيه مهمة دائمة هي نشر الخير والرفاه في ربوع الأرض ، لذلك فهو لا يقف في سبيل خير الفرد ، ومع ذلك فهو لم يترك الفرد وشأنه بدون تشريع ينظم علاقته بالمجتمع ، ويمنع الاستغلال سواء كان ناشئاً عن نية خبيثة عند صاحب رأس المال ، أو كان من طبيعة رأس المال ذاته دون دخل صاحبه فيه .

كما ذهب بعض فقهاء المذهب المالكي إلى حد اعتبار العامل شريكاً في قسم من

الربح مع صاحب رأس المال ، على أن يدفع صاحب المال جميع التكاليف ، ويستقل العامل بعمل يده ، فجعل جهد صاحب المال في إنتاج المال مقارباً لجهد العامل في صناعة الإنتاج ، وقارب بين نصيبهما في الربح على هذا الأساس . وفي هذا المبدأ يبدو حرص الإسلام العجيب على العدالة ، وسبقه بالتفكير فيها والعمل عليها .

وبنيت الرأسمالية على الديون التي كانت سبباً في إنشاء نظام المصارف التي تنظم العمليات الرأسمالية الكبرى ، وتقرضها ما تحتاج إليه من الأموال لتشغيلها في مقابل ما تأخذه من « الفوائد » والأرباح . فهذه المصارف قائمة على الربا ، وهو محرم تحريماً صريحاً في الإسلام .

كما تحطمت الشركات الصغيرة ، أو اندمجت لتأسيس شركات كبيرة ، وهذا أو ذاك يؤديان حتماً إلى الاحتكار في نهاية المطاف . **والاحتكار حرام في الإسلام** بنص أحاديث الرسول القاطعة بشأنه : « **من احتكر فهو خاطئ** »[٢٥] .

وعلى هذا فلا يمكن للرأسمالية أن تتطور ـ لو نشأت في أحضان الإسلام ـ إلى صورتها الفاحشة التي وصلت إليها اليوم والتي تؤدي إلى سوء الاستغلال ، والاستعمار والحروب . وإذن فكيف كان يكتب لها أن تسير ؟ وهل تقف عند حد الصناعات البسيطة التي كانت في أول النهضة العلمية ، أم تتخذ طريقاً آخر يكون فيه الخير ولا يقع الشر المرهوب ؟

أما وقف تقدم الصناعة فهو عملية لا يشير بها الإسلام ، فلا بد من الاختراعات وتقدمها ، وأما تطور علاقات الإنتاج بصورة أخرى على غير ما حدث في أوروبة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، فهذا هو الذي كان يمكن أن يكون بتنمية التشريعات الاقتصادية وفق نظريات الإسلام الخاصة ، كما

---

(٢٥) رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

سبق بمسألة نصف الربح في موضوع الأجور . فكان الإسلام بهذا يتفادى أمرين في وقت واحد :

يتفادى اللجوء إلى الربا والاحتكار اللذين تحرمها شريعته .

ويتفادى الظلم الشنيع الذي يقع على العمال حين يتركون فريسة لأصحاب رؤوس الأموال يستغلونهم أبشع استغلال ، ويمتصون دماءهم ، ثم يتركونهم في حمأة الفقر المدقع والحياة المذلة لكبرياء الإنسان ، وهو أمر لا يقره الإسلام .

إن الإسلام الذي سبق البشرية في حل مسألة الرّق ومنع الإقطاع مدفوعاً بفكرته الذاتية ، منع أسس الرأسمالية : **الربا والاحتكار والربح الفاحش وحمى العامل وشاركه الربح .**

ولا يقف الإسلام عاجزاً أمام مشكلة تضخم الأموال في يد فئة قليلة من الناس ، وبقاء المجموع في حالة من الشظف والحرمان ، فهذا مخالف لمبادئه الصريحة التي تحتم توزيع المال بين الجميع ، ﴿ كَيْلا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ [الحشر : ٧] على أن مجموعة الأنظمة الإسلامية في ذاتها **تمنع ابتداء مثل هذا التضخم** ، فنظام الإرث يُفَتِّتُ الثروة على رأس كل جيل ، نظام الزكاة ، نظام التكافل(٢٦) وتحريم كنز المال ، وتحريم الربا ... ثم طبيعة المحبة بين الأفراد في المجتمع الإسلامي هي في حد ذاتها تكافل عام ...

والإسلام لا يكتفي بالتشريعات الاقتصادية ، بل يلجأ إلى الدعوة الخلقية الروحية ، ولا يوجه دعوته للروح على أنها منفصلة عن نظامه الاقتصادي ، لا ... إنها ممتزجة بطريقته الفريدة بين تهذيب الروح وتنظيم الاقتصاد في المجتمع .

---

(٢٦) راجع كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » ص : ١٣٦ ، للتوسع ، وستجد حديثاً شريفاً رواه الترمذي يقول : « إن في المال حقاً سوى الزكاة » . وراجع أيضاً كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » وكتاب « المذاهب الهدامة أفيون الشعوب » ص ٣٩ وما بعدها .

والدعوة الخلقية **تحرم الترف وتحاربه** ، وهل نشأ الترف البغيض والمتاع الحسي الغليظ إلا من تضخم الإنتاج في يد فئة قليلة من الناس .

وتحرم ظلم الأجير ، وهل ينشأ تضخم الأرباح إلا من ظلم الأجراء ؟

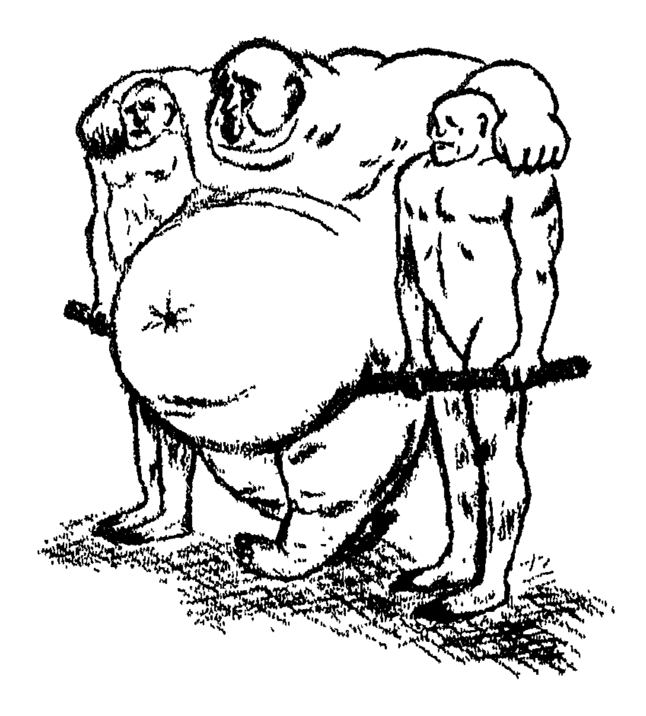
وتدعو إلى الإنفاق في سبيل الله ... وهل ينشأ الفقر الذي يعيش فيه أغلب الشعب إلا لأن الأغنياء ينفقون أموالهم على أنفسهم ، وأنفسهم فحسب ؟

الدعوة الروحية تربط الإنسان بالله ، وتزهده في كل مغانم الدنيا وملذاتها في سبيل مرضاة الله . وحباً في ثواب الآخرة ، فهل يتكالب الإنسان على تكديس المال وبينه وبين الله رابطة ؟!

مهمة الدعوة الخلقية والروحية أن تمهد للتشريعات الاقتصادية التي تقف في سبيل الرأسمالية ، حتى إذا جاءت هذه التشريعات لم تكن طاعتها ناشئة من خوف القانون ، وإنما تنبعث هذه الطاعة عن رغبة داخل الضمير .

والرأسمالية التي عرفت أخيراً في العالم الإسلامي ، ليست من الإسلام ، والإسلام ليس مسؤولاً عنها ، لأن الناس لا يحكّمون شرعة الإسلام في حياتهم ، لا في قليل ولا كثير .

☆ ☆ ☆



الرأسمالية

هذا التضخم الرأسمالي حاربه الإسلام بوضوح في الآية الكريمة :

● ﴿ كَيْلاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِياءِ مِنْكُمْ ﴾ ٥٩ / ٧ .

● « ويقول رسول الله ﷺ : من احتكر فهو خاطئ » .

● وبتحريم الربا وأكل جهد العامل .

● وبالميراث : حيث تتجزأ الثروة على رأس كل جيل .

☆ الاستفهام الثامن :

القاضي : ألا ترى معي ـ أخيراً ـ أن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين ؟ فلقد زهدهم بالحياة ، وعطّل العقل ، فسبب جموداً وتأخُّراً في حياة المسلمين ، فلو تركوه لانطلقوا ، فإنه سبب تواكلهم ، وعقبة تقدمهم ؟!

الإسلام : أتعجّب أيها القاضي الحكيم أن أُتَّهم بأنني عقبة ... سبب الجمود ... مُعطّل للعقل ... مزهّد بالحياة ... بينما كنت سبباً وحافزاً للعرب الأولين الذين

انطلقوا يحملون رسـالـة الحيـاة شرقـاً وغربـاً . إنني أرى جمـود المسلمين بسبب ترك الإسلام وإعراضهم عنه وانصرافهم إلى غيره .

في الإسلام تكمن معاني القوة والنهوض ، والنضال والعمل ، فتركوه واستسلموا لسبات طويل ـ أنا منه براء ـ ووجد أعداؤهم في سباتهم فرصة مواتية لإطالـة أمـد غفوتهم ، ومضاعفة شدته كي يخلو لهم الميدان .

الإسلام براء من الاتكاليـة ـ أو التواكليـة ـ التي جردت المسلمين من كل معـاني القوة الصالحـة للحيـاة ، فهـذا القرآن الكريم يبين أن العزم أولاً ثم التواكل ثـانيـاً : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . فالعزم والتصميم والإرادة هي العدة العمليـة ، ومن بعـدهـا التوكل الذي هو عمل من أعمال القلب .

أما الزهد : فقد نبّه القرآن الكريم المسلمين إلى طيبات الدنيـا وآجل الثواب في الآخرة ، فتركوا الدنيـا ومـا خلق الله لهم فيهـا ، وآمنوا بـأنهـا « متـاع الغرور » ، فغفلوا عن حكمة الله في تهوين شأن الدنيا ، حتى لا يتهالك عليها متهـالـك فينسى آخرته .

فليس من الإسلام الانقطاع للعبادة ، وإهانة البدن وإرهاقه ، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فقد قام ولم ينم ، قام إلى الـدعوة ، إلى الفتوح ، إلى ميـادين الحياة في مختلف الشؤون . فمن ينتسب إليّ ويحرم طيبات الله التي خلقهـا لعبـاده ، فهو جاهل وكأنه لم يتل قوله تعالى :

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ﴾ [البقرة : ١٦٨] .
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ﴾ [المـائـدة : ٨٧] .

- ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

- ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

- ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] .

الجمود : علّة طارئة على المسلمين ... لقد انطلق الإسلام يسع العالم بأسره ، وهو اليوم يضيق بهم حتى كادوا ليتنازلون عنه ـ أو تنازلوا ـ وأصبح الدين : عبادات وتقشفاً وزهداً. وإذا أقام فيهم فعاد يقول هيّا إلى العمل ، قالوا : ما لنا وللدنيا ؟!...

إن الإسلام وإن كان لا يتحقق إلا بالعبادات ، غير أنه لا يقتصر عليها ، بل يدعو معها إلى العمل ، وأما الذين يعطلون العمل ويقصرون إسلامهم على العبادات الشكلية بحجة الزهد في الدنيا ، فإنهم يحمّلون الإسلام كسلهم وجمودهم . وما زهدهم زهد ، ولكنهم تربت أيديهم فتزهّدوا . وما الزهد الحقيقي إلا زهد الصّدّيق وعمر والصحابة ، فقد ملكوا الدنيا ، ولكنهم رغبوا عنها وزهدوا فيها ، وما مال قلبهم إليها طرفة عين ، فأولئك زهاد عاملون ، وأما هؤلاء الذين نراهم فكأنهم لشدة جمودهم وتواكلهم نسوا قوله تعالى :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١١] .

ـ هـذا ... ومـا أكثر الآيـات التي تخـاطب المسلمين أن سيروا في الأرض وانظروا[٢٧] ...

ولقد طال أمد هذا الجمود بسبب ثلاثة أصناف من العلماء :

١ ـ صنف رأى الـدين حيـاة القلب والروح فقـط ، فـأغفـل ميـادين الحيـاة الأخرى لغير المسلمين وتنسّك ، فـالتصوف ليس هو الإسلام كلـه ، إنـه حـظ الروح والقلب ... وتبقى هناك جوانب أخرى للحياة .

٢ ـ وصنف متزمت تمسـك بظـاهر النصـوص الفقهيـة ولم يسبر أغـوارهـا ، لا يعرف كيف يعرض الدين في عصرنا . فالفرد في هذا النصف « قاضٍ » ، يصـدر الأحكام على الناس : هذا مؤمن ، هذا صالح ، هذا فاسق ، هذا كافر ، هذا زنديق مرتد ... وفي ذلك يكمن الخطر كل الخطر الـذي يؤدي إلى نفور بعض الشبـاب من الدين ، وعلى الرغم من إخلاص هذا الفريق من العلماء ، فإنهم يحتـاجون إلى حكمـة ومعرفة فقه أسلوب الدعوة إلى الله ، لأن العالم يجب أن يكون طبيباً لا قاضياً .

٣ ـ وصنف ثـالث لا يعرف البنـاء ولكنـه يحسن النقـد ، فيهـدم مـا بنـاه المصلحون المنقذون الكاملون سواء عن قصد ، أو عن جهل وحسن نية !!.

أما عامة الناس ... فقد تاهوا وصعب عليهم تناول الشريعة حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول إلى علمها ، فلا ترى العارف بها من هؤلاء النـاس إلا قليلاً ، وهل يتوقع من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ؟

وأهم أسباب الجمود تلك المدارس التبشيرية التي نفثت سمومها وزهدتنا بالعقيدة الإسلامية ، وأوحت للشباب أن الإسلام قد انتهى زمانه ، فلا يتخرج منها الشباب إلا وقد أضحى دعاية سوء وحقد ضد إسلامه .

---

(٢٧) كما في الآيات : (١٣٧/٣ ـ ٣٦/١٦ ـ ١١/٦ ـ ٦٩/٢٧ ـ ٢٠/٢٩ ـ ٤٢/٢٠ ...) .

ولقد سألني بعض الشباب يوماً : كيف السبيل إلى محو هذا التأخر والجمود الذي يلازم أمتنا منذ فترة طويلة ؟

قلت : وأنت ما رأيك ؟

قال : ـ والأسى يحز في نفسه ـ لابدّ من اضمحلال وفناء هذا الجيل ، ومجيء جيل جديد .

قلت : ولم هذا التشاؤم واليأس ؟ أليس في أمتنا كوامن تبعث على العمل والبحث العلمي والوحدة والمعرفة ...

قال : وكيف ذاك ؟

قلت : ألم تتبوأ أمتنا مركز الصدارة في ميدان العلوم أيام الرشيد والمأمون مثلاً ؟

قال : بلى .

قلت : ألا تحب أن تكون الآن مثلهم ، تتبوأ مركز الصدارة في هذا العصر ؟

قال : نعم ، نحب أن نبحث ، نتقدم ، نتوحد ، نخترع ...

قلت : ما دور العرب في ميزان الحضارة قبل الإسلام ؟ هل بحثوا ، هل اخترعوا ، هل تقدموا علوما وحضارة ؟

قال : لا .

قلت : فما الذي جعلهم يبحثون ويفكرون ، ويترجمون الكتب العلمية ، ويقيمون دور العلم والمكتبات ؟ ...

قال : « بعد تردد قصير » لاشك إنه الإسلام .

قلت : وبرجوعنا إليه صحيحاً نرجع إلى التقدم العلمي والحضاري والفكري

وإلى الوحدة والمحبة والألفة ...

فإن أردنا الوحدة ، فالإسلام دين الوحدة والأمة الواحدة : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] . ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون : ٥٢] .

وإن أردنا التقدم العلمي ، فحسبنا عشر الآيات التي تتضمن الدعوة الصريحة إلى العلم والمعرفة ، وإعمال الفكر ، والنظر في شؤون الكون والإنسان والحياة ... كما مرَّ معنا في الجلسة التي شرحنا بها موقف الإسلام من العمل ، والتي استخلصت منها تلك القاعدة التي اتخذها المسلمون ألا وهي : « جرب واجتهد ولاحظ تكن عارفاً » .

وأين من هذه القاعدة ما ساد عند الأوروبيين إلى ما بعد القرن العاشر للميلاد ؟ فقد سادت عندهم قاعدة « اقرأ في الكتب وكرر ما يقوله الأساتذة تكن عالماً » .

وما من شك أن تمسك المسلمين بتعاليم القرآن الكريم هو الذي أخذ بيدهم فتصدَّروا ذروة العلم . فإذا بهم وقد جمعوا العلوم المختلفة ونسقوها ورتبوها ، ثم أضافوا إليها ، وجددوا فيها واخترعوا .

وليس بعيداً عن الأذهان أن ألبرت مَدين لابن سينا ، وأن توما الإكويني مدين في أسس فلسفته لابن رشد[٢٨] .

وما نظن أحداً يمكنه أن ينكر أن علوم الطب والفلك والطبيعيات والاجتماع في أوروبة إنما أُسِّسَت على علم عربي إسلامي ، كان نتيجة من نتائج تفهم حقيقة الإسلام .

---

(٢٨) باعتراف الفيلسوف الفرنسي « رينان » .

وهكـذا فـإننـا نقرر أن الإسـلام مـا كان أبـداً دين عبــادة وحسب ، ولا دين تقشف وزهـد ، كما أنـه لم يكن أبــداً أداة تــأخر وضعف ، وإنمــا هـو دين الثـورة المستمرة ، والنهضة والسعي للتقدم في شتى ميادين العلوم .

ولعلي ألمح في وجهـك ـ أيهـا القـاضي ـ سؤالا عن السبيـل للـوصـول إلى هـذا الدين بحقيقته لتغيير حالة المجتمع الإسلامي الحالي ؟

وأين « الحلقة المفقودة » بين الإسلام والمسلمين ؟

لن يكون الجواب بعيدا عما قررناه في جلساتنا السابقة ، وذلك أننا نحتـاج إلى تلك الفئة من العلماء الذين يدركون حقيقـة الإسلام ودعوتـه . والـذين يملـك كل منهم عقل الفيلسوف وقلب الناسك . فإذا به يجمع الفكر النير والقلب المزكّى .

إننا نحتاج إلى ذلك العـالم الـذي يستطيع بعقلـه وحكمتـه أن يغرس الحكمـة في أفكار الناس وأعمالهم ، وإلى ذلـك العـالم الـذي يستطيع بروحـه الصـافيـة أن يزكي قلوب الناس وأرواحهم .

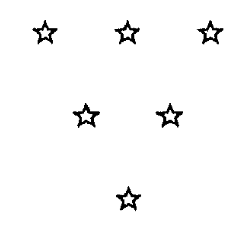
نحن بشوق إلى هـذا العـالم الـذي فهم حقيقـةَ الإسـلام ، وفهم طبيعـةَ العصر ، فأدرك حكمة الإسلام في شؤون العصر . وما أظن أن ديـار المسلمين خـاليـة ، ولكن المستشرقين زرعوا فينا الزهد بمثل هذا العالم والإعراض عنـه ، فـإذا بنـا نخـاف حتى من صحبته ، ونشك في كل ما يصدر عنه .

وحين نتخلص من تلـك العقـد النفسيـة التي غرسهـا هـؤلاء المستشرقـون نجـد « الحلقة المفقودة » بين الإسلام والمسلمين ، حينـذاك سيشع نور إلهي يضيء طريق السعـادة للبشر جميعـاً ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْـدُ وَيَوْمَئِـذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ، [الروم : ٤ و٥] .

قاطع النائبُ العام الإسلامَ موجهاً حديثَه إلى القـاضي ، ومشيراً إلى الإسـلام المتّهم بعصـاً في يـده يمسـك بطرفهـا : سيـادة القــاضي ، إن في طرف هذا العصا مجرم هزّ الدنيا وشغلها وآن للبشرية أن تدينه .

وأطرق القـاضي ـ أطرق العقـل ـ ليسترجـع ببصيرتـه أحكامــه في عشرين جلسة . ثم نظر إلى النائب العام وقال له :

حقاً إن في طرف هـذا العصـا مجرم آن لـه أن يُـدَان ، ولكنـه الطرف الذي في يدك .





خاتمة

☆ «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ » . [الزمر : ١٨]

مشاهد مشوهة في رؤوس المستشرقين ومن والاهم ، أو لف لفهم من شبابنا : كانتشار الإسلام بالسيف والقهر والغلبة ، وفرضه على الشعوب فرضاً . أو تعدد زوجات النبي ﷺ ، وأن القرآن الكريم من تأليف محمد أو من تعليم الكهان له ، أو تشويه الإسلام بزعم تناقض في القرآنِ واختلاق حكاية الغرانيق ... أو إظهار الإسلام بالظالم للمرأة ، الهاضم لحقوقها غير المنصف لميراثها ، المهدد لها بالطلاق .. إلى غير ذلك من شُبَهٍ أتينا على ذكرها .

والآن ما أحوج الإسلام إلى قاضٍ منصف ، وحسبي بعقلك أيها القارئ الكريم قاضياً يناقش هذه التهم ناظرا بموضوعية في حقيقتها كما بيّنها الإسلام .

والإنسان المنطقي الكامل من يقنع بشيء بعد دراسته وتمحيصه ، ثم يقوم لينقله إلى كل مجلس هو فيه . فلا يكفي أن أقتنع أنا وحدي ، بل عليَّ أن أبصِّر الآخرين بمواضع جهلهم . فإن أنصف القارئ الإسلام واقتنع بصفائِهِ ووضوحه ، وصلاحه للعصر ، قام يوضح السبيل للآخرين ، ولا يسكت عن حق توضح له .

ونحن في كتابنا هذا لم نبيّن جمال وصفاء وعذوبة الإسلام في نواحٍ ليست من اختصاص هذا الكتاب ، لأننا لو أردنا ذلك الجمال التشريعي والخلقي والفكري والاجتماعي ... لا حتجنا إلى مجلدات ووقت غير يسير كي نفي الموضوع حقه .

وفي رأيي : إن الانضواء تحت لواء الإسلام نعمة ، وهـذه النعمـة لا يعرفهـا إلا أولئك الذين عاشوها وتذوقوا طعمها ، ونحن قد منّ الله علينـا بهـذه النعمـة ونرجو لشبـابنـا الـذين فضـل الله عليهم بـالإسـلام ولكنهم أبـوا ـ عـامـدين أو جاهلين ـ فابتعدوا عنها ، أن يقطفوا ثمار هـذه النعمـة ، إننـا نرجو أن يردهم هـذا الكتاب بخطوات ثابتة وعلمية إلى عقيدتهم السليمة النـاصعـة ، وأن يسلكوا الطريق الصحيحة ، والصراط السَّوِي ، الذي سينجيهم من متاهات الفكر والشقاء في الدنيـا قبل الدارِ الآخرة .

الإسلام يواجه مواقف متشابهـة ، وأزمـات واحـدة ، وتجـارب متماثلـة على مرّ العصور والأزمان ، إنـه يواجـه البغي والحقـد الأعمى والهجوم المستمر ، فـأعـداؤنـا وأعداء ديننا من المستشرقين والمبشرين يقفون لنا بالمرصاد ، إنهم يحسبون علينا كل حركة وسكنة لكي يزرعوا في أفكار هذا النشئ الشَّكَّ بدينه وعقيـدتـه . وربمـا يجـد هؤلاء آذانا صاغية بين ظهرانينا ، وذلـك عـائـد بـالطبع إلى جهل شبـابنـا بـدينهم وعقيدتهم ، وبالتالي فإن هذا النشء يلتهي بمنـاقشـات جـانبيـة لا نصيب لهـا من الصحة ، ويبقى الهدف منها التشكيك لإضعـاف عقيـدة الأُمـة كي تسهل السيطرة عليها .

فلئن مكننـا هـؤلاء المستشرقين من المضي في طريقتهم ودعـوتهم للقضـاء على عقيدتنا ، فإنهم سيمهدون السبيل لحكوماتهم لكي تضربنا تلك الضربة القاصمة التي لن نستطيع بعدها أن نقف على أقدامنا .

ووفاء منا لديننا وعقيدتنا ولأمتنا العربيـة ، فـإننـا قمنـا بتفنيـد مزاعم هؤلاء المستشرقين المتعصبين . وإننا نرى أن هؤلاء المستشرقين ومن تقبل فكرتهم ، وسلك سبيلهم يرمون التهم على عواهنها بلا تفكر أو ثاقب نظر .

وإنني لأذهب إلى أبعد من هذا فأقول : إنه لو قدر لإنسـان أن يستشف نفوس هؤلاء ، وأن يسبر أعماق عقولهم وأفئدتهم فإنه سيخرج لا محـالـة بنتيجـة مـذهلـة ،

وهي أن هؤلاء على يقين أكيد بأن هذا الدين الذي يعادونه يصلح لكل زمان ومكان . لأنه ثبت منذ مئات السنين لشبهاتهم وهجومهم المستمر عبر الأجيال ، فكأنما هم أدركوا في نفوسهم أنهم يحطمون طوداً راسخاً بمطارق من زجاج رقيق .

ولكن أنى لهم أن يعترفوا بفضل هذا الدين ، وقد أعماهم الحقد ، لأنهم رأوه يخالف عقائدهم ، فهم باعترافهم سيوجهون أنظار مواطنيهم إلى هذا الدّين ، وبالتالي يخافون عليهم من أن يجرفهم تيار الحق ، وتيار النور ، ليوصلهم إلى شاطئ السلامة . إنهم يركبون رؤوسهم عمداً ، ويخالفون فكرهم قصداً ، فيحاولون تأليب الناس على الإسلام ، بإثارة الشبهات حوله ، وإلصاق التهم به .

وإنني لأدعو شبابنا إلى البحث عن رائد يرود لهم الطريق ، ويبدد أوهامهم فيشفي صدورهم .

وإلى هؤلاء الشباب أذكر ما يلي :

كان من أواخر جهود المستشرقين والمبشرين ، ذلك المؤتمر الذي عقد في أمريكة . وإن مؤسسة فرانكلين أصدرت ملخصاً للمقالات التي أُلقيت في المؤتمر ، فصدر كتاب بذلك عنوانه : « الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة » .

واشترك فيه قسس محترفون للتبشير مثل : ميلر بروزاست أستاذ الفقه الديني الإنجيلي في جامعة بيل ، والمبشر و . هارولد سمث . كما اشترك بالمؤتمر الدكتور نبيه فارس رئيس القسم العربي بإدارة المخابرات الحربية بمدينة « يورك » .

خرج الكتاب المذكور وفيه الدّسّم الذي يخفي ما حشي به المؤتمر من سموم ، لقد خالف الكتاب الشريعة مخالفة صريحة ، عندما انتحل الأعذار والمبررات ، واخترع الحيل ، لتخريج مخالفات عديدة واضحة ، خاصة عند حديثه عن الحدود والربا .

لقد أراد المؤتمر ـ أَمْرَكَةَ الإسلام ـ وتطوير الشريعة ، لتصبح أداة لتبرير القيم الغربية ، بدليل عقد مؤتمر إسلامي بإشراف أمريكة ، وتوجيه المبشرين والمخابرات الامريكية .

والجدير بالذكر ، أن الدكتور محمد محمد حسين قد ردّ على ما جاء في هذا المؤتمر ، وفند آراء المشتركين فيه جميعاً ، وذلك في كتاب : « حصوننا مهددة من داخلها » .

فعجباً لشبابنا الذين انجرفوا وراء أفكار ودعايات أعدائنا وكأنهم نسوا قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُم فَإِنَّهُ مِنْهُم ، إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

والحمد لله رب العالمين

☆ ☆ ☆



المراجع

١ ـ الإسلام في القرن العشرين — عباس محمود العقاد
٢ ـ الإسلام على مفترق الطرق — ليوبولد فايس (محمد أسد)
٣ ـ الإسلام في الحوضين الشرقي والغربي — د . عمر فروخ
٤ ـ الإسلام دين الفطرة والحرية — عبد العزيز جاويش
٥ ـ الإسلام بين العلم والمدنية — الإمام محمد عبده
٦ ـ الإسلام بين الانصاف والجحود — محمد عبد الغني حسن
٧ ـ الإسلام المفترى عليه — محمد الغزالي
٨ ـ الإسلام في نظر الغرب — ترجمة الدكتور إسحاق موسى الحسيني
٩ ـ الإسلام والمشكلة الجنسية — مصطفى عبد الواحد
١٠ ـ الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية — محمد عبده
١١ ـ الرسول القائد — محمود شيت خطاب
١٢ ـ الرسول العربي وفن الحرب — العماد مصطفى طلاس
١٣ ـ الرسول في القرآن — محمود بن الشريف
١٤ ـ الرسول — بودلي ، ترجمة السحار
١٥ ـ الأبطال — توماس كارليل
١٦ ـ الدعوة إلى الإسلام — توماس أرنولد
١٧ ـ الإنسان بين المادية والإسلام — محمد قطب
١٨ ـ الطب عند العرب — د . أحمد شوكت الشطي
١٩ ـ المذاهب الهدامة أفيون الشعوب — المرحوم العقاد
٢٠ ـ السلام العالمي والإسلام — سيد قطب

٢١ ـ الاتجاهات الحديثة في الإسلام	د . جيب
٢٢ ـ الإمامة والسياسة	ابن قتيبة
٢٣ ـ العدالة الاجتماعية	عبد الرحمن نصير
٢٤ ـ الشرق والإسلام في أدب جوته	عبد الرحمن صوفي
٢٥ ـ العرب والحضارة الأوربية	محمد مفيد الشوباشي
٢٦ ـ التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي .	محمد يوسف موسى
٢٧ ـ الحجاب	أبو الأعلى المودودي
٢٨ ـ الكامل في التاريخ	لابن الأثير الجزري
٢٩ ـ المسيحية في الإسلام	الإيغومانس ابراهيم لوقا
٣٠ ـ المأمون الخليفة العالم	د . محمد مصطفى هدارة
٣١ ـ الوحي الإلهي	د . الحسيني عبد المجيد هاشم
٣٢ ـ الحضارة العربية	د . شكري محمد عباد
٣٣ ـ التفكير فريضة إسلامية	للمرحوم العقاد
٣٤ ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام	سيد قطب
٣٥ ـ الحركة الصليبية	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٣٦ ـ التبشير والاستعمار	الدكتورين : خالدي ـ وفروخ
٣٧ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة	لابن الأثير
٣٨ ـ الشرع الدولي في الإسلام	د . نجيب الارمنازي
٣٩ ـ القومية في الإسلام	محمد أحمد باشميل
٤٠ ـ أصول الدين	د . محمد عجاج الخطيب
٤١ ـ المرأة في الإسلام	كمال أحمد عون
٤٢ ـ الصعلكة والفتوة في الإسلام	د . أحمد أمين
٤٣ ـ إعجاز القرآن	للباقلاني

٤٤ ـ الديموقراطية في الإسلام	للمرحوم العقاد
٤٥ ـ الزواج في الإسلام	أسعد لطفي
٤٦ ـ الغزالي	كارادي فو ـ ترجمة : عادل زعيتر
٤٧ ـ المقارنات التشريعية	د . سيد عبد الله حسين
٤٨ ـ العواصم من القواصم	أبو بكر بن العربي
٤٩ ـ أصحاب محمد	عبد الحليم عباس
٥٠ ـ التفسير والمفسرون	محمد حسين الذهبي
٥١ ـ أحكام القرآن	أبو بكر محمد بن عبد الله (ابن عربي)
٥٢ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية	مصطفى صادق الرافعي
٥٣ ـ القرآن والمجتمع الحديث	عبد الرزاق نوفل
٥٤ ـ الظاهرة القرآنية	مالك بن نبي ، ترجمة : عبد الصبور شاهين
٥٥ ـ التفسير الحديث	محمد عزة دروزة
٥٦ ـ الإنسان بين العلم والدين	شوقي أبو خليل
٥٧ ـ البحث عن الدين الحقيقي	كولي
٥٨ ـ التسامح والتعصب	محمد الغزالي
٥٩ ـ الملل والنحل	الشهرستاني
٦٠ ـ العرب في اسبانية	ستانلي لان بول
٦١ ـ إحياء علوم الدين	الغزالي
٦٢ ـ النظم الإسلامية	د . حسن ، و د . علي إبراهيم حسن
٦٣ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية	كارل بروكلمان
٦٤ ـ تاريخ أوربة في العصور الوسطى	هـ . ا . ل . فيشر
٦٥ ـ تاريخ الشرق الأدنى القديم	عبد العزيز عثمان
٦٦ ـ تاريخ الحضارة الإسلامية	لبارتولد ، ترجمة : حمزة طاهر
٦٧ ـ تاريخ العرب العام	لسيديو ، ترجمة : عادل زعيتر

٦٨ ـ تاريخ العرب والإسلام — د . نبيه العاقل

٦٩ ـ تاريخ العرب في الأندلس — د . أحمد بدر

٧٠ ـ تاريخ التشريع الإسلامي — الشيخ محمد الخضري

٧١ ـ تاريخ اليعقوبي — اليعقوبي

٧٢ ـ تاريخ الإسلام — د . حسن إبراهيم حسن

٧٣ ـ تاريخ الدولة العربية — يولياس فلهاوزن

٧٤ ـ تاريخ الطبري — ابن جرير الطبري

٧٥ ـ تفسير القرآن العظيم — لابن كثير

٧٦ ـ تفسير البيضاوي — البيضاوي

٧٧ ـ تحت راية القرآن — الرافعي

٧٨ ـ تاريخ الحضارة — د . جورج حداد

٧٩ ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه — للمرحوم العقاد

٨٠ ـ حقوق الإنسان في التاريخ — د . عز الدين فوده

٨١ ـ حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ — فؤاد محمد شبل

٨٢ ـ حصوننا مهددة من داخلها — د . محمد محمد حسين

٨٣ ـ حقوق الإنسان — محمد الغزالي

٨٤ ـ حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية — أبو الأعلى المودودي

٨٥ ـ حياة الصحابة — محمد يوسف الكاندهلوي

٨٦ ـ حضارة العرب — غوستاف لوبون ، ترجمة : زعيتر

٨٧ ـ حقوق الإنسان في الإسلام — د . علي عبد الواحد

٨٨ ـ حياة محمد — د . محمد حسين هيكل

٨٩ ـ دراسات في الفلسفة الإسلامية — د . محمود قاسم

٩٠ ـ دين وفكر — عبد الرزاق نوفل

٩١ ـ دقائق النفس اليهودية — د . محمد علي الزعبي

٩٢ ـ روح الدين الإسلامي	عفيف طيارة
٩٣ ـ رسائل الإصلاح	محمد الخضر حسين
٩٤ ـ السيرة النبوية	لابن هشام
٩٥ ـ سيرة الرسول	محمد عزة دروزة
٩٦ ـ شبهات حول الإسلام	محمد قطب
٩٧ ـ شمس العرب تسطع على الغرب	زيغريد هونكه
٩٨ ـ صوت الإسلام	لسان حال شباب سيدنا محمد
٩٩ ـ صبح الأعشى	القلقشندي
١٠٠ ـ صحيح البخاري	البخاري
١٠١ ـ عبقرية العرب في العلم والفلسفة	د . عمر فروخ
١٠٢ ـ علماؤنا العرب	معاوية محمود
١٠٣ ـ في ظلال القرآن	سيد قطب
١٠٤ ـ في النفس والمجتمع	محمد قطب
١٠٥ ـ فتوح البلدان	البلاذري
١٠٦ ـ قبسات من الرسول	محمد قطب
١٠٧ ـ قصة الكفاح بين العرب والاستعمار	العريان ـ د . شيال
١٠٨ ـ كبرى اليقينيات الكونية	د. محمد سعيد رمضان البوطي
١٠٩ ـ لا شيوعية ولا استعمار	للمرحوم العقاد
١١٠ ـ محمد رسول الله	محمد رضا
١١١ ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين	محمد الخضر حسين
١١٢ ـ محمد والقومية العربية	د . علي حسني الخربوطلي
١١٣ ـ محمد واليهود	برانق ـ محجوب
١١٤ ـ مبادئ أساسية لفهم القرآن	أبو الأعلى المودودي
١١٥ ـ ما يقال عن الإسلام	للمرحوم العقاد

١١٦ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	الندوي
١١٧ ـ معركة التقاليد	محمد قطب
١١٨ ـ مسيرون أم مخيرون	د . محمد علي الزعبي
١١٩ ـ من حديث الشعر والنثر	د . طه حسين
١٢٠ ـ نساء النبي	دكتورة بنت الشاطئ

● بالإضافة إلى الكثير من المصادر الأخرى التي أشرنا إليها في حواشي الكتاب .



المحتوى

جلسة	صفحة

صفحة

جلسة	صفحة

☆ ☆ ☆

كتب للمؤلف

١ ـ الإسلام في قفص الاتهام	الطبعة السادسة
٢ ـ مَنْ ضَيَّع القرآن ؟	الطبعة الثانية
٣ ـ الإنسان بين العلم والدين	الطبعة الرابعة
٤ ـ هارون الرشيد	الطبعة الخامسة
٥ ـ غريزة ... أم تقدير إلهي ؟	الطبعة الخامسة
٦ ـ آراء يهدمها الإسلام	الطبعة الرابعة
٧ ـ الإسلام وحركات التحرر العربية	الطبعة الثالثة
٨ ـ عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي	الطبعة الثالثة
٩ ـ الهجرة « حدث غيَّر مجرى التاريخ »	الطبعة الثالثة
١٠ ـ جرجي زيدان في الميزان	الطبعة الثالثة

☆ ☆ ☆

سلسلة « غزوات الرسول الأعظم »

١ ـ بدر الكبرى	« يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » .
٢ ـ غزوة أُحد	« عاقبة المخالفة » .
٣ ـ غزوة الخندق	« غزوة الأحزاب » .
٤ ـ صلح الحديبية	« الفتح المبين » .
٥ ـ غزوة خيبر	« الفتح القريب » .
٦ ـ غزوة مؤتة	« فإنما هي إحدى الحُسْنَيَين » .
٧ ـ فتح مكة	« الفتح الأعظم » .
٨ ـ حنين والطائف	« لن نغلب اليوم عن قلة » .
٩ ـ غزوة تبوك	« غزوة العسرة » .
١٠ ـ حروب الرِّدّة	« من قيادة النبي ﷺ إلى إمرة أبي بكر » .

☆ ☆ ☆

سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام »

١ ـ **القادسية**	بقيادة سعد بن أبي وقاص .
٢ ـ **اليرموك**	بقيادة خالد بن الوليد .
٣ ـ **نهاوند**	بقيادة النعمان بن مقرّن المزني .
٤ ـ **ذات الصواري**	بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
٥ ـ **فتح الأندلس**	بقيادة طارق بن زياد .
٦ ـ **بلاط الشهداء**	بقيادة عبد الرحمن الغافقي .
٧ ـ **فتح صِقِلّيّة**	بقيادة أسد بن الفرات .
٨ ـ **الزّلاقة**	بقيادة يوسف بن تاشفين .
٩ ـ **الأرك**	بقيادة المنصور يعقوب الموحدي .
١٠ ـ **العقاب**	بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحدي .
١١ ـ **مصرع غرناطة**	« أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر » .

☆ ☆ ☆

هذا الكتاب

* - «إن الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مريع... وما قبر محمد في مكة، إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الهستريا..»

«المسيو كيمون»

* - «القرآن من تأليف محمد»...

«د. بروز، درمنجهم»

* - «القرآن من وضع الراهب بحيرة، أعطاه محمداً أثناء وجوده في بلاد الشام».

«نورمان ديال»

* - «من الصعب أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً موحداً متجانساً وخالياً من المتناقضات».

«جولد تسهير»

* - «اعترف محمد في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث، اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله، وأشار إليهن في إحدى الآيات الموحاة...»

«كارل بروكلمان»

* - «أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الاسلام بالسيف»

«ج. ايزاك»

* - «إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة، وقالوا للناس: اسلموا أو موتوا، بينما اتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم».

«غيومان، لوسيتر»

* - «ولم تكن الحكومة الاسلامية يهمها سوى حمل الخراج إلى بيت المال على المقدار المفروض له... الذميون بقرة... الوالي يمسكها من قرونها حتى تسكن، وعامل الخراج يحلبها».

«يوليوس فلهاوزن»

* - «إن الاسلام جمد المسلمين بيد عقيدة القضاء والقدر»

«هانوتو»

* - هذه الآراء وعشرات غيرها.. ما نصيب صحتها على محك البحث المنهجي العلمي؟.. إنها ستقف في محكمة العقل، بعيداً عن التحيز العاطفي، والضجيج المفتعل، ولن يفرض رأي، فالكلمة الفصل للقارىء...